

بيع من هذه الرواية أكثر من مليون نسخة حول العالم



رواية

فيليكس تيمرمانز

# باليتير

ترجمة: منار عادل

سيفسفا  
SEFSafa PUBLISHING HOUSE  
WWW.SEFSafa.NET

# بالتير

تأليف: فيليكس تيرمانز



ترجمة: منار عادل

**سفا**  
SEFSafa PUBLISHING HOUSE  
WWW.SEFSafa.NET

**منار عادل/** مترجمة مصرية تخرجت في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة عين شمس، عملت مترجمة في قناة العربية وتعد رسالة الماجستير حاليًا بجامعة سانت ماري بكندا في مجال اللغة الإنجليزية.

وفي مايو 2020 فازت رواية "رحلات ابن البيطار" التي ترجمتها منار من اللغة العربية إلى الإنجليزية على جائزة "الناشرين المستقلين" بأمريكا الشمالية عن فئة الرواية الإبداعية للكتاب الإلكتروني.

.....  
**بالتبوير**

طبعة 2021

رقم الإيداع: 2020/10932

التسجيل الدولي: 978-977-821-159-7

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any form or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلبي

إخراج فني

علاء النويهي

الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار صنفصافة.

This is full translation for the novel: 'Pallierter' by Felix Timmermans.

This Book was published with the support of Flanders Literature ([www.flandersliterature.be](http://www.flandersliterature.be)).

 **FLANDERS  
LITERATURE**

  
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE  
WWW.SEFSAFA.NET  
elbaaly@gmail.com

دار صنفصافة للنشر والتوزيع والدراسات  
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

## الفصل الأول

### نهار جميل في شهر مايو

لم يكن الربيع مزدهراً في تلك الأيام الأولى من شهر مايو،  
اختبأت الشمس خلف السحاب تلقي النظر فقط من حين لآخر  
لتفصح مجالاً لبعض الشعاع الذهبي حتى يسقط على زهور  
الحوذان الصفراء.

والآن أصبح اللون الأخضر الساطع اليافع -الذي كان يندفع في  
كل الجهات ليقابلها في العشب والأشجار والسياح- ينتظر عناقها  
بفارغ الصبر.

باليستير الآن في مزاج سيئ.

"يبدو وكأن اللعبة انتهت".

لكن في نفس الليلة ظهر القمر مخترقاً السحاب بحمرة التفاح،  
بينما طبقة رقيقة من الضباب تغطي النهر والمراعي كقطعة من  
الشاش الرقيق. عند رؤيته لهذا المنظر قام باليستير ببل إصبع  
السبابة ورفعها عالياً! لقد جفت باتجاه الجنوب، ضحك باليستير  
وتدحرج في العشب وأخذ يغني في مرح، وقد طاف صوته عبر  
النهر ونسيم الليل الهادئ:

"إني أعلم من سيوقظني من نومي

العندليب الذي يغني بصوت عذب

طوال الليل،

أسفل الوادي سأسلك طريقتي

لأحيي الزهور في مغيب اليوم...!".

وفي اليوم التالي أشرقت الشمس!

بقي باليتير مستلقياً مستيقظاً نصف الليلة الماضية ونافذته مفتوحة على مصراعها، يراقب تفتت السحب حتى بدت زرقة السماء متناثرة مع نجوم شاحبة مليئة بضوء القمر حتى حوافها. تتساقط قطرات الندى ببطء على الأرض في روعة نقية هادئة وارتفعت نغمات غناء العندليب الصغير. ارتعش باليتير، وتذكر الشمس الآن وهي في الطرف الآخر من العالم عند الصينيين وأصحاب البشرة الداكنة. ستشرق غداً من جديد على وادي الأراضي المنخفضة الجميل وتدب الحياة في الأشجار والنباتات وستجعل الزهور تنمو وتمتلئ بالروائح وستهتز الغابات بأصوات الصفير وتغريد العصافير، وسوف ينمو باليتير نفسه.

بقي في سريره حتى انزلقت ملابسه عن أطرافه؛ ثم زحف تحتها مرة أخرى وغط في النوم مبتسماً.

عند بزوغ أول ضوء للنهار في الأفق الشرقي صاح ديك، انتفض باليتير خارج فراشه، خلع قميصه، خرج مسرعاً للنهر

كما ولدته أمه. ضباب رمادي علق فوق الأرض وغلف الأشجار،  
الهواء ساكن كالموت، الشعير كان محملاً بالندى الثقيل، قطرات  
كبيرة تتساقط من الأشجار.

ركض باليتير وقفز في المياه العميقة، غطس ثم ظهر سعيداً  
في منتصف التيار يلهث ويلمع من الماء. ضحك بعنفوان وقد  
تدفق الدم في عروقه بتأثير من الماء البارد.

سبح ضد التيار وترك نفسه لينجرف عائداً؛ سبح على طريقة  
الكلاب، انقلب وأخذ ينثر الماء ورفع يديه عاليًا حتى بدأ الماء  
يتموج ويتحرك وأخذت الأعشاب تنثني وتهتز.

مع تقدم النهار أصبح الضباب أكثر سُمكاً وبياضاً وقد اختفت  
الأرض على غير المتوقع. امتلأت الأشجار بالحياة، بتغريدات  
العصافير ورائحة الزهور المنعشة المنقاة من خلال الضباب.  
هنالك عبر نهر "نت" أشرقت الشمس بحمرتها تجتاح البياض  
وكانها انبعاث ناري مفاجئ.

قفز قلب باليتير من المنظر وصاح والدموع في عينيه "اليوم  
سوف يكون يوماً رائعاً" ناثرًا آلاف القطرات في الهواء ثم غطس  
مرة أخرى كأنه يبحث عن كنز ليأخذه معه، ثم انطلق مشرقاً  
ووردياً خلال الضباب الأبيض وهو يغني:

"الثور يمر في حقلي

يأكل في ثبات

آدم له سبعة أبناء،

سبعة أبناء لآدم".

عندما دق جرس الدير بوضوح عبر الحقول البيضاء، كان باليتير في غرفته مرة أخرى وسمع شارلوت تتعثر مسرعة على الدرج.

شارلوت دائماً تبقى في غرفتها حتى تسمع باليتير عائداً إلى غرفته، إذ قد سبق لها أن رأته وهو عائد عارياً كما ولدته أمه وصاحت مرتعدة وعادت مسرعة إلى غرفتها. فهي تفضل أن تتأخر عن الجمع أو حتى تتغيب عنه تماماً على أن تقابل رجلاً عارياً -كما ولدته أمه- في ضوء النهار.

عندما ارتدى باليتير ملابس نزل للدور السفلي وأشعل الموقد ووضع الغلاية النحاسية فوق النار وأضاف القهوة. بدأ السائل في الغليان فصبه متلذذاً، يا لها من رائحة زكية! إنها تنعش القلب! رائحتها ملأت الغرفة واستنشقتها باليتير كما تفعل الكلاب.

باتت السماء صافية، تسلك شعاع الشمس من النافذة المفتوحة وتلألأ على الأواني النحاسية والعباءة الذهبية الزاهية في صورة شمعية للعدراء فوق المدخنة.

وضع باليتير إصبعه في بقعة ذهبية قائلاً: "إنها أكثر لمعانا من العسل!" قطع شرائح من الخبز ووضع عليها الكثير من الزبد الشهوي وأخرج من القبو طبقاً مليئاً بالجبن الأبيض.

خرج إلى الحديقة التي ما زالت مبللة من الندى وشعاع الشمس متفرق بها ليقطف بعض الفجل. خرجت "لوبياس" وجراؤها الأربعة مسرعة من منزلها وأخذوا في العواء بين قدميه. أعطى كلاً منهم قطعة من السكر وهم يتدحرجون فوق العشب المبلل. أثناء قيامه بغسل الفجل، جاء طائر اللقلق "بيتر" لعشه بسمكة فضية في منقاره لوليفته التي كانت ترقد على البيض.

عندما أصبح كل شيء جاهزاً للإفطار، وقف عند الباب الخلفي يشاهد الشمس وهي تنشر أشعتها فوق الأرض. يا لها من متعة للحواس، الأرض الخضراء الواسعة ونهر "نت" الفضي يمر من خلالها، وأصوات الطيور وصياح الديك وطائر الوقواق! ماذا يمكن أن يكون أفضل من هذا؟

فتح باليتير الباب الأمامي أيضاً حتى يمر تيار بارد خلال الممر ويستطيع هو أن يرى العالم الذي استيقظ لتوّه.

من ناحية توجد الحقول والمراعي الممتدة بالغابات البنفسجية وطواحين الهواء في الأفق ومن الباب الأمامي سور الدير الخلفي، الحداثق الغناء والأسطح المميزة والبرج الأصفر لكنيسة القديس جومارس التي كانت تدق لوصولها لربع ساعة.

وكان أصواتها الواضحة تعلن رفاهية الأرض.

"إنه لا يدق طويلاً بما يكفي" يردد باليتير وهو يمسك بحبل الجرس في الممر ويجذبه بقوة حتى إن الجرس في البرج الصغير

لم يكد يتأرجح أعلى وأسفل إلا وانطلقت رنة قوية مدوية فوق مشهد الصباح. ظل يجذب الحبل وكأنه يرسل الصوت للطرف الآخر من العالم. وضحك وهو يشاهد الدير والمراعي.

وفي لفظة تقدير للطقس الجميل قام برفع علم أبيض كبير في الحديقة الأمامية حيث داعبته الشمس والرياح.

يا له من إحساس بديع، صوت تغريد الطيور وسط الأشجار الضخمة فوق الأسوار. ها هي شارلوت تأتي من وسط الجمع، وجهها يملؤه السلام وكتاب صلواتها في يدها. حين رآها باليتير سألتها:

"هل ترقصين أيتها الراهبة الصغيرة؟ هل ترقصين؟"

"سوف يكون يوماً جميلاً يا ولدي".

"مثل هذه الأجواء بعيدة عن الراهبات".

"أنا لست راهبة".

"أنت سمينة جداً على أن تكوني هكذا. لماذا لا تأكلين أقل؟"

قالت بغضب: "لماذا أفعل هذا؟".

دخلت المطبخ مسرعة وبدلت رداءها ثم عادت بتنورة صوفية زرقاء وقميص أحمر، كادت ذراعها اللامعتان الممتلئتان تنفجران من الأكمام الضيقة.

شربا القهوة في مرح وهما يضعان الجبن الطري فوق شريحة

كبيرة من الخبز، يغمسان الفجل اللاذع في الجبن والملح،  
وارتشفوا ولعقا الشراب والطعام كالأطفال.

أثناء الأكل، ظل باليتير ينظر للتل في الخلفية والشمس تصعد  
لمجال الرؤية. كانت الأشعة الحمراء للطاحونة قد بدأت في  
الحركة بفعل الرياح النقية التي فتتت الضباب وأرسلت كتلة  
بيضاء من الغيوم لتسبح في السماء الزرقاء، بينما تلوح رائحة  
القرنفل الأبيض والقرمزي أمام النافذة فوق مائدة الإفطار.

أنهى باليتير إفطاره ولوح بذراعه منادياً، بينما غضت شارلوت  
الطرف وهممت بالصلاة: "يا إلهي، إن قلبي يقفز فرحاً مثل  
الجنذب، وكأنك قد وضعت آلة الكونسرتينا بداخلي".

خرج من الأبواب وفتح أبراج الحمام وبيت الطيور. نثر الذرة  
والأرز والشوفان. كانت هناك رفرفة وتصفيق بالأجنحة؛ جميع  
أنواع الطيور كانت هناك؛ حمام، دجاج، ديوك، أوز، ديوك رومية  
وطاووس رائع. تناولوا الطعام بنهم؛ تدافعوا وتزاحموا وفرقوا  
أنفسهم ونقروا أسراب العصافير التي انقضت على الطعام في  
أسراب.

يا له من مشهد جميل تحت ضوء الشمس الفضي، الرقاب  
البراقة حيث لمعت الألوان في عشوائية: البني، الأخضر، الأزرق،  
الأحمر والذهبي؛ ورقطات اللون الأبيض والبني والرصاصي فوق  
الأجنحة؛ والأحمر والأصفر للمنقار والقدم؛ الأمشاط القرمزية؛  
الذيول المقوسة تهتز وتتلاأ مثل قوس قزح! شاهد باليتير كل

هذا بنصف عين مغلقة وقال: "حتى روبنز....لا يستطيع أن يرسم هذا!".

بعد الانتهاء من نقر أطيب الطعام تفرقت الطيور كل إلى طريقه، إما لكومة السماد، أو الإسطبل، أو الأرض البيضاء. طار الحمام في جموع إلى الحقول النادية، الطاووس دخل في خطى متبخررة ورقيقة إلى الحديقة وفتح ذيله الواسع بكل ألوانه الزاهية.

وقف باليتير معجبًا بالطاووس، رائع الجمال وسط الخضرة الرقيقة تحت البراعم الوردية والبيضاء لأشجار الفاكهة، تعجب كيف جعلتها أشعة الشمس تبدو ثرية ونادرة كالحكايات الخيالية.

وإذ بالطاووس يطير ليقف فوق شجرة تفاح، وذيله منسدل فوق البراعم الخجولة كأنه شعاع أخضر، واخترق الهدوء بصراخه القبيح ثلاث مرات.

فتح باليتير الصنبور لتنتلق نافورة صغيرة من الحوض الأزرق باتجاه السمك الذهبي. ثم ملأ غليونه وأخرج كبشًا ضخماً من الإسطبل. كان الكبش يسمى لوسيفر؛ لونه أسود كما الفحم ولجلده لمعة زرقاء، ذو قرونٍ صفراء وعيون رمادية.

حينما خرج الكبش إلى الخارج استنشق الهواء النقي وبدأ في القفز مرحًا، لكن باليتير قبض على قرنيه وامتطى ظهره بإحكام وأشعل غليونه. أخذ لوسيفر في هز رأسه وخرج من الفناء. حينها صفق باليتير وإذا بالكلاب الخمسة تأتي مسرعة تتزاحم وتجري أمامهما. عبر الكبش بباليتير البوابة الخلفية إلى ضفاف نهر

"نت" واتبع مسار النهر المتعرج.

كانت الطبيعة الغناء تحيط بهم من كل الجهات، غارقة في ضوء الشمس، مشرقة بالأخضر الزاهي لشهر مايو، تذوب في الأفق في ضباب أزرق فضي. تنتعش روح الإنسان بمجرد رؤيتها. كان المشهد مليئاً بالأخضر والرقع البنية، وتظهر بقع رائعة من زهور اللفت الصفراء هنا وهناك.

اجتاح اللون الأبيض حقول الشعير بفعل الرياح الخفيفة التي عبرت الخط الفضي لماء نهر "نت" البارد السريع.

الهواء كان معطرًا بالروائح الجميلة وتغريد العصافير الممتلئ بالبهجة، والأشجار على امتداد النهر تبدو مزدهرة ولامعة وكأنها قد بعثت للتو من التربة. تلمع قطرات الندى الكبيرة كقطع الكريستال فوق الأوراق العريضة لشجرة الموز. قطف باليتير ورقة شجر أثناء مروره ووضعها على شفثيه لتدخل قطرات الندى في فمه.

"رائعة! طعمها كالجنة!" صاح باليتير. كل ما في الكرة الأرضية كان يستسلم، كنوزها ونباتاتها وأزهارها وبذورها وجذورها وكل أنواع الفاكهة. المخلوقات في كل مكان تستيقظ للحياة والبعض يندمج معها؛ فالهواء كانت رائحته كالعسل بينما عربة سماء تقطر على الأرض.

هذه هي الحياة، معطاءة ومتجددة دومًا؛ عندما يخرج شيء من

الحياة يكون شيء آخر قد تكون بالفعل. تتحرك للأمام في دوائر بشكل أبديّ، شيء يفسح المجال لآخر وبالرغم من أن الوصايا العشر متاحة أمامك وقد تظل تفكر بها حتى يصبح لون شعرك رمادياً إلا أنك لن تكتشف أبداً الأسباب وراءها وكيف تشكلت.

"لكن هذا ليس مهماً" قال باليتير؛ "إنها جميلة! لنستمتع بالحياة جميعاً....". وبنكهة كعكة التفاح والكريز التي لا تزال في فمه، نظر إلى الأشجار ذات البراعم الوردية. غمرت قلبه السعادة. لا يوجد صوت سوى غناء مزارع شاب من آن لآخر أو سهيل أحد الخيول البيضاء أو البنية. تلمع شفرة المحراث تحت أشعة الشمس بينما الصياد على جانب النهر يهز شبكته والسمك الفضي يلعب بداخلها. انطلق طائر السنونو من طرف النهر للطرف الآخر، الكلاب تمرح في المراعي وتقفز فوق النهر الصغير وتتدحرج فوق العشب الأخضر وتضم أطرافه وهي تركض وتلعب. دوى نباحهم في الهواء مع صياح الديوك وطين النحل وقد علق في السماء عنقود رقيق من السحب البيضاء الصغيرة.

تمتم باليتير لنفسه: "لماذا أصبحت الأرض مجنونة كخادمة مريضة بالحب!" وهو أيضاً قد تأثر بنفس اندفاع الحياة المتقلب العنيف. أخرج الفلوت المصنوع من خشب الأبنوس من جيبه وعزف لحناً مميزاً. أخذت النغمات تطلق بعيداً فوق المراعي وكأنما الربيع نفسه يغني.

قلب باليتير كان مرّحاً، قطع حفنة من نبات الحماض ومضغها وعزف بعض الألحان على الفلوت حتى وصل إلى قلعة "هوف فان رينجين". وهي قلعة فلمنجية قديمة بنيت بالطوب الأحمر وخطوط بيضاء وسقف إردوازي منحدر ذي برج رفيع منحدر ليتخلص من الأمطار بسهولة. محاطة بخندق أخضر عريض وزنابق الماء تتدفق فيه وبالخلف توجد حديقة بها أشجار طويلة مليئة بالطيور. كانت القلعة تقف وكأنها قد نمت من الأرض، مثل زهرة أزهرت من الجمال والحيوية وعوامل الفضيلة للعرق الفلمنكي.

نزل باليتير من فوق الكباش الذي ركض بعيداً ليمرح في المراعي، أخذ يقضم أرق العشب والأوراق ويشرب من الجدول النقي. استلقى باليتير على الضفة ليستمتع بالربيع الغني المفعم بالحيوية. بعد ذلك ذهب ليقطف زهور الأقحوان والحوذان من أجل شارلوت.

عندما انتهى من جمع حفنة زهور، بدأ ينادي الكلاب ولوسيفر وأخذ يجري بكل قوته، وكان هذا بمثابة إشارة الانطلاق للعبة شرسة. الكلبة "لوبياس" اندفعت قدماً وقفز "لوسيفر" بجانبها وأتت الجراء في تخبط خلفهما. يقفزون فوق قنوات الماء ومن حين لآخر يتعثرون أحد الجراء الصغيرة في الماء، ركضوا وتدرجوا على طول طريق العودة إلى رينارد.

ثم امتطى باليتير لوسيفر ويده مليئة بحفنة الزهور ووجهه

مبتسم، وسار في الحديقة ذات الروائح الجميلة.

"أوه!" قالتها شارلوت وهي تأخذ منه الزهور، "يجب أن أضعهم أمام السيدة العذراء! ساجعلهم في المزهرة فوراً". وأسرعت بوضعهم في سطل حليب نحاسي؛ حيث كونوا لوحة مثالية تنتظر فناناً ليرسمها.

"ولكن اسمع". قالتها وصوتها مغلف بالأهمية، "أبونا نوليكنز أتى هنا ليخبرنا أننا يجب أن نخبز كعكتين أخريين؛ لأن هناك ثلاثة من أبناء عمومته سيأتون لزيارته، إنهم رهبان من دندورموند، وكعكتان فقط لن تكفيهم".

"نعم". رد باليتير، "فالصوم قد انتهى، وعندما يبدأ مرة أخرى سيكونون ممثلين مثل القواقع السمينة. يا إلهي، القديس فرانسيس برزت ضلوعه من الجوع!".

تمت شارلوت بشيء لنفسها وذهب باليتير ليطحن الذرة في طاحونته، التي تقع بجوار الحديقة حيث أقيمت فوق تل شديد الانحدار حتى تكون في مهب الرياح من كل الاتجاهات.

أتى تايبارت رافعاً ذيله، يحك قدميه وقفز فجأة بداخل مخزن الدقيق ليبحث عن الفئران.

أوشكت حقيبة الذرة على النفاد، بدأ باليتير يهز ما تبقى بداخلها، وجّه متكاً الطاحونة ضد اتجاه الرياح، بدأت أشعة الطاحونة في الدوران، فدارت الأحجار لتحول الذرة إلى دقيق.

أخرج رأسه من الكوة ونظر إلى الأراضي. أشعل غليونه وعلا  
الدخان الأزرق كريشة في الهواء النقي. بينما أخذت الطاحونة  
تصدر صريراً وأزيزاً في الرياح. تستطيع دون أي شك أن  
ترى بعينيك الأرض تنغمس في دفء الشمس. اندفعت البراعم  
الخضراء إلى الأمام كما لو كانت تحاول تعويض الوقت الضائع.  
عندما نظر باليتير لكل هذا ولمنظر الفاكهة الجميل وللأشياء  
الباهية على الأرض، قال لنفسه:

"كيف يمكن أن يريد أحد الموت أبداً؟" وبدأ في الغناء:

"ذهب الشتاء البارد عنا،

وأتى الربيع الجميل؛

والشجر والمراعي

ظهرت براعمها.

أجوب الوادي الأخضر

بصحبة مولي؛

يغرد العندليب ببهجة

ترنيمة جميلة لمحبوّتي".

ما إن وصل للبيت الثاني، إذا بشارلوت تناديه بحماس:

"أخي، أبونا نوليكيّنز ينتظرك؛ يقول ليس لديه الكثير من

الوقت".

"أخبريه أن يأتي إلى الطاحونة".

"ماذا! أتظن أن الأب وهو يرتدي أفضل عباءاته سوف يأتي إلى طاحونتك ليتسخ؟".

"إن كيسًا من الطحين فوق معطف أسود أفضل من بقعة زنب على الروح".

وأتى قسيس الدير، رجل قصير كبير السن ذو وجه صبوح ورأس مدبب ومهدب بشعر أبيض، تقدم نحو باليتير وعرض عليه من صندوق نشوقه.

"ماذا تظن في الشمس يا باليتير؟".

"إنها حلوى الحياة".

"إنها تجعل حلقي جافًا".

"يمكن للرجل دائمًا أن يجد سببًا ليكافئ نفسه، هيا بنا لنحتسي شرابًا".

ذهبوا إلى غرفة الجلوس المشمسة حيث أخرج باليتير جالونًا من البيرة وقنينة خمر مغطاة بشبكة عنكبوت.

شرب القسيس من النبيذ الأحمر وباليتير شرب البيرة الذهبية؛ انعكست أشعة الشمس على الطاولة مرسلّة شعاعًا دافئًا من الضوء على السائل الأحمر والبني.

"باليتير". القسيس متسائلًا: "هل أخبرتك شارلوت بأمر

الكعكتين؟".

"وإن كانت جثة هامدة، سوف تعود للحياة مرة أخرى لتخبرني.  
أنتم تعرفون كيف تتحكمون بالمرأة. أتمنى لو أنني أستطيع أن  
أفعل ذلك".

"لا يوجد ما هو أسهل من هذا! كن قسيماً أنت الآخر".

غمز باليتير بعينيه وقال مازحاً:

"قد يحبونني أكثر كما أنا!".

قالها وهو يصب كأساً أخرى ورفعها في الشمس ثم شربها  
سريعاً حتى لفظ لاهتاً، وقال:

"ها هي روح الأرض؛ لتدخل إلى جسدي". وشرب كأسين  
آخرين.

"انظر إلى الأرض في بهائها!". صاح باليتير مشيراً إلى الحقول  
المنحدرة. "أستطيع أن أقبلك من أجل السعادة الخالصة. هيا بنا  
لنرقص!" وأمسك بيدي القسيس وأخذ يرقص معه وهو يغني:

"اليوم عيد القديسة مارجريت؛

دعونا نسعد، هيا بنا نمرح.

اليوم عيد القديسة مارجريت؛

الذين لن يحفظوه من الأفضل أن يبتعدوا".

"كفى كفى، هذا يكفي". قالها القسيس ضاحكاً، "ليس لدي

وقت لهذا، يجب أن أقرأ واجباتي".

تركه باليتير ليذهب صائحًا: "سوف أرسل لك بعضًا من الفراولة الطازجة".

"نعم! هذا هو بالضبط ما كنت أحلم به البارحة!". قالها القسيس ثم ذهب إلى الدير. فتح كتاب واجباته وبدأ يقرأ. بعض من أشعة الشمس اخترقت الأشجار الطويلة إلى عباةته السوداء وقبعته اللامعة، بينما الطرف الذهبي للكتاب يلمع بين الحين والآخر.

شعر باليتير برغبة في قراءة مدح للطقس المبارك وهو ينظر لكل هذا.

فتح الإنجيل القديم ورفعهُ إلى النافذة وقرأ بصوت عالٍ:

"طُوبَى لِلَّذِي تَخْتَارُهُ وَتُقَرَّبُهُ لِيَسْكُنَ فِي دِيَارِكَ. لَنَشْبَعَنَّ مِنْ خَيْرِ بَيْتِكَ، قُدْسِ هَيْكَلِكَ.... تَعَهَّدْتَ الْأَرْضَ وَجَعَلْتَهَا تَفِيضُ. تُغْنِيهَا جَدًّا. سَوَاقِي اللَّهِ مِلَانَةٌ مَاءٍ. تُهَيِّئُ طَعَامَهُمْ لِأَنَّكَ هَكَذَا تُعِدُّهَا".

"ارَوْ أْتَلامها. مَهْدٌ أَخَادِيدها. بِالْغُيُوثِ تُحَلِّلها. تُبَارِكْ غَلَّتْها".

"كَلَّتِ السَّنَةُ بِجُودِكَ، وَأَثَارُكَ تَقَطَّرُ دَسْمًا".

"تَقَطَّرُ مِرَاعِي الْبَرِّيَّةِ، وَتَتَنَطَّقُ الْأَكَامُ بِالْبُهْجَةِ".

"اكتست المروج غنمًا والأودية تتعطف بُرًّا. تهتف وأيضًا

تغني".

"اللابِسُ النُّورِ كَثُوبٍ، البَاسِطُ السَّمَاوَاتِ كَشَقَّةٌ".  
"المُسَقَّفُ عِلايَهُ بِالمِيَاهِ. الجَاعِلُ السَّحَابِ مَرْكِبَتَهُ، المَاشِي  
عَلَى أَجْنَحَةِ الرِّيحِ".

"المُفَجَّرُ عِيُونًا فِي الأُودِيَةِ. بَيْنَ الجِبَالِ تَجْرِي".  
"تَسْقِي كُلَّ حَيَوَانَ البَرِّ. تَكْسِرُ الفِرَاءَ ظَمَاهَا".  
"فَوْقَهَا طُيُورُ السَّمَاءِ تَسْكُنُ. مِنْ بَيْنِ الأَغْصَانِ تُسْمَعُ صَوْتًا".  
"السَّاقِي الجِبَالِ مِنْ عِلايِهِ. مِنْ ثَمَرِ أَعْمَالِكَ تَشْبَعُ الأَرْضُ".  
"المُنْبِتُ عُشْبًا لِلْبَهَائِمِ، وَخُضْرَةً لِخِدْمَةِ الإِنْسَانِ، لِإِخْرَاجِ خُبْزٍ  
مِنَ الأَرْضِ".

"وَخَمْرٍ تُفَرِّحُ قَلْبَ الإِنْسَانِ، لِإِلْمَاعِ وَجْهِهِ أَكْثَرَ مِنَ الزَّيْتِ".  
"تَشْبَعُ أَشْجَارُ الرَّبِّ، أَرْزُ لُبْنَانِ الَّذِي نَصَبَهُ".  
"حَيْثُ تُعَشِّشُ هُنَاكَ العَصَافِيرُ. أَمَّا اللَّقْلُقُ فَالسَّرُوبِئَةُ".  
"الجِبَالُ العَالِيَةُ لِلوُعُولِ، الصُّخُورُ مُلْجَأٌ لِلوِبَارِ".  
"أُغْنِي لِلرَّبِّ فِي حَيَاتِي. أَرْنَمُ لِإِلَهِي مَا دُمْتُ مُوجُودًا".  
أَقْفَلُ بِالْيَتِيرِ الكِتَابِ.

كان قد شم رائحة العسل أثناء القراءة، فأكل بعضه فوق قطعة  
بسكويت. ثم مد البصر إلى المروج.

يا له من جو رائع! من بعيد رأى طفلين يقطفان الزهور في

المراعي حيث ترعى الخيول، وراهبتين تسييران بجوار جدول  
"نت" ترتلان صلواتهما بالتناوب، والرجال الثلاثة العميان في  
الدير يجلسون فوق العشب يضحكون.

كانت الطيور تطير حولهم وقلب باليتير تغمره السعادة ويذوب  
كالشمع فتمتم بكلمات مريم المباركة:

"تُعْظُمُ نَفْسِي الرَّبِّ".

أشعل شمعة أمام صورتها وقال:

"إذا كنت أنت من تمنحينا الجو الجميل، فأنت تستحقينها".

ثم عاود ليكمل ما يطحنه حتى نادى عليه شارلوت للعشاء.

قدمت أولاً حساء البقدونس مع الهليون؛ تناولا طبقين منه. ثم  
أتى بعد ذلك لحم الخنزير المشوي مع السبانخ والبطاطس، مثل  
الدقيق الجيد طازج وبلا طعم. وضعا مستردة لفتح الشهية. ثم  
أكل كل منهما نحو نصف دسنة من الفطائر المحلاة التي كانت  
رائحتها بيضا وقرفة؛ ثم أضافوا زبداً وسكراً. وأكلوا طبقاً من  
فراولة طازجة حتى سال عصيرها فوق ذقونهم. تعرقت الوجوه  
من الطعام الجيد، وقال باليتير:

"يا إلهي لقد انتهت المتعة الآن. امنحها لنا مرة أخرى".

## الفصل الثاني

### مساء في شهر مايو

حينما انتهى باليتير من وجبة منتصف اليوم؛ المكونة من خبز وزبد بالإضافة إلى كعكة راوند طازجة، خرج إلى الحديقة ليمهد قطعة من الأرض لزراعة خسروات السكورزونيرا والرجلة وقرنبيط. ملأ عربة السماد من المخزن وجرها إلى حيث جرف التربة؛ ونثرها هناك على الأرض بشكل واسع حتى امتلأ الهواء برائحة السماد الكريهة.

أغلقت شارلوت الباب.

صاح باليتير: "إن أنفك مدلل من البخور والشموع!"

عندما أصبحت التربة مشبعة تمامًا، فرك يديه برضا قائلاً:

"ها أنا شخص ذو فائدة، فما أنا أُعيد للطبيعة ما تعطينيه.

شيء مقابل شيء".

غسل يديه وجلس أمام الباب يدخن غليونه ويشاهد العديد من الأطفال يلعبون في الجوار. أتى بعض منهم يلحون لسماع قصة.

بدأ باليتير يروي قصة الأقرام السبعة والأميرة التي حُبست في البئر، استمعوا بأفواه فاغرة. أتى العديد من الأطفال الآخرين

يتدافعون. وحينما وصل إلى الخنزير ذي الأنف الطويل، صاح الأطفال جميعاً في آن واحد: "احك لنا قصة أخرى! احك لنا قصة أخرى! ارو لنا عن "جني الماء"، "الأحمق الذي سافر إلى روما"، "الصليب الفضي"، "ديك الرياح"، والعديد من القصص الخرافية الأخرى.

"كلا كلا يا أولاد! في وقت لاحق!".

وعندما هم للقيام تعلقوا بأرجله ومعطفه.

"خذوا" قالها وهو يلقي لهم بعض السننات؛ في لحظة كان الأطفال يشكلون كومة فوق الأرض، يتدافعون ويتزاحمون فوق النقود.

ضحك باليتير وذهب ليحضر قاربه ويذهب في جولة.

أخذ يجدف ضد التيار حتى تخطى مزرعة فان رينجين وتصيب عرقاً.

ثم ترك نفسه ليجرفه التيار عائداً، أشعل غليونه، وانغمس في جمال المساء الرقيق الذي كان يملأ الكون.

ضوء الشمس في الغروب تدفق كالذهب السائل آتياً من السماء ومنسدلاً فوق الحقول، متقطعاً فوق الأشجار وتاركاً رقعاً ذهبية فوق جذوع الأشجار، تلالأت الأبقار البيضاء وحوائط المنازل البيضاء.

كانت المياه مثل الذهب السائل، لم يكن هناك سحب في السماء،

اهتزت الخفافيش السوداء في زرقة السماء الداكنة حيث كانت تلمع بها نجمتان. الضباب الرقيق يزحف فوق صفحة الماء وفوق الأزهار وينتشر فوق المراعي المعطرة.

يطفو القمر الأصفر فوق سكون الليل. سمع باليتير دقات جرس الدير الواضحة تأتي من بعيد.

فاض قلب باليتير؛ كان الجمال يفوق الصمت، يجب أن يتحدث وشعر أن الكلمات التي تعبر عن السكون العميق وسحر المساء هي:

"أنجليوس، من الغيوم هنالك

ملاك الرب ينادينا بوضوح وبصوت عالٍ

هاي ماريا!

أنجليوس! الكلمة المتجسدة

من قوم متواضعين يجب أن تُسمع

هاي ماريا!"

ترك باليتير نفسه للتيار ليعود وسط الضباب وسحر عطور المساء.

عند وصوله للمرسى، وقف في القارب للحظة يستمع إلى صوت بوق الراعي يأتي من بعيد والدموع تملأ عينيه.

لاحقًا كان باليتير يقرأ على ضوء مصباح خزفي في كتاب قديم

من ورق الرشمان.

"كيف يمكن استخراج وتركيب العديد من الزيوت والمراهم والضمادات من مختلف أنواع الزهور والنباتات وكل أنواع الأعشاب لتخفيف ومداواة الجروح والحروق والكدمات لكل أجزاء جسد الإنسان".

هنا عرف ما هي النباتات التي يجب أن يجمعها ويعددها لتكون جاهزة لاستخدام المزارعين والراهبات والفقراء من حوله. كان من وقت لآخر يتطلع للقمر من النافذة. في العاشرة والنصف أغلق النافذة وأطفأ المصباح وصعد لغرفته؛ وصل إليه صوت شارلوت وهي تقرأ صلواتها في غرفتها.

وقف في رداء نومه مستعداً للنوم وذهب إلى النافذة ليلقي نظرة أخرى على المساء وهو مليء بالضباب وضوء القمر. كان الجو ناعماً وصافياً كالزيت.

"إن التفكير في النوم خطيئة". قالها باليتير وهو يميل على حافة النافذة ليتمتع برؤية روعة الليل: كان الهواء محملاً بعطر الزعرور، والعندليب الصغير بدأ يغني مرة أخرى. أصغى باليتير بكل اهتمام. كان اللحن في البداية طويلاً وموحداً ودقيقاً، ثم بات أوضح، وفجأة تحولت الأنغام إلى جو جميل من الانسجام. كان سكون الليل بين الإيقاعات يمثل جزءاً من الموسيقى الرائعة.

شعر باليتير بسعادة غامرة أكثر فأكثر وبحث عن طريقة ليعبر بها عن بهجته الشديدة. أحضر الكونسرتينا وجلس على كرسي

مقابل للنافذة برداء نومه البارد يعزف أغنية ذات نغمات رنانة  
ونغمات عالية ونغمات متوسطة، انطلقت الألحان بعيداً متمائلة  
وسط رائحة الليل المعطرة فوق المراعي المغطاة بضوء القمر.  
تم قفز باليتير إلى سريره ليخلد إلى النوم.

## الفصل الثالث

### الحديقة ورسالة شارلوت

كل الأوراق الخضراء الساحرة التي كانت تنبت من الأشجار غدت الآن متفتحة نحو السماء.

امتلأت المراعي بالورود وتخللت الهواء رائحة زهور الزنبق والسوسن والبقدونس طوال اليوم مع حلاوة الأفيون الباهتة. من كان ليفكر في ظل الشتاء الأبيض أنه في جوف الأرض الجرداء القاسية والأشجار السوداء العارية تكمن تلك القوة الحيوية القوية للحياة؟

كان باليتير يتخلص من النباتات الصغيرة في الحديقة؛ كانت الأرض طرية كالزبد غنية ومشرقة. شعر باليتير بالشمس كنسيم دافئ فوق قميصه؛ توقف واستدار ليستمتع بها وبدأ يغني. توقف من آن لآخر ليشاهد الرفاهية ذات الرائحة الحلوة؛ يحتاج باليتير إلى أكثر من عينتين اثنتين ليستمتع بكل هذا الجمال.

الأشجار امتلأت بالأوراق مكتملة النمو وفروعها ذات ضوء أخضر كضوء القمر، والأزهار والعديد من الورود بدأت في الازدهار بالفعل.

قطرات الندى لمعت فوق زهور البانسي البنفسجية. غنى طائر الشحرور في الأشجار الخضراء وهو مختبئ داخل أوراق وبراعم أشجار الكستناء. غنى الطائر بكل جوارحه، بدا وكأنه موسيقي في الكنيسة يملؤها بالإخلاص.

"هذا يستحق أن أشرب كأسًا" تمتم باليتير. وضع يديه أمام فمه مناديًا: "خمرة القسيس! أعطني خمرة القسيس!" وأكل حفنة من البازلاء.

بعد فترة وجيزة أتت شارلوت تحمل الزجاجاة وأكوابًا قديمة الطراز، اشتم رائحة الخمر الذي تم فتحه للتو، فتح فمه وأغلق عينيه وهو يصب من الزجاجاة، شعاع الشمس اخترق الزجاج وأحال السائل الباهت إلى اللون الذهبي.

حينما انتهى من شرب كأسه ببطء نقر عليه بإصبعه مُصدرًا موسيقى واضحة.

صبت شارلوت كأسًا لنفسها، لاحظ باليتير بقع الحبر فوق وجهها الوردي.

"ما هذا السواد الذي يعلو وجهك؟"

"حسنًا، أنا أكتب لهم رسالة ليأتوا ويحضرُوا مهرجان الكيرميس، ولكنني أفكر". أضافت مسرعة: "أحب أن أدعو ابنتي الروحية ماريكا أيضًا. كيف سيكون ذلك؟".

رد باليتير: "إذا كانت جيدة في تناول الطعام، دعيتها تأتي

حتى أستطيع أن أراها".

"إنها فتاة حسنة المظهر، طيبة كالملاك". جاوبت شارلوت بإعجاب، "لا تستطيع أن تؤذي بعوضة، دعها وشأنها، فهي في أول تعامل لها..".

قال باليتير: "تعالى تعالى! ألم أسمع هذا مئات المرات؟ أخبريها أن تأتي وتدع معدتها فارغة وشهيتها مفتوحة بشكل كافٍ لملئها".

"سوف أخبرهم" قالتها شارلوت وانصرفت.

شرب باليتير ما تبقى من الخمر؛ كان ينوي أن يعود للعمل مرة أخرى، لكن بريق ضوء انعكس في عينيه، نظر فوجد قاربًا ذا شراع أبيض ضخم أخفى كل السماء، يلمع تحت أشعة الشمس ويرفرف مع النسيم. نهض باليتير ومال نحو الحافة ليتمكن من رؤيته بشكل أفضل.

رائحة شجيرات الزعرور الحارة جعلته ينسى القارب؛ لكن الفتى الذي يتحكم في الدفة نفخ في البوق فجأة، انطلق الصوت بعيدًا فوق الحقول ثم توقف وانكسر فوق المساحة الزرقاء.

تحرك الشراع، وها هي الأراضي المنخفضة الجميلة تمتد أمامه. ها هي خضراء جميلة صافية في ضوء النهار الضعيف، السماء كانت زرقاء وبها سحب كبيرة منتفخة بيضاء كقمة الجليد. كانت زرقة نهر نت عميقة وصافية كالزيت.

تدور طواحين الهواء ببطء، البيوت تبدو كنقط بيضاء وحمراء  
لامعة من بعيد.

أعداد لا تعد ولا تحصى من عشب الحوذان والهندباء الصفراء  
تمتد في المراعي وكأنها قطرات من الزبد واللبن. مضى سرب من  
الإوز البري وغرد طائر العقعق في ظل الخشب البنفسجي.

"آه، لا شيء أريد إطلاقه سوى بالون!". قال باليتير.

أحضر الأحمق حوضاً وصنع رغوة مستخدماً الصابون الناعم  
ومياه الأمطار ثم ذهب ليبحث عن أفضل غليون وجلس مرة  
أخرى بجوار الحافة أخذ ينفخ بقوة في الماء حتى تكونت كتلة  
من الرغوة في منتصف الصابون. أمسك بإحدى الدوائر الهشة  
في غليونه وأخذ ينفث بحذر حتى خرجت فقاعة هواء، وبدأت  
تكبر تدريجياً وانعكست فوقها الألوان: أحمر، أخضر، بنفسي  
والخطوط الذهبية. فُتن باليتير؛ فقد عكست وجهه، منزله وكل  
الأرض الواسعة.

"وكأنني قد نفخت روعي بداخلها!" قالها متنهداً. حينما صارت  
بحجم رأس طفل وغلفت بالألوان، هزها بلطف ليخرجها من  
الغليون فارتفعت ببطء في النسيم الأزرق.

"يا له من شيء جميل! خسارة أنني لا أستطيع أن أثبتها في  
السقف".

أخذ ينفث العديد من الفقاعات الكبيرة والصغيرة، طفا جميعها ببطء في الهواء وكأنهم يفتخرون بوجودهم. بدوا في انعكاس السماء الزرقاء باللون الذهبي أو الأحمر في بهاءٍ يفوق نجوم الليل. بعضها طفا عاليًا وبعضها طفا بالقرب من الأرض أو تكسر فوق سيقان الأشجار، لكن معظمها قد تكسر بضوء الشمس. بيتر -طائر اللقلق- كان يتأمل اللعبة وهو يجلس فوق السطح ومنقاره بداخل ريشه.

رآه باليتير وحاول أن يجعل الفقاعات تطفو في اتجاهه. جاءت الفقاعات بجواره ولكنه تركها تمر، حتى اقتربت واحدة منه فكسرها بمنقاره الأحمر.

صاح باليتير: "رائع يا بيتر! سوف تحصل على بعض اللحم الآن!". وبدأ ينفث وكأنه لا يكتفي من تلك الألوان السماوية.

في ظل انشغاله بهذا، مر رجل رفيع شاحب الوجه يقرأ كتابًا ضخماً. كان فيلسوفًا وعالم لاهوت ومؤرخًا وعالم طبيعة والعديد من الأشياء الأخرى.

"مرحبًا!" نادى باليتير، الذي كان يعرفه. "كيف لك أن تمضي تبحث عن بقايا العام الماضي، بينما تسطح الشمس مشرقة؟".

"أنا ليس لي شأن بالشمس" أجاب الرجل المثقف، "إنها تشرق دومًا. أنا أبحث عن نظام الكون".

رد باليتير: "تريد أن تحتفظ بالماء في قفص الطيور".

ذهب الفيلسوف مع كتابه وهو يشعر بإهانة شديدة.  
كان هناك حركة وصوت تحت أوراق الكرنب ثم خرجت سلحفاة  
لونها أبيض وأسود.  
قال باليتير: "أهلاً فيل! لم أرك منذ يومين. كيف حالك؟ تعالي  
هنا!".

جاءت السلحفاة، ربت باليتير بعقلة إصبعه فوق صدفتها  
اللامعة. نظرت إليه. رفعها إليه فبدأت في فرك رأسها الخشن  
فوق خديه.

"يا لك من كائن طيب صامت!". قالها باليتير وهو يضعها  
أرضاً. "خذي هذه لك!". وأمسك بزبابة من المئات التي تن  
حواله وضعها في فم السلحفاة.

هنا دقت ساعة الدير اثنتي عشرة دقة وخرجت شارلوت من  
المطبخ تصيح في سعادة:

"لقد انتهيت! لقد كتبتها! سوف أقرأها لك". جلست أرضاً  
أمام باليتير، الذي جلس جاثماً ليستمع. استقر شعاع من ضوء  
الشمس فوق بلوزتها الحمراء ومئزرها الأزرق، وشعاع آخر ومض  
فوق عينها اليسرى التي لطختها شارلوت ببقعة حبر كما كانت  
هناك بقعة حبر أخرى من أنفها إلى شفثتها. بدأت تقرأ الرسالة:

"عزيزي العم هاري،

أتمنى أن تكونوا جميعاً بخير. يوم الأحد من الأسبوع القادم هو

مهرجان الكيرميس والسيد باليتير يتمنى أن تأتوا جميعاً لتحضروا المهرجان كالعام الماضي؛ لتأكلوا وتشربوا وتمرحوا كما يقول الإنجيل؛ ويقول إنك يجب أن تخبر العائلة بأكملها حتى لا أكتب رسائل أخرى. استقلوا القطار مثل العام الماضي. السيد سوف يكون في المحطة ليقبل النساء، الرجال يجب أن يسيروا. حداد الضفة الأخرى سوف يقتل خنزيراً للشواء؛ لأن السيد كما تعرفون لا يقتل أي حيوانات ولا حتى دودة. هو يقول إنه لا يستطيع أن يفعلها، لكنه يأكلها كلها سواسية. لن يكون لديه حيوان بالمنزل، على الرغم من أنني أحب أن يكون لدي طائر كناري، فهو لا يسمح بذلك.. يقول لي دائماً "هي يجب أن تطير"؛ لقد اشترت قفصاً جميلاً مقابل أربعة فرانكات لكنه يقول "من الأفضل أن أضع فيه كنارياً مصنوعاً من القصدير". البازلاء والبطاطس الصغيرة والفراولة سوف تكون متوفرة حينها. طباخ القسيس في الدير حصل على جهاز جديد لصنع كعكة التفاح، يجب أن تحصلوا على واحد، سوف تصنعون به العديد من المخبوزات. شيء آخر؛ يقول السيد إنه يجب أن تحضر ابنتي الروحية ماريكا وأخبرها أن تصلي من أجلي.

أمل أن أراكم جميعاً بخير صحة وسوف أظل ملتزمة تجاهكم.

شارلوت بلكنز

ملحوظة: حينما يخيم الظلام، سوف يشعل المصابيح وبعض

الألعاب النارية

شارلوت بلكنز".

حينما انتهت من القراءة كانت دمعتان كبيرتان تنهمران فوق  
خدودها الحمراء، قالت بصوت مختنق: " هيا لتتناول عشاءك".

## الفصل الرابع زيارة إلى الطيور

حينما انتهى العشاء ارتدى باليتير أدوات التسلق، أخذ سلمًا صغيرًا ثم انطلق ل يبحث في عشش الطيور عن بيضها وصغارها. قام تقريبًا بتسلق كل شجرة، يضع السلم على ساق الشجرة ليتمكن من رؤية التجاويف، أو تسلق الأشجار كالكقط.

رأى البيض الأخضر الوردى أو البيض المنقط بالأسود يلعب في الأعشاش المظلمة، وجد بهجة في عدهم ولمسهم برقة بأصابعه؛ لكن معظم الصغار الذين بقي معهم كانوا يتضورون جوعًا ومناقيرهم مفتوحة.

امتدت الحقول بسلام تحت أشعة الشمس، لم يكن هناك عمال يتم رؤيتهم. لكن الشمس الساطعة في السماء كانت منهمكة، أشعتها تدفئ وتتخلل الأرض الخضراء الرطبة. نما الجزر في الأرض، كما أنك تستطيع أن ترى أعشاب القمح تنمو عاليًا.

بدت الأراضي شاحبة كما كانت تبدو السماء في اللوحات القوطية القديمة. تسلق باليتير شجرة تلو الأخرى: كان يتوقف ليتحدث مع مزارع أو أحد الفلاحات أو يجلس ينظر إلى الحقول؛

روى ظمأه من الجدول. حينها بدأت معدته في التلوي من الجوع.  
توجه عائداً للمنزل حينما وجد فجأة شجرة حور طويلة  
وضخمة تقف وحيدة على منحدر في الحقول المفتوحة ومن  
خلفها سحابة بيضاء فلمنيكية هائلة. يجب عليه أن يتسلق هذه  
أولاً وفي لمح البصر كان فوق قممتها.

أيتها الآلهة! كم تبدو الأرض كالجنة من الأعلى! وكأن قلب  
الأرض يقع تحت قدميه. أميال من الأرض الخصبة تمتد تحت  
قدميه. كان يرى أبراج عشرين كنيسة ومزارع متفرقة في كل  
اتجاه. كل القرى وطواحين الهواء والأسطح الحمراء والبيوت  
البيضاء منثورة كأنها خرز من اللؤلؤ والمرجان فوق بساط  
الغابات الأخضر وبراعم الذرة والحقول المربعة.

القطارات السوداء تتسلل ببطء داخلها، تاركة خيطاً من الدخان  
الأيض؛ الصنادل تنتشر بأشرعتها فوق نهر "نت" كسلسة  
متلائة تربط طرفي السماء.

السماء معلقة فوق كل هذا، ورؤيتها من الأعلى مشهد جليل  
وأكثر شموخاً، الشمس تضيء الفضاء ببريقها.

المنظر كله بدا لامعاً وجديداً كاللعبة الجديدة، قال باليتير:

"من هنا، البشر لا يساوون قطعة تبغ".

جلس هناك بالأعلى مثل العملاق وكأنه سيد الأرض، ولتزداد  
سعادته هبت نسمة هواء لتحرك بحر أوراق الشجر محدثة

حفيفاً، تمايل باليتير مع إيقاعها كأنه يبحر فوق سحابة إلى أرض بعيدة، رفع صوته وبدأ يغني بقوة. كان المشهد جميلاً جداً فهو لم يستطع أن يتركه ويرحل، والآن استحال الضوء الأبيض إلى ذهبي، بدأت الشمس تعلو تدريجياً في السماء وتحولت إلى الحُمرة؛ واشتعل الأحمر بين الغيوم وغمر الجو كله.

غابت الشمس خلف الغابة البنفسجية في خضم فوضى ضخمة من الغيوم اللامعة وامتدت الظلال وخفت البريق. كُسيَت الأرض بالشفق ولكن الشمس انعكست على باليتير كأنه زينة حمراء ونظر إلى نفسه في إعجاب.

رأى باليتير بعيداً طائري بلشون يحومون. لم يستطع أن يشيخ بنظره عنهم، فقد كانا في غاية الجمال تحت الظل الداني؛ شاهد خيالهم النبيل والمنحنيات المرسومة في ظل السماء. كانوا يقفون أحياناً وأجنحتهم مفتوحة ثم يندفعون في السماء الزرقاء، كانوا مثيرين للإعجاب بشكل غامض، وكما ظهرُوا في هدوءٍ عادوا واختفوا في الغسق البنفسجي.

بالرغم من اختفائهم إلا أن جمال وجودهم بقي في السماء، اختفى وهج الشمس وبقي فقط شعاع ذهبي في الغرب يسقط في الحقول. إنه المساء.

تسلق باليتير نزولاً وعاد مسرعاً بمعدة خاوية تزمجر، بينما هو صامت فإن قلبه مغمورٌ بالسعادة حتى أعماقه.

## الفصل الخامس

### السبت الذي يسبق المهرجان

غدت الشمس أكثر سطوعًا والسماء أكثر زرقة.

تضاعف حجم الأشجار والنهر ارتفع بما يوازي قدمًا، وفق ارتفاع القصب والسوسن البري، والشوكران والبقدونس التي ارتفعت على طول حافة الماء. العشب في الحقول ارتفع إلى الركبة والمئات من الأعشاب قد نمت بين الزهور والحميض والهندباء والبرسيم؛ إلى ما لا نهاية.

تغير المنظر يومًا بعد يوم، أصبح الأصفر هو اللون الغالب ثم البنفسجي ثم لمحة وردية ثم الأخضر مرة أخرى، تتباين مع نمو الأعشاب أو الزهور. إنه بهجة للنظر ومرتعة للشم. نما القمح لطول المزارعين وكسيت الجداول باللون الأخضر.

وقفت الغابات كالجبال؛ وبينما الشمس تغطي الكون مما يجعله جاهزًا لمأدبة العام ألا وهو حصاد الفاكهة، كان الناس منشغلين داخل وخارج منازلهم بالتحضير للكيرميس.

قد جاء هذا العام مع عيد العنصرة ومنزل باليتير يعم بالصخب الجميل.

امتلاً قلب شارلوت بالآمال لأن موكب الدير العظيم سوف يمر داخل الحديقة ووراء الأسوار، وسوف تقوم بالحصول على العديد من التسامح لنفسها ولبشر آخرين عن طريق سيرها فيه، وقد أشرق وجهها بالرضا.

وقد ساعدها باليتير في إعداد سلة ملابس مليئة بالهبات. وقد قامت بشراء أوراق لامعة باللون الأحمر والأزرق والأصفر والأخضر لتقطع على شكل مربع وطلبت أوراق الشيكولاتة الفضية اللون من محال الكاثوليك. فهي سوف تضع زهورًا وأعشابًا عطرية يوم الموكب، فهي لا يمكن أن تكون جميلة بما فيه الكفاية ليبسط الرب قدمه المقدسة فوقها وأخذت تغني ترنيمات أثناء تقطيعها للأوراق.

هي تستطيع أن تتفاخر زهواً بسلتها حيث إن أغلب الراهبات فقيرات وكن يجب أن يرضين بأغلفة القديس فرانسيس الملونة ومجلة ماري.

"ألن يسعد الرب بتلك الهبات الجميلة!". قالتها وهي تفرك كفيها.

رد باليتير: "إذا الأمر لا يتطلب الكثير ليسعد الرب!". كان هذا الرد كفيلاً ليعكر مزاج شارلوت لنصف الساعة القادمة.

أخيراً أتى يوم السبت ولا توجد غيوم في السماء ولا حتى نسيم؛ كان كل شيء ساكناً، حتى الريشة لا تجد رياحاً كافية لتحركها.

شارلوت كانت منهمكة؛ فهي فرمت اللحم أولاً ثم شكلته على هيئة كرات لحم كبيرة وبدأت في طهؤهم ببطء ثم أخذت تحضر عصير زبيب سميك بالدقيق، وعندما تحمص اللحم وأصبح لونه بنيًا جميلًا صبت عصير الزبيب فوقه مما يفتح الشهية. في هذه الأثناء كان يتم طهو الأرز في مقلاة كبيرة وقد قدمته في أطباق رائعة ملونة وكشطت بإصبعها ما تمسك بالمقلاة.

جلست تقشر البازلاء وباليتير يقشط زبدة الحساء؛ كان كل شيء يبدو شهياً، فقد كان هناك ديك وأكثر من مئتي كرة لحم وأربعة أرطال من عظام النخاع وقطعة لحم كبيرة بداخلها. ثم قامت شارلوت بتقشير البطاطس وقام هو بتحضير الخنزير للشواء. اللحوم والأطعمة الأخرى التي كانت سيتم طهوها في اليوم التالي تم حفظها طازجة وباردة في القبو.

شارلوت بدأت في تقطيع الخس والقرنبيط مسرعة لتقوم بالاعتناء بأشياء مختلفة، كانت ساعات منتصف اليوم الهادئة تنبسط فوق الأرض الخصبة المغطاة بأشعة الشمس.

في نحو الساعة الرابعة فتح باليتير باب الفرن الأسود وهو يبدو في خشوع وكأنه يجثو في الكنيسة. يا لها من رائحة جميلة دافئة للدقيق والبيض واللبن ممتزجين في أنفه، وياله من لون ذهبي شهي يلمع بداخل الفرن. قام بسحب الأرغفة بحرص، كان مسرورًا بمنظر اللون البني الغامق الذي يعلوه واللون الأصفر الذهبي على الأطراف. كشفت الشقوق المقرمشة العميقة

الواضحة عن حرارة الخبز الأبيض وطمع باليتير في بعض القطع من الأطراف.

نضجت الكعكات، فاتحة للشهية لإغراء القديس أنطوني وتسللت الشمس من النافذة لتضيء المربى الحمراء والصفراء.

خفت الضوء فجأة وأتت غيمة رمادية ضخمة لتحبب الشمس. لم يستطع باليتير أن يصدق ما يراه وهرعت شارلوت إلى المطبخ وهي تصيح:

"يا إلهي! لقد انقلب الطقس الجميل! والكيرميس والموكب!...  
يا إلهي! يجب أن أذهب لأصلي!"

وزهدت إلى غرفتها، جلست على ركبتيها تتلو صلاتها وهي مغمضة العينين.

لكن الأمطار بدأت تنهمر.

صاح باليتير: "حسنًا دعونا نستفيد منها!" وترك الكعكة، وخرج إلى الحديقة.

وفي لمح البصر كان يقطر ماء، كان سعيدًا بها مثلما يسعد متسول مرتجف بالحليب الدافئ والخبز.

سقط المطر البارد الناعم، غسل الأشجار والنباتات، تناثر فوق المياه ونقر فوق السطح، سيمفونية مائية بديعة.

رفع الحمام والديوك أجنحتهم فوق رؤوسهم لتبتل أطرافها الدافئة.

بيتر - طائر اللقلق- ووليفته وقفوا بلا حركة فوق ساق واحدة في عشهم، جلس البط مجتمعاً بأجنحة مفتوحة فوق الأرض البيضاء.

كان باليتير قد قص شعره منذ يومين، سقط المطر فوقه ولمع كأنه كرة جرانيت.

أخذ المطر ينهمر! وأثناء تساقطه سطع شعاع شمس مخترق الغيوم أضاء شريطاً أخضر زاهياً في الحقول. تغلغل الضوء داخل المطر حتى بدا وكأن المطر يسقط في الذهب، مثل البازلاء الذهبية. عندما رأى باليتير كل هذا صاح: "إنه المَن، إنه المَن!" وألقى برأسه إلى الوراء وجعل القطرات الذهبية تدخل في فمه المفتوح. ثم ظهر شعاع شمس آخر ومن خلفه شعاع آخر، وكأنما الربيع قد عاد على عجل.

ارتفع طرف السحابة الممطرة بعيداً فوق المنحدر، نصف الأرض غدا يلمع بشعاع الشمس بينما لا يزال المطر ينهمر في الجزء المظلم.

نفضت الطيور البلال عن أجنحتها ثم طارت لفرع آخر، بدأت بعض الطيور تغرد ثم أخذت جميعاً في التغريد سَوِيًّا، كل ما كان له منقار بدأ في التغريد وكأنها أغنية بهيجة، الديوك صاحت وطاقير القنبرة حلق في السماء.

"حسنًا، يا لك من مجنون". قالتها شارلوت متعجبة: "لتقف في المطر وتبتل هكذا مثل البوغارت!".

"احفظي لسانك يا فتاة، لقد جعلتني الأمطار أنمو قدمًا أطول".  
قالها باليتير وهو ذاهب ليرتدي قميصًا نظيفًا وبنطالًا جافًا.

بدأت الطبيعة وكأنها عادت إلى الوراء أربعين يومًا، جميع أنواع الروائح خرجت من الأرض الرطبة والأشجار كانت مبهجة. السماء أصبحت زرقاء مرة أخرى ولمعت جميع الأشياء المبللة تحت الشمس.

تمشى باليتير في حديقته في سلام.

أدت ثروة الصيف جميعها فقط بمجرد ربع ساعة من المطر. لقد أخرج المطر رائحة الزهور والورود والمينيونيت مجتمعة. لقد غسلت البراعم المستعدة للتفتح وفي لحظة تضاعفت الزهور. لا تزال الأشجار تقطر، وقطرات المطر تتلألأ باللون الفضي على كل زهرة.

عمر باليتير إحساس بالبركة. أخذ مزمار القربة وجلس على أريكة مقابل الباب وبدأ يعزف أغاني خاصة بموسيقى القربة مثل "سأغني أغنية لقوم منسيين لفترة طويلة، الذين كانت لحاهم تنسدل حتى الركبتين". سرى صدى النغمات القوية بعيدًا في ظل غروب الشمس الذهبي.

خرجت الراهبات ليسمعن، تحدثن مع شارلوت، التي تباهت

بسلة هباتها ثم سرن بجوار السور.

العشاء والبيرة في المطبخ النظيف كانت أطعم من المعتاد.  
ثم جاء الليل والسكون. زفرت الأرض المطر في صورة ضباب  
فضي، وبمجرد خفوت آخر ضوء للنهار، أشرقت الشمس من  
جديد حمراء مثل الوهج واستيقظ العالم مرة أخرى.  
إنه يوم الأحد، عيد العنصرة، عيد الروح القدس.

## الفصل السادس

### صباح مهرجان الكيرميس

كان الضباب لا يزال عالقاً بين الشجيرات وفوق صفحة الماء  
حينما دق جرس الكنيسة.

حينما وجد باليتير الطقس جميلاً، ألقى قبعته في الهواء،  
صعد إلى برج الجرس في العلية والابتسامة تملو وجهه. فتح  
النوافذ ليدخل ضوء النهار الأبيض، في بادئ الأمر كان ساطعاً  
قليلاً لعينيه ثم نظر إلى تموج الحقول المنتعشة الممتدة. ثم بدأ  
ينقر المقابض الخشبية؛ رنت الأسلاك، وأصدر الخشب صريراً  
ولكن دقات الجرس علت بوضوح فوق كل هذا في ظل هذا الجو  
المتلألئ. اهتز قلبه مع بهجة الأجراس وبدأ يغني معها بقوة.

عُلق علم كيرميس جديد خارج نافذة العلية، وأتت الرياح  
الغربية الخفيفة لتبسط ألوانه. بمجرد انتهائه من تناول إفطاره  
المكون من لحم خنزير وبيض، مع شارلوت، خرج باليتير ليدخن  
سيجاراً. الأمطار ليلة أمس كانت بمثابة خلاص للأرض وجعلت  
كل شيء يزداد بريقاً وانتعاشاً وجمالاً.

كان باليتير منهكاً من التحضيرات للكيرميس؛ الآن أصبح  
سعيداً برائحة الحقول كالطفل الصغير. ضحك كثيراً، احتسى

قليلاً من البيرة وأخذ يعزف على الأواني.

عاد باليتير وربط الحصان في العربة المغطاة وانطلق إلى محطة القطار.

جميع المنازل في المدينة قد علقت الأعلام بالخارج وجرس كنيسة القديس جو ماروس يدق، والحمام يتبختر فوق الأسطح. بائعو البالونات قد انطلقوا في الشوارع بالفعل وكانت المطحنة تعمل بالقرب.

وبينما ذهب باليتير كانت شارلوت منشغلة بالطهو. "بغض النظر عما سيحدث، لكن عمل الرب يأتي أولاً" قالتها شارلوت أخيراً. وضعت الشمعدان أمام المنزل، وبجوار الباب الأمامي أعدت طاولة مغطاة بمفرش أبيض متين، وضعت فوقه صورة لمريم العذراء وصليبياً من خشب البقس وجميع المقدسات الموجودة بغرفتها.

"سوف يرغبون جميعاً في رؤية السيد". قالت شارلوت. ووضعت حول الطاولة مزهريات زجاجية وشمعدانات نحاسية قديمة مع شموع ملفوفة بأوراق.

عندما تأكدت أن كل شيء في مكانه عادت للطهو.

في ظل السكون غردت الطيور ورفرف العلم وطاقفت أشعة الشمس بين أوراق الشجر؛ سطعت فوق الأزهار والمشغولات

النحاسية، وجعلت العباءة الذهبية المطرزة للأُم المقدسة تلمع.  
أثناء صعود السيدات للعربة، رأى باليتير ماريكا واتسعت  
عيناه بالدهشة وقال وهو يتنهد:  
"يالها من فتاة جميلة!".

جاء الرجال خلفهم سيرًا على الأقدام.

كانت السيدات بداخل العربة يبدون وكأنهم باقة من الأزهار  
الملونة الزاهية. ارتدت السيدات جميعًا الحلي الذهبية الثقيلة  
والأكبر سنًا ارتدين عباءات الدانتيل الجميلة وقبعات من القش  
مربوطة تحت ذقونهم بأشرطة ذات ألوان زاهية.

ارتدين شالات من الحرير؛ البعض لونه أحمر قاتم، بنفسجي  
أو أبيض يعلوه زهور قرمزية. كانت إحادهن تحمل طفلًا رضيعًا.  
بعد ربع الساعة وصلوا جميعًا إلى رينارد وكانوا جميعًا  
يصادفون شارلوت في اشتياق ويثرثرون. وفجأة ظهرت ماريكا  
أمامها بفستان أزرق بنقط بيضاء نقية وعذبة كالزهرة البرية.

"أوه، كم أصبحت فتاة جميلة!" صاحت شارلوت: "عزيزتي  
ماريكا!" ثم قبلتها مرة أخرى وبللت دموعها وجه ماريكا.

وصل الرجال واستقبلهم باليتير إلى الداخل، وأخذوا جميعًا  
يشربون البيرة ويشعلون غليونهم وبدؤوا يتحدثون عن أراضيهم  
وماشيتهم وأولادهم وحالة الطقس. المواضيع الأخرى كانت  
بالنسبة لهم غريبة. هم لا يعرفون ولا يكثرثون بالأشياء الأخرى،

لكن باليتير كان يقول دائماً: "المزارع الفطن لما حوله هو الرجل المناسب!". بعد ذلك ذهبوا جميعاً إلى الحديقة لينتظروا الموكب. تحركوا في مجموعات، امتزجت المناديل الحريرية بشكل رائع مع اللون الأخضر الزاهي. توقف البعض ليشاهد النافورة وهي تلقي بالماء فوق ظهور الأسماك الذهبية الساكنة؛ والبعض يشاهد الديوك وكل أنواع الدواجن؛ وانبهر الجميع بذيل الطاووس الرائع. لمعت الأنابيب وتلألأت الصور الذهبية وكأنما استلقى العالم ليستمع بالشمس.

فجأة رنت أصوات موسيقى في الحديقة. إنه باليتير الذي أتى مع ماريكا يعزف على المزمارة. عندما وصلوا إلى النافورة مدت ماريكا راحة يدها لتلتقط بعض قطرات الماء، أخرج باليتير المزمارة من فمه وقال لها:  
"دعيني أراك جيداً!".

وضع يده على كتفها ونظر إليها من رأسها إلى قدميها. عيناها بنيتان واسعتان، حدود وردية، شفاتها في حمرة التفاح تحت أنفها الجميل، عندما تضحك تظهر غمازة في خدها الأيمن. تقوس الذقن بشكل جميل فوق عنقها الأبيض الرقيق، نهدها الصغير كان مشدوداً، خصرها كان جميلاً. شعرها بني داكن ويدها ناعمتان وصغيرتان. إنها جميلة! إنها تنفست أنفاس الطبيعة بكل كيانها ونمت نموّاً مبهجاً كما تنمو الأشياء الصغيرة. ها هي نقية كالماء ووجها كالكتاب المفتوح. سطعت الشمس فوق أذنيها وجعلتهما

وردتني اللون، وأضاءت هالة فوق شعرها، وقال باليتير بصوت  
متعجب:

"لا ينقصك سوى جناحين!".

ضحكت فلمعت أسنانها ونظرت للأسفل.

استمر باليتير في النظر إليها وامتلاً قلبه بالاشتياق، لكنها  
نظرت إلى الأعلى وقالت:

"اعزف لنا آخر".

وبداً في العزف مرة أخرى وسارا سوياً.

امتلات أرجاء المكان بأصوات أجراس عديدة، وصاح باليتير:  
"إنهم هنا! إنهم آتون! هيا بنا يا رفاق!".

وأسرع الجميع ليقفوا على الباب.

فيما التفوا جميعاً خلف الطاولة المزينة أشعل باليتير الشموع  
ونثر الزهور وقصاصات الورق فوق الطريق الرملي.

أتى صوت قرع الطبول الانتصاري الضخم من خلف جملونات  
المنازل، ثم تلاه صوت مسيرة الآلات النحاسية الانتصاري البطيء.

"ها هو!" صاح الأطفال وأهل المدينة الذين حضروا ليشاهدوا.  
تجمعوا فوق العشب بين جذوع الأشجار الضخمة حتى يتركوا  
الطريق الرملي خالياً. بدأت الفلاحات في تلاوة صلواتهن.

دخل الموكب من البوابة الضخمة إلى فناء الدير الظليل.

كان خادم الكنيسة الطويل، سامديكي، هو من يقود الموكب بعبادة الكاهن الأحمر والرداء الكهنوتي الأبيض. لمع الضوء فوق رأسه الأملس مع خصلة رفيعة ممشطة من الشعر الأسود. كان يحمل صليباً طويلاً رفيعاً وهو ينظر إلى الأرض.

كان يمشي على كلا جانبيه فتى من الجوقة يحمل شمعداناً فضياً ثقيلاً مع شمعة مضاءة. كان يتبعه أيتام مارول في ثلاثة صفوف؛ كانوا يرتدون ملابس سوداء أنيقة، وجوههم فوقها تبدو شاحبة وفوق رأسهم القبعة المستقيمة. كان من ضمنهم أطفال لا يتعدون خمسة أعوام والذين أبقوا أعينهم تنظر إلى الأرض بورع مثل الكبار. كان من ضمنهم العديد من الأطفال أبائهم سكيرون. ومن خلفهم سارت الراهبات نوات المظهر الحاد بعباءات سوداء واسعة وقبعات بيضاء بأطراف عريضة. كُنَّ جميعاً نحيفات ومستقيمات؛ فقط الأم الأرفع مقاماً هي التي كانت قصيرة وممتلئة.

ثم جاء مزارع قوي في رداء أحمر يحمل الراية الزرقاء المخملية لقديس بيجا. ثم أقبلت مجموعة مبهجة من الفتيات الصغيرات والأطفال بكنزاتهم ناصعة البياض، وهم يحملون أعلاماً صغيرة وقرور الوفرة الممتلئة بالزهور والذرة والأعشاب الحلوة.

أشرقت وجوههم بالحماسة وهم يسكرون بزهو وأرجلهم المستقيمة الصغيرة متماشية مع الموسيقى وتنوراتهم البيضاء تتموج أمامهم كأنها موج البحر.

الموسيقيون كانوا رجالاً كبار السن، ينفخون بكل قوتهم وملابسهم كان بها قليل من رائحة العفن.

جاء بعدهم أربعة رهبان مبتدئين بردائهم الأبيض، وأكمام طويلة جداً. يحملون رسمة للسيدة مريم العذراء باللون الأزرق؛ تركز على دعامات مغطاة بالجلد فوق أكتافهم، كانت هذه اللوحة قد تم جرفها إلى الشاطئ في زمن الإسبان والآن يتم التعامل معها بإجلال في المدينة أجمع ولسنوات عديدة. كانت هذه هي "عذراء العسل من هولندا، جرفتها الأمواج إلى مدينتنا".

ثم أتت كل سيدات الطائفة، الكبار والصغار، الجميع يردون على صوت قوي لراهبة ويرددون في نغمات منخفضة "صل من أجلنا". الجميع يحملون كتب صلواتهم في أيديهم والشريط الأزرق مع ميدالية حول أعناقهم.

كانت شارلوت من ضمنهم وكانت تأخذ مساحة ثلاثة أشخاص ولكنها لم ترفع عينيها لتنظر لباليتير وماريكا وأقاربها.

يتبعهم الأطفال الصغار وهم يحملون المصابيح والعصي.

اثنتا عشرة راهبة في رداهن الأبيض مثقلات بحمل المدخر الذي يحوي رفات القديس بيجا وبريقه الذهبي يلمع كما الشمس.

وتبعهم أيتام القديس بيجا في صفوف طويلة مكونة من خمسة أفراد؛ يرتدون الكتان الأبيض بالكامل من رأسهم حتى أخمص قدميهم. بدوا كالأشباح، ينشدون بأصواتهم الحادة الصغيرة

الجائعة الترنيمات باللاتينية.

ثم بدأت حركة لحير منقوش ورايات مخملية وقععة فضاء ونحاس ووميض مصابيح وشعلات مرفوعة عاليًا. بين هذه القبعات الحيرية البيضاء المهترئة وربطات العنق النظيفة سار المتسولون العجائز من الدير كل منهم يحمل شعله سميكة كالذراع، والمكفوفون الثلاثة كانوا بينهم أيضًا.

وسط بريق مبهر لضوء الشمس الذهبي محاط بالغناء وأصوات الأجراس ورائحة البخور الجميلة ظهر وعاء القربان المقدس. خرّ جميع الناظرين على ركبتيهم وأطبقوا أيديهم.

حمل أربعة رجال قماش المظلة فوق القسيس الذي ظهر بردائه الذهبي، ووعاء القربان المقدس البراق بالرقاقة المقدسة، محمولاً أمامه.

كان مغمض العينين، وقد برز رأسه الأصلع اللامع من القبعة العالية الصلبة، والتف شعره الأبيض الطويل حول أذنيه.

أتى بعدهم الزائرون من المدن الأخرى الذين انضموا للموكب. مضى الموكب في طريقه ببطء تحت أشجار الأسوار الغناء. سطعت الشمس فوق الموكب حتى ازدادت جميع الألوان بريقًا. رفرفت الأعلام وتمايلت الفساتين مع النسيم. عزفت الفرقة ودقت أجراس الكنائس للاحتفال العظيم.

تأثر باليتير جدًا بكل هذا العرض البسيط الذي يحمل في طياته

إيماناً عظيماً.

قال باليتير: "هيا بنا جميعاً لنتبعمهم".

انضم الفلاحون وماريكا إلى الموكب وكان باليتير الأخير وهو يحمل شمعة مضاءة في يده.

ظل وعاء القربان المقدس يلمع عن بعد من خلال الأشجار. طائراً عندليب أخذاً يناديان بعضهما ورائحة البخور ما زالت معلقة تحت الأعصان باللون الأزرق؛ ورائحة القداسة تحوم فوق الأرض.

لم يكن هناك أحد يمكن رؤيته في حقول "السبت".

انتهى الموكب. كان باليتير يسير بجوار السور بصحبة الضيوف وشارلوت مشغولة بالطهو بالداخل. وفجأة أتى صوت ضجيج وصياح أطفال من حديقة الدير، ومن خارج البوابة تدفق حشد من الفتيات اللاتي يرتدين الأبيض والفتيان الذين يرتدون القمصان البنفسجية، ينشدون ويرقصون وهم يحملون حفنة من الحلويات. اندفعوا جميعاً داخل الحقل يتحدثون ويضحكون بسعادة ويأكلون الحلوى. كانوا نحو أربعين، جميعهم يلعبون ويلمعون بألوانهم الزاهية. كانوا يقفزون فوق الجدول، يركضون بعضهم خلف بعض ويجمعون حفنة من الزهور.

خرجت ثلاث راهبات لهم لينهينهم عما يفعلون ويجعلهم يذهبون إلى منازلهم، لكن الأطفال بدؤوا يضحكون منهن وأخذوا

يدورون حولهن وهم يغنون ويرقصون.

انضمت لهم الراهبات وبدا أنهن يستمتعن بالمرح، انضم لهم جميع المترهبين الذين كانوا يسيرون بجوار السور وشاركوهم المرح. ظهر القسيس ولوح إليهم. وقف باليتير خلفه وأشار للراهبات أن يضموا القسيس. فهموا على الفور وضموه إلى حشد المرح سواء شاء أم أبى. أخذوا يدورون حوله وينشدن:

"هل القسيس في المنزل الليلة؟

أريد أن أصحح خطاياي

قبل فجر اليوم!".

والقسيس ينشد الرد بصوت مهتز، يخبط الساعة بسبابته:

"إنهم يقولون إنني فقير كالمبتلى؛

أنا لا أملك سنتاً ولا عتاداً ولا ثروة".

حينما شاهد باليتير هذا أمسك بيد ماريكا وجذبها للحشد وبدأ يدوران مع بقية الناس.

أخذوا ينشدون ويدورون، وتدب الأقدام وتدور التنانير والكاهن يمسك جانبه من الضحك.

بدأ باليتير ينشد أغنية أخرى ويرفع قدميه عاليًا في مستوى رأسه ولا يطلب منه أحد التوقف.

وقف أهل المدينة والراهبات الأكبر سنًا ورجال المنزل الخيري

أمام السور يضحكون، وشارلوت تنظر من نافذة المطبخ تضحك  
حتى انهمرت الدموع من عينيها.

## الفصل السابع

### الحفل

حينما ساروا جميعاً في الحديقة ينتظرون القسيس، قام باليتير وشارلوت وماريكا بإعداد طاولة طويلة فوق المنصة تحت ظل شجرة الكستناء؛ قاموا بفرد مفرش ذي ترابيع متداخلة باللون الأبيض والأزرق، ووضعوا أطباقاً منقوشاً عليها ورود زاهية، وكؤوس لامعة، وسكاكين وشوك وملاعق وصف من قنينات الخمر وضعت في منتصف المائدة (بدوا وكأنهم موكب من الراهبات)، ويرميلان خشبيان من البيرة وُضِعوا بعيداً في الظل.

وصل القسيس في غضون ربع الساعة؛ وأحضر معه غليوناً طويلاً صنع من الفخار. جلسوا جميعاً حول المائدة وألقى الظل ضوءاً أزرق فوق الفساتين زاهية الألوان.

تحدثوا قليلاً وهم ينتظرون العشاء، وبعضهم أمسك بالملاعق بفارغ صبر، كان تركيزهم يحوم حول المطبخ بينما أعينهم تشاهد الحقول والمراعي الخاوية تحت أشعة الشمس.

وأخيراً ظهرت شارلوت وهي تحمل سلطانية حساء ضخمة. قدمتها وهي حريصة على أن تضع العديد من كرات اللحم في كل طبقٍ بينما هي لا تكف عن الثرثرة. ثم رسم القسيس الصليب

وانحنى في صمت والآخرين فعلوا نفس الشيء. وقفت شارلوت مغمضة أعينها وتضم يديها إلى جسدها الممتلىء.

كانت لحظة سکون مبهرة، كسرهما صوت صياح قوي من ديكٍ صغير في المزرعة.

ثم بدأ صوت قعقة الملاعق وشرب الحساء. وما إن فرغوا من الحساء بدؤوا في إشعال الغليونات ووقف باليتير وقال: "أبناء وبنات عم شارلوت، يجب أن تأكلوا كثيراً جميعاً وحيث إننا قد أعدنا طعاماً كثيراً ويجب أن يتم أكله كله؛ لهذا فأنا أقترح أن أقل أربعة سيأكلون سوف يدخلون قرعة، والشخص الذي سوف يسحب الورقة الفارغة سوف يجلس فوق طبق كعكة الأرز الخاص به".

ضحك الجميع وشفقوا لهذا الاقتراح ثم بدأ العيد، إنه عيد للآلهة.

لا أحد يريد أن يكون هو من يضحك عليه جميع من في الحفلة، فبدأ الرجال والنساء يبذلون قصارى جهدهم ليأكلوا أكثر ما في استطاعتهم.

بالتأكيد كان هناك الكثير من سمك الترس والبطاطس ولحم الخنزير بالفاصوليا، ولحم مشوي بالهليون، دجاج وسلطة، خنزير كامل وبرتقالة في فمه، وأمطار من السجق بالكرنب.

أخذوا يأكلون ويأكلون وأعادوا ملء أطباقهم حتى تصيبوا عرقاً وتساقط العرق فوق الأكل وكانوا يشربون البيرة المثلجة والخمر حتى تساعدهم على ابتلاع الطعام بسرعة. عم الصخب أرجاء المكان وكان كلما توقف أحدهم عن الأكل يضحكون ويسخرون منه إنه هو من سيجلس فوق كعكة الأرز.

الشمس والظل رسما صورة للمشهد؛ وجوههم الحمراء وقمصان الرجال البيضاء المتينة ومناديل النساء الحريرية، وعند الأطراف طفا النهر المتلألئ وحقول السبت تمتد بسلام تحت أشعة الشمس. مرحهم انتقل بين أوراق الشجر ورائحة الطعام انطلقت فوق المراعي.

ضحك باليتير، الذي كان قد حجز مكاناً له بجوار ماريكا، وهو ينظر إليهم وهم يملؤون بطونهم.

تشارلز فيرلندن، تاجر زبدة ممتلى، يضع شرائح اللحم بالبازلاء والجزر جانباً ويقول: "سوف أقوم بتعويض ذلك لاحقاً". بدؤوا جميعاً يتهكمون عليه بأنه سوف يصبح هو الشخص الذي سيجلس فوق كعكة الأرز.

امتلات بطونهم بالطعام ولا يزال هناك أطباق جديدة تقدم على الطاولة. مزارع شاب فجأة بدا وجهه شاحباً وأسرع خلف شجرة يختنق وتقيأ ثم عاد وهو يقول: "لا شيء". أنهى كأس الخمر وأشعل سيجاراً. ماريكا ظلت تعطي لوبياس قطعاً كبيرة من اللحم، وقال القسيس: "الشراب جيد مثل الطعام"؛ شعر أنه

في حماية عباءته فأكمل شرب النبيذ الأحمر القديم.

كادت شارلوت أن تنتهي وتنهت في تخمة قائلة: "يبدو أنها سوف تكون أنا!" هنا صاح الجميع في مرح وبدؤوا يندسون: "لقد سقطت شارلوت في الماء من فوق الجسر!".

الآن جاء طبق شرائح اللحم مع القرنبيط. هم لا يزالون قادرين على النهل منها، وضحكوا وأخذوا يتهكمون بعضهم على بعض؛ أكملوا شربهم وبدؤوا يسكرون. ثم جاء الطبق الأخير حمام بالتوت البري المطبوخ بشراب السكر؛ أطعمت ستانس وليدها من الشراب بإصبعها حتى أصبح وجهه ملطخًا باللون القرمزي. خادم المزرعة أحضر طبقًا آخر منه، لكن الوليد دفعه بكفه ليسقط الطبق أرضًا مهشمًا وتناثر الحمام. أغلب الجمع سعدوا بهذا إذ لم يعد لديهم القدرة على الأكل أكثر من هذا. بدأ وليد ستانس في الصراخ باكيًا فقامت ستانس بإرضاعه فورًا وبدأ الوليد بوجهه الملطخ بالتوت بالرضاعة مباشرةً.

هنا كانوا جميعًا تحرروا من كل حدود اللياقة. باليتير لف نراعه حول ماريكا وقبلها بشفتيه الملطخة بالكرز تاركًا بقعة وردية اللون فوق خدها. كل الرجال بدؤوا في تقبيل النساء وسط ضحكات وتدافع وكل أنواع الضجيج ولكن صراخ الطفل علا فوق كل هذا.

نسيت ستانس نهدها خارج قميصها وجسدها السمين يهتز

من الضحك. تحطمت الكؤوس وتدحرجت الزجاجات من فوق الطاولة.

بدأت الشمس في الغروب.

في النهاية أتى اثنان من الخدم يحملان أطباق كعكة الأرز فوق صينية. بدؤوا يستعدون جميعاً لهذه اللحظة.

كان باليثير وامرأة نحيلة هما فقط من استطاعا أن يتناولوا طبقيهما. كانت القرعة سوف تقام بين كل من ماريكا والقسيس وتشارلز فيرلندن وشارلوت. وقف الجميع بحماس حول باليثير صامتين ثم هتفوا جميعاً في مرح حينما سحب تاجر الزبدة السمين الورقة الفارغة. حاول الرجل السمين أن يركض هارباً.

صاح باليثير: "أمسكوه! شارلوت أحضري الطبق!".

أمسك المزارعون بتشارلز سريعاً بينما هو يحاول أن يتلوى كالخنزير ليفلت منهم. تقدمت شارلوت بطبق ضخم ولكنها كانت تهتز رغماً عنها من كثرة الضحك حتى سقط الطبق وتهشم. فرح تشارلز فيرلندن ورقص وصفق من السعادة. ضحكوا جميعاً بشدة حتى إن باليثير سقط أرضاً يتلوى من كثرة الضحك.

بعد الإنهاك والتعب؛ جلسوا جميعاً ليرتاحوا فوق العشب بجوار النهر بينما يغرق الكون في أشعة الشمس الذهبية. جلسوا في ضوء القمر الساطع تحت أشجار التفاح والمشمش بعد أن انتهوا من الأكل والشرب، أخذوا يضحكون ويرقصون ويقفزون

مع الألعاب النارية التي تسقط تحت أرجلهم؛ ضجيج وصخب لا ينتهي. ثم استأذنا شارلوت في الرحيل وتصافحوا وغادروا وهم يستمتعون بالغناء. مشي باليتير وماريكا وهو ممسك بذراعها يعزف على الكونسرتينا بجوار السور ومنه إلى الشوارع وصولاً لمحطة القطار.

هناك ودع باليتير جميع النساء بقبلة ذات صوت عالٍ وحينما جاء دور ماريكا لم يعرف متى يتوقف ولم يكن يريد أن يتركها حتى وعده أنها سوف تعود مرة أخرى قريباً لبضعة أيام.

رحلوا جميعاً وهم يثرثرون شاعرين بدفئٍ بأفضل ثيابهم، ليعودوا لقريتهم البعيدة، ليستيقظوا في الصباح الباكر ليعادوا العمل من جديد بملابسهم القديمة في حرث التربة وتسميد الحقول.

يبدو وكأن باليتير قد افتقد شيئاً رحل معهم. عندما وصل إلى المنزل وجد شارلوت نائمة في المطبخ، رأسها فوق الطاولة ووجنتاها شديداً الحُمرة وكتاب صلواتها بجوارها. رائحة الألعاب النارية ما زالت تملأ الحديقة. ضوء القمر كان يسطع فوق قطع الأطباق والزجاج المكسورة في العشب، كما أضاء النافورة وانعكس على الفوضى فوق طاولة العشاء بالكؤوس وأطباق الفاكهة. بدا المنظر لباليتير وكأنه لوحة جلس ليتأملها.

ما زالت أصوات مهرجان الكيرميس تدق بعيداً في المدينة، ولكن بجوار باليتير كان طائر العنديل يغرد، كان يراه بوضوح

أمام دائرة القمر الفضية. كان العندليب يغرد ألحاناً قصيرة ثم يستمع لنفسه، جميع ألحانه كانت رائعة. جلس باليتير ساكناً لبعض الوقت وضوء القمر فوق يديه وسكون الليل يملأ قلبه.

ثم ذهب في جولة.

بدا نهر "نت" هادئاً إلا من تموج صغير يلمع بين اللحظة والأخرى تحت ضوء القمر. ملأ الضباب الحقول وثقل العشب بالندى.

كان السكون إلهياً.

سار باليتير وقطف زهرة مبتلة بالندى ووضعها بين أسنانه؛ وسار ظلّه بجواره.

وصل إلى الحديقة حيث كانت الفاكهة ساكنة في الضباب.

بدا الذرة باهتاً وأطرافه المضاء بضياء القمر تميل فوق الزهور البيضاء على جانبي النهر وأشجار البتولا تهتز وتحدث أوراقها الرقيقة حفيفاً.

رأى باليتير ذيل أرنب أبيض يهرب بعيداً داخل حقل الكرفس، ثم رأى محبين يجلسان بجوار كومة خشب يتغازلان في صمت.

تنحى باليتير جانباً حتى لا يزعجهما. بعد كل الضجيج والمرح الصاخب في يوم الكيرميس المقدس، أتى الليل بضوء القمر الرائع ليمس أعماق قلب باليتير وتذوب روحه في رقة غريبة.

فكر في ماريكا الجميلة، التي تمتلك جمال الزهرة البرية وتخيل

أنه يلف ذراعيه حولها ويقبلها! كان مشتاقاً لتكون معه، ليكونا معاً يداً بيد في هدوء كالأطفال.

كان هناك شيء بداخله لم يستطع أن يصفه، لكنه كان شعوراً جميلاً مثل الكرز البارد في الفم الدافئ. وحينما وصل إلى بحيرة صغيرة يسطع فوقها ضوء القمر، أخرج زمماره وبدأ يعزف أحياناً وكأنها صوت ضوء القمر الفضي.

## الفصل الثامن أفراح يوم صيفي

مر بعض الوقت بعد مهرجان الكيرمس. وقف باليتير بجوار طاحونة الهواء منذ شروق الشمس وبدأ أول طائر سنونو يحوم في الهواء، كان باليتير يحمل سوط العربة ويحركه في الهواء حتى يحدث صوتاً مدوياً.

وقف باليتير بجوار عمود الطاحونة الخشبي، والأشعة العريضة تدور في سرعة أمامه محدثةً صريراً عالياً وبين الأشعة كان يرى المنظر الجميل لنهر نت يسير وسط ضباب الصباح الكثيف.

الشمس التي لم تسطع بقوة بعد، كانت فوق الأسطح الرمادية حيث كانت أجراس القديس المبكر تدق من الكنائس والأديرة وصافرة القطارات الصاخبة اخترقت الهواء. لم تشرق الشمس بما يكفي لتضيء الأشجار، لكن النسيم كان يهب من خلف الأشجار محدثاً شقوقاً في الضباب وأوراق الأشجار تصدر حفيفاً.

أخذ باليتير يفكر في ماريكا؛ فهو لم يكف عن التفكير فيها منذ يوم مهرجان الكيرمس وقال:

"آه يا أختاه ويا عروسي، لقد جرحتني عيناك!..."

كان يفكر في وجهها الجميل وجسدها الشاب الرقيق، وصوت صفير السوط يزداد قوة. ارتفعت الشمس وتفرقت الغيوم الرقيقة وانتشر الأزرق الغامق فوق الأرض. انخفض الضباب ونوافذ المنازل لمعت كالشعلة الحمراء، كما لمعت ريشة الرياح فوق البيت الريفي وانتشر شعاع الشمس فوق الحقول. خطوط الحرث في الأرض امتلأت بالضوء كموج البحر، كما ظهر طنين وزن الحشرات. صاح باليتير: "الشمس تخبب الأرض!" وركض مسرعاً بين أشرعة الطاحونة الدائرة ونزل إلى المراعي النادية. أخذ يسير بهوادة بجوار الماء، ويضرب بسوطه ليوقظ العالم. اختفى الضباب والأراضي باتت واضحة فهي مليئة بحقول الذرة والخضار. فرح باليتير بالسماء اللازوردية اللون المزينة بعناقيد الغيوم التي تبدو مثل القرنبيط. بعيداً في إحدى المزارع نهق حمار كمضخة صدأة.

شهر مايو كان مليئاً بالأشياء الجميلة. عادت الحياة للكون. تم نسيان الشتاء والصيف القوي صار قريباً.

العمل العظيم قد انتهى. الفاكهة نضجت فوق الأشجار، والطيور انتهت من وضع بيضها وسلام رائع غمر الطبيعة وكأنها محارب يرتاح بعد معركة شرسة.

كانت هذه أفضل أيام للخراف وهي ترى الحملان تجري بجوارها، وأيضاً للجناب والسماك الصغير.

الطبيعة لا تبخل على أحد بهباتها، الخيرات تذهب للجميع

دون طلب. إنها في بساطة الطفلة وحنية الأم. ما تمنحه الطبيعة هو بمثابة خير دائم للروح. إنه خير الطبيعة القديمة التي تجدد نفسها، لا يقدره الذين يبحثون في أماكن أخرى.

لهذا السبب كان الفلاسفة دائماً ينصحون: " اذهبوا إلى الطبيعة! اتبع الطبيعة!" بينما هم أنفسهم يتعدون عن الشمس ويذبلون بينما هم منغلِقون على أنفسهم بين كتبهم.

"الفلسفة ليست موجودة في الكتب، لكنها في الحياة". قالها باليتير وهو يقف في حقول البصل ويشاهد أشعة الشمس وهي تتلألأ. كانت الشمس قوية حتى إن أشعتها كانت كالسهام المنطلقة ضمن أوراق الشجر الكثيفة وجعلت الأوراق تبدو وكأنها شفافة.

ثم رأى باليتير وميضاً أحمر بين فروع شجر الدردار الفضية، شيء أحمر كاحمرار الدم.

قفز فوق الجدول وزحف فوق العشب ووجد هناك حقلاً كبيراً من نبات الخشاش، يبدو وكأنه امتص أشعة الشمس في لونه الأحمر الناري حتى بدوا كأنهم بحيرة دماء.

ملأت الدموع عيني باليتير وقال في تعجب وتساؤل:

"أيها القديس جون! لماذا ليست هذه هي نهاية العالم الخاصة بك؟".

لقد تأثر بالمشهد بقوة حتى إنه أصبح بداخله فجأة؛ صار حتى

صدره في الاحمرار الهائل.

سطعت الشمس وازدهرت من خلال تشقق البراعم وكأنها كأس حمراء وعكست بريقًا أحمر في الهواء، جعل وجهه باليتير وشعره ويديه قرمزيّ اللون.

أراد أن يمس الأحمر المتكس، فدفع يديه بين الزهور وأمسك حفنة كبيرة ولوح بها في الهواء صائحًا: "الألوان! الألوان هي كل شيء!".

سار باليتير ودخل غابة الدير، الغابة التي تبدو كالبحر الأخضر بأصوات تغريدات الطيور التي لا تنتهي والرياح وكل أنواع الحيوانات. حقيقةً إن الغابة كالبحر!

دفع الشجيرات الكثيفة بقوة وخرج فجأة من أشعة الشمس ودخل إلى أعماق من الخضرة الرائعة. نمت الأشواك بداخل شجيرات البندق والصفصاف والدردار والبلوط، كما ينمو الشعر فوق ظهر الكلاب. اللبلاب في كل مكان سميك كالجدار تشبث حول جذوع شجرة الطلح، يزحف مثل بعض الكائنات الزاحفة الأخرى من شجرة إلى أخرى. كسا الأرض وبدا أنه لا يمكن اختراقها، لكن باليتير زحف خلال الشقوق وقفز فوق الفروع وتسلق شجرة ساقطة وترك نفسه ليسقط وراءها وزحف تحت ستار من اللبلاب ومن ثم سلك طريقًا إلى داخل الغابة التي تعج بالحياة الغنية في الصيف.

مئات آلاف من الطيور تغرد بشكل موسيقي: والصوت ينهمر

كالمطر من الأغصان والنسيم، وارتفع من الأرض همهمة وطنين  
الذباب والحشرات.

رقدت الزواحف الصغيرة في كل بقعة تحت ضوء الشمس كأنها  
زينة برونزية؛ تشبثت الحلزونات الصغيرة رملية اللون بالأغصان  
وسيقان الزهور. اليرقات والرخويات والعناكب والحريشة والعث  
كانوا مشغولين في كل مكان. كانت الضفادع وأكل البق يخرجون  
من الأرض ويختلطون برائحتها. البحيرات الصغيرة كانت تهتز  
وتمتلئ بالأسماك والشرافيف والديدان.

الغابات هي قلب الكون النابض! كان كل شيء غارقاً في رائحة  
الطحالب والأخشاب والفراولة البرية والتوت القرمزي بطعمه  
النقي! تلتخت شفتا باليتير به. ظل يسير يدفع كل هذا حتى  
وصل إلى الغابة الحقيقية.

هنا أحنى رأسه ووقف ثابتاً فقد شعر أنه ضئيل جداً جداً. هنا  
لا توجد شجيرات، ولكن طبقة سميكة من الأوراق بكل الأنحاء  
تعلو سيقان أشجار الزان الرمادية الناعمة التي تغطي السماء  
الزرقاء بمظلة كثيفة من الأوراق. اصطفت الأشجار بعضها خلف  
بعض بشكل لانهائي، بمسافات متقاربة مكونة ستاراً من الخشب  
الرمادي لا يتسلل من خلاله أي رؤية للسماء أو الأرض.

الضوء كان ضعيفاً وكأن المساء يقترب وهادئ وكأنه غاص  
تحت الماء.

من أجل أن يسمع شيئاً وضع كفيه أمام فمه وصاح "باليتير!"

تردد اسمه ثلاث مرات ثم سكن في ممرات الغابة الرمادية.  
أخذ يضحك عاليًا وطويلاً حتى بدأ صدى الصوت يتداخل وبات  
هناك ضحك في جميع الأنحاء. ضحكة تلو الأخرى تخرج من فم  
باليستير والصدى يتردد واحد تلو الآخر حتى عم الصخب أرجاء  
الغابة.

"الآن تحدثت الأشجار". قالها باليستير ثم سار وهو يغني.

كانت الغابة بمثابة غرفة وثيرة. توقف باليستير ليشاهد سنجابًا  
يتسلق شجرة، يوجد بالقرب من جذورها ضفادع كبيرة مرقطة  
باللون الأحمر.

كانت الأرانب من حوله تقفز وتدخل جحورها خوفًا من صوت  
باليستير. ثم رأى فخًا لثعلب؛ فك وثاقه ثم دفنه في الأرض وهو  
يتمتم:

"أ يجب أن يقتل الثعلب لأنه يأكل العشب؟".

روى ظمأه من شلال صغير ليس أعرض من راحة يده.

عبأت رائحة الغابة الأجواء حول باليستير ومعطفه ويديه، كان  
معطفه ويده قد اخضرا من الطحالب، ضحكاته ما زالت تتردد  
فوق الأراضي وسكون الغابة بقي في أعماق قلبه. لقد ألفت الغابة  
سحرها عليه.

يا للأسف هو لم يحضر بوق الصيد الخاص به حتى يستطيع

أن يخرج ما بأعماق روحه!

"سأفعل هذا لاحقاً" قالها وهو يدخل الحقول الرطبة، مشرقة بالفعل بضوء الشمس وتملأها الأبقار البيضاء والسوداء. وسار خلال حقول الشعير وجوعه المتقد جعله ينظر بشوق إلى ضروعهم الوردية الثقيلة بالحليب الدافئ الحلو.

ها قد سال لعبابه ما عليه سوى أن يضغط عليهم وسوف يكون سعيداً. جعله الاشتياق يسقط سوطه؛ ثنى قطعة ورق وجعل منها كيساً ورقياً وزحف تحت إحدى البقرات وضغط على ضرعها وتدفق الحليب الأبيض محدثاً رغوة في الورقة. وعندما امتلأت شربها؛ كان مذاقها رائعاً حتى إنه شرب ثلاثة أكياس؛ أحدث الحليب صوتاً متخبطاً بجدار معدته الخاوية وكان يقطر من ذقنه على رقبته. قال باليتير للبقرة:

"شكراً لك أيتها الألبان المتحركة!".

ثم ذهب سعيداً محدثاً أصواتاً عالية بسوطه فوق الحقول ويتفكر في نفسه:

"لا أريد شيئاً هنا سوى ماريكا!".

أن تكون هي بصحبته في ظل معبد الطبيعة العظيم هذا، أن يضمها إليه ويحملها بين ذراعيه فوق النهر، أن يتدحرجا فوق العشب الناعم سوياً، أن يقبلا بعضهما بعضاً، أن يشعر بجسدها الناعم تحت أصابعه، يا لها من فرحة! وبشكل عفوي سرح خياله

وكأنه يخترق ملابسها ليرى جسدها الممتلئ المنسوب عاريًا  
دون الفستان الأبيض المرقط.

أغمض عينيه في سعادة وهو يفكر، وكتب أغنية لها:

"ماريكا بيرويكا!"

طائر في الشجيرات!

المزقزق الصغير

أصبح ممتلئًا بالنضارة!

أوه عزيزتي! أو حبيبتي! اقترب موعد الزفاف!".

في ظل نشوته، ضرب باليتير بسوطه تل آكلي الحشرات والتف  
حول الأشجار الصغيرة تاركًا أثرًا ورفع قدميه فوق الأرض؛ ثم  
بدأ يركض عبر العشب والأزهار المتمايلة حتى وصل إلى ضفاف  
نهر "نت". كان النهر عاليًا والغيوم تظهر فوقه واضحة وكأنها  
في السماء.

عندما وصل باليتير إلى الماء الناعم العريض، انعكست الأزهار  
الصفراء والبنفسجية بوضوح على صفحة الماء، عاد لهدوئه من  
جديد، هادئ مثلما تسكن الروح بعد صلاة مخلص.

أغراه الماء بشدة، في لحظة كان عاريًا وقفز في النهر في  
خضم من القطرات المتناثرة المتلائية وأخذ يسبح للأزهار.  
كانت رائحتها تشبه كعكة الأرز الدافئة، أخذ يتمتع بها ويقذف  
قطرات من الماء في الهواء لتعود لتتدفق فوق جسده اللامع. بعد

أن استلقى في الماء ومرت به ثلاثة قوارب ذات أشرعة منتفخة،  
خرج من المياه.

الشمس الرقيقة جففته؛ قطف زهرة بيضاء ووضعها بين  
أسنانه ومشى عارياً ويداها خلفه يطارد ضفدعاً يقفز أمامه بعيداً  
خائفاً.

سكون الظهر الساخن أثقل على الأشجار، واستلقى باليتير  
لينام تحت شجيرة العنب. الحديقة كانت زاهية وهادئة. الدجاج  
يجلس في الرمال والإوزتين وقفوا جنباً إلى جنب يحدقون من  
السياج.

كان هناك طنين دائم من خلايا النحل وجاء صوت شارلوت  
هادئاً من المطبخ وهي تنشد الترانيم. بدت الزهور غارقة في  
رائحتها وماء النهر يلعب كأنه ظهر سمكة. اهتزت الحقول بتغريد  
الطيور وكانت طواحين الهواء ساكنة.

استيقظ باليتير على رائحة القهوة والرنجة المقلية، وتمتم وهو  
يتساءب:

"شكراً للرب على استيقاظي على هذا الطعام الجميل الذي  
ينتظرني".

كانت الرنجة فضية بيضاء وممتلئة: طعمها جيد كطعم اللحم  
وأخذ باليتير يغني وهو يتناول الرنجة:

"كل الأسماك تستطيع السباحة

كل الأسماك تستطيع السباحة

عدا الأسماك المقلية".

"باليتير" صاحت شارلوت متذمرة "لا يوجد زيد..".

"اذهبي واجلبي بعضاً منه، أيتها الساذجة".

ردت بغضب: "أعتقد ذلك، أتترك شخصاً سميناً مثلي يذهب بسطل ثقيل في جو حار كهذا؟ ألا يجب أن تخجل من نفسك؟".

"هل أذهب معك أنا أيضاً؟" سألتها باليتير وهو يغمز لها.

"لماذا لا تذهب وحدك؟".

"لست أنا يا فتاة".

"سوف أتذكر هذا! انتظر قليلاً حتى تحتاج إليّ" ردت شارلوت وهي تضع عصا داخل وعاء الحليب النحاسي، وذهبا سويّاً خارج البوابة الخلفية للحديقة إلى الحقول المشمسة.

بدت الطرق بيضاء تحت أشعة الشمس، والهواء مليئاً بأصوات طنين الحشرات مثل صوت أجراس بعيدة.

سلكا أقصر الطرق وكلما مرّا بصليب رسمت شارلوت الصليب أمامها، وكلما مرّا بكرز منخفض بما يكفي يقطف باليتير بعضاً منه ويتشاركه مع شارلوت.

شعرا بحرارة الشمس فوق جسديهما مروراً بملابسهما، كان

الكرز يרטب عليهما. وصلا سريعاً إلى الجدول الذي كان يجب أن يعبراه، لكن شارلوت كانت خائفة وسألت:

"هلا حملتني لنعبره يا باليتير".

"إذا حملتك سوف نسقط كلانا لا محالة. اخلي حذاءك وجواربك وسيري في الماء وأنا سأمسك يدك".

"ماذا! أنا أسير في الماء؟ سوف تصل المياه إلى ركبتي بكل تأكيد".

"يا إلهي، وماذا سوف يحدث إذا رأيت ركبتيك يا فتاة؟".

"أبداً لست وأنا على قيد الحياة". وبدأت شارلوت تبحث عن مكان أضيّق في الجدول لتعبر منه".

"هيا لا تجادلي".

"فلتستدِرِ إذاً ولا تنظر". قالتها شارلوت بصيغة الأمر.

استدار باليتير. سمع شارلوت وهي تخلع جواربها وترفع تنورتها وتخطو في الماء بحرص، وانتظر حتى شعر أنها ربما وصلت إلى المنتصف، استدار فجأة ورأى فخذيهما الضخمين الممتلئين وانفجر ضاحكاً.

تفاجأت شارلوت حتى إنها قد تجمدت في مكانها وأفلتت تنورتها بسرعة حتى غرقت في الماء وركضت عائدة خارج المياه كأنها لدغت. ثم بدأت توبخ باليتير واصفة إياه بالقرد ورأس اللفت والشيطان المخادع واستمرت حتى انقطعت أنفاسها. وقف

باليستير على الضفة الأخرى يضحك حتى احمر وجهه.  
صاحت شارلوت: "لا لا إني أفضل العودة مباشرة على أن أسير  
من هنا". ولمعت الدموع في عينيها.  
"لا تبكي الآن شارلوت. تعالي سوف أحملك".  
قفز عبر الجدول وحملها بصعوبة فوق الماء. ترنح من ثقلها  
وهي تمسك به وكل يد تحمل جوربًا، كان رأسها بجوار رأسه،  
وهي تردد صلوات؛ كانت خائفة جدًا.  
قال باليستير وهو ينزلها: "ها أنت قد وصلت، يا كتلة اللحم التي  
تصلي".

شارلوت كانت سيئة المزاج الآن فلم ترد.  
نظر باليستير إلى الحقول الخصبة ودخن غليونًا خشبيًا كبيرًا.  
الهواء كان ساكنًا كالبركة، فارتفع الدخان عاليًا مباشرة. كان  
هناك صقر يحوم عاليًا في السماء حيث طفت ثلاث غيمات بيضاء.  
رأى باليستير أن شارلوت عابسة، وقال لها:  
"يجب أن تكتبي لماريكا الليلة وتخبريها أن تأتي".  
صاحت شارلوت بسعادة: "لم لا! سيكون هذا شيئًا جميلًا".  
ولم تنطق بأي كلمة ثرثرة أخرى.  
بقيا في المزرعة ليحتسبا شرابًا وعادا من طريق آخر ليتجنبًا  
الجدول.

تحول شعاع الشمس الأبيض إلى ذهبي والظلال باتت أطول. بدت الغيوم البيضاء في السماء كلها وكأنها قطيع غنم. ضوء الغروب انعكس عليهما وبدوا ورديي اللون وكأنهما رضيعان. خرجا من الغابة وصولاً إلى حقول أرز ممتدة وبدت الحقول وكأنها مشتعلة تحت أشعة الشمس الحمراء!

صاح باليتير: "أمسكي لسانك عن ماريكا، الحماض يشتعل! الحماض يشتعل!".

كانت كل ورقة من الحماض قد غرقت في ضوء الشمس، كل ورقة كانت تضوي، بدا وكأن العالم كله يضوي. ارتعش باليتير من شدة إعجابه بالمنظر.

"أيها الرسامون سواء طال شعركم أو قصر، تعالوا وانظروا إلى هذا المنظر والقوا بكل لوحاتكم البيضاء والصفراء في النار!".

بدا وكأن الماء يشتعل؛ كان شعاعاً داخل شعاع، روحاً داخل روح، كان شيئاً أجمل من أي شيء دنيوي.

نادته شارلوت: "هيا، ماذا يوجد هناك لتنظر إليه في الحماض الأحمر؟!".

"انتظري حتى يختفي". تتمم باليتير وهو لا يحرك ساكناً.

"إذاً سوف أذهب بمفردي". قالتها شارلوت وحملت السطل الثقيل فوق ذراعيها وانحنت من ثقل اللبن وذهبت في الطريق

المتعرج.

تألقت الأرض ببريق الشمس وبينما يلمع شعاع الشمس الأحمر  
من الغرب، امتلأ الشرق بالغسق الأزرق حيث لمعت إحدى النجوم  
البيضاء.

الآن فقط تحرك باليتير.

اقترب المساء، وقفت الأشجار مظلمة وساكنة بينما تظهر في  
السماء نجمة تلو الأخرى في العتمة الزرقاء.

رق قلب باليتير لسكون الأرض حتى أصبح ساكنًا ككل شيء  
حوله.

مر به اثنان من المزارعين والمناجل معلقة فوق أكتافهم،  
صامتين، غليوناتهم مشتعلة وضوؤها الخافت ينعكس على شفرة  
المناجل.

كان يسمع أصوات جلجلة عربة تأتي بعيدًا من خلفه. ثم رأى  
طائر اللقلق -إنها وليفة بيتير- تقف بلا حراك تتبع السمك في  
الجدول وقدمها الطويلتان في الماء.

طافت رائحة القش فوق العشب المتموج. صوت العربة أصبح  
أقرب وفي الشعاع الذي لا يزال يضيء الطريق رأى باليتير أرجل  
الحصان والعجلات المزعجة العالية وفوق كومة القش العالية  
كانت تجلس خادمة مزرعة في الجوار.

"مرحبًا، أيمكن أن تقليني؟". قالها باليتير صائحًا.

" بالطبع! هيا اصعد! ". قالتها الفتاة بسرور.

في خطوتين كان باليتير يجلس بجوارها فوق كومة القش الناعمة. فرد ذراعه حول خصرها وقارب اهتزاز العربية بين جسديهما؛ جذبها إليه وقبلها فوق خديها، وأخذ يهمس لها بأشياء وأجابت هي بضحكة مكتومة.

سار الحصان بوتيرة بطيئة وثابتة، صرير العربية صار أعلى بحلول الليل والنجوم باتت أوضح ولانهائية في الأزرق الداكن. طارت بومة بنعومة فوق العربية مباشرة..... استلقيا جنباً إلى جنب في صمت، ينظران إلى السماء العظيمة والنجوم تتحرك معهما. ظلا يهتزان حتى سهل الحصان فجأة. انتفضت الخادمة عاليًا وقالت في عجلة:

" هيا ترحل بسرعة! ها قد وصلنا! أسرع! ".

" قبلة أخرى فقط! إلى اللقاء مرة أخرى! ". وقفز من العربية. هي لم ترد ولكنها فقط أمرت الحصان أن يتحرك وهزت اللجام.

شاهد باليتير العربية وهي تبتعد حتى اختفت في الظلام، وتمتم لنفسه:

" الحب الذي يستولي عليك هو الأفضل! ".

ثم عاد إلى المنزل فوق الحقول الخصبة النائمة.

## الفصل التاسع

### الطائرة

حضرت ماريكا! كانت هناك لثلاثة أيام وباليتير كان سعيداً  
كسعادة طائر الشحرور في الربيع.

حلاوة الروح ذاتها التي جاءت إليه من الحقول الواسعة، تدفقت  
إليه من ماريكا.

كانت كأنها هي الطبيعة نفسها؛ معها يكون هو نفسه، على  
طبيعته مثلما يكون مع زهور الديزي أو الأسلية.

كانت صافية وبسيطة كالرياح فوق نهر "نت". كانت طيبة مثل  
الأرض التي تجلب زهور السوسن والبرسيم. فهو يشرق بمجرد  
النظر إليها فوجودها يشرح قلبه. كل جزء منها ينبض بالحيوية؛  
إذا ضحك فمها فهذا لأن قلبها يكون سعيداً؛ ينبض جسدها  
بالصحة والنبض الدافئ مثلما تنبض الأرض في شهر إبريل وهي  
ملينة بعصارة النباتات، الذين يحبون الطبيعة لا يملكون سوى  
أن يكونوا سعداء بمجرد رؤيتها، وهذا ما فعله باليتير. كان سعيداً  
جداً بوجودها! كان يمكن أن يأخذها لأعلى ويأكلها أو يؤذيها دون  
أن يعرف السبب.

قال باليتير: "إذا استطاعت الأرض أن تصنع إنساناً سيكون إنساناً مثل مارिका".

حينما كانت متواجدة في رينارد كان العالم يمرح في مهرجان الصيف.

ثقلت الحرارة على الأرض والرطوبة تتبخر بين الأشجار؛ ولكن من آن لآخر تسقط أمطار خفيفة لتحافظ على الرطوبة ويبقى الهواء نقياً منعشاً.

حافظ هذا على أن تبقى خيرات الأرض المختبئة غنية، حتى تستطيع الأرض أن تخرج ما في قلبها وتفيض علينا بخيراتها.

الكرز الأحمر جعل الحقائق تبدو وكأنها مرقطة بالأحمر وصارت الحقول ذهبية بحبوب الذرة.

وقف العشب قوياً والفراشات تحوم حول الزهور في الهواء، مثل أوراق الخريف حول البراعم على طول الطريق.

لم تكن أسماك الكراكي في نهر نت والثعابين في القنوات كثيرة مثل الآن من قبل؛ لم يتبقَّ شيء سوى أن يتدفق في الماء لبن وعسل!

كان جيداً لباليتير أيضاً. بالتأكيد أي مكان بالأرض يمكن أن يكون الأرض الموعودة فقط إذا وُجدَ رجل الوعد هناك. إن وجد هناك جامع مال أو تاجر سيكون اللبن خفيفاً وأزرق وسيكون العسل مليئاً بالطحين. ولكن هذا كان وكان الصيف مضاعف،

واحد في الألف!

وفي أحد هذه الأيام والفجر يكاد يبيزغ، استيقظ باليتير وأغنية تتردد في رأسه ويتمتم بها فوق شفتيه ولكنه توقف، حيث - وهو لا يزال فوق سريره- رأى خارجاً آلة الحصاد الأولى في الحقول. قفز قلب باليتير، وخرج مسرعاً وهو يرتدي قميصاً إلى غرفة ماريكا وصاح من فتحة الباب:

"آلة الحصاد في حقول القش! تعالي لتلقي نظرة! أسرع!"

ثم عاد إلى غرفته وارتدى بنطاله وبدأ يندق باب ماريكا ويناديها مرة أخرى.

بعد الكثير من الضجيج فتحت ماريكا الباب حافية القدمين ترتدي فستاناً قطنياً أحمر اللون ومندلياً حول رقبتها.

"كم أنت جميلة!". خرجت الجملة من شفتيه وشعر كأن هناك خيوطاً تمتد من طرف كل إصبع وتجذبه نحو ماريكا. صاح باليتير: "تعالي، وإلا سوف أكون انتهيت!". وأمسك بيدها وأسرعاً إلى الأسفل وارتديا القباقيب البنية وأسرعاً إلى الخارج.

المهرة كانت تتحرك وتدب بقدميها في الأرض، وفجأة خطرت الفكرة لباليتير أن يمتطي المهرة.

فتحا أبواب الإسطبل وأخرجوا بيارد، المهرة البيضاء. كانت مهرة ضخمة والعروق في جسدها في سُمك إصبع الإنسان. هزت بيارد رأسها الضخم وشعرها الكثيف فوق رقبتها تموج كالأعلام.

رعشة السعادة سارت بجسدها، وقدمها الثقيلة دبّت فوق الأرض  
وذيلها الطويل تمايل يميناً وشمالاً. صهيلها دوى في الحقول  
كأنه ضحكة جميلة.

وضع باليتير مارिका فوق ظهر الحصان ثم صعد هو خلفها.  
اختفى الاثنان خلف رقبة الحصان الضخمة.

كان عليهما أن يقاربا رأسيهما ليستطيعا رؤية أي شيء من  
المناظر الطبيعية.

سهلت بيارد بقوة من صدرها الضخم، ووصلت إلى ممر النهر؛  
قدمها الضخم يدق الرمال الحمراء كأنه مطرقة مسطحة ثقيلة.  
استمتعت المهرة بكل شيء؛ استنشاق هواء الصباح النقي، اللعب  
كمهر صغير، تميل برأسها، ترفع قدميها الخلفيتين وتسهل  
باستمرار.

كان الهواء نقياً ومشرقاً، ولا يزال ندى الليل عالقا بجذور الأعشاب،  
وبعض الضباب الأبيض معلق فوق النهر لكن السماء كانت  
صافية. ثلاثة طيور قنبرة ترفرف فوق السماء الخضراء الشاحبة  
والنجم الأخير يذوب في ضوء الشمس المشرقة.

ذهبا إلى المرعى حيث كانت مجموعة من الحصادات محجوزة  
بالفعل. أحضر باليتير الحصان، ووقف لينظر بسعادة إلى العمل  
الوفير في الصيف.

صفوف عريضة من العشب المقصوص باتت واضحة هنا وهناك. رائحة عصاريتها انبعثت من الممرات الخضراء الشاحبة. عم حفيف المنجل حولهما وأصوات شحذ وكشط الشفرات، وأصوات النساء والرجال -ترددت أصوات ضعيفة وطفيفة تحت مظلة يوم الافتتاح- أصبحت رنانة في ممرات المروج الطويلة. وفجأة سطعت الشمس وأضاءت الكون في كل الاتجاهات وانعكس بريقها على المناجل.

قال باليتير: "لقد باركت الشمس المناجل الآن".

ثم ابتعدوا على طول ممر الحقل والأشجار اللامعة في المروج المفتوحة.

بدأت بيارد تركض أسرع وأقدامها تنثر قطعاً من التربة فوق رأسيهما. ضحكا بمرح وهما يتحركان إلى الأعلى والأسفل مع خطواتها، الدفء من جسده أدفأ جسديهما ونسيم الصباح النقي برد خديهما.

تجولا بجانب حقول الذرة، والخشاش الأحمر وورد الذرة الأزرق يحيط بهما. كانت هبة ريح تزعج الأذن من آن لآخر ويأتي بريق ذهبي شاحب يتدفق عبر حقول الذرة الذهبية. ركض أرنب عبر مسارهما، ووجدا في الأخدود ديكاً أخضر يصيح بين مجموعة من الدجاج الأبيض. طار الحمام في دوائر فوق المزرعة وطفأ عليهما اللون الأسود ثم الأبيض وفي بعض اللحظات بدت أجنحتهم شفافة في ضوء الشمس. كان هناك طائر الوقواق هذا

الصباح أيضاً.

اهتزت ماريكا من الضحك، وانحل طرف منديلها الأبيض ورفرف مع النسيم. وهي تجلس على جانب المهرة ومع خبو الخطوات أخذت تنورتها ترتفع شيئاً فشيئاً حتى استطاع باليتير أن يرى ساقيهما العاريتين وفوق إحدى الركبتين رأى التطريز لسروالها التحتي. عند رؤيته لهذا المنظر نسي باليتير كل شيء يتعلق بالحقول والسماء الزرقاء.

خفق قلبه بسرعه وفقد القدرة على التحدث. أصبح سعيداً بشكل جامح. انحنى وقطف حفنة من الذرة وأعشابها وأخذ يلوح بها فوق رأسه.

دفع المهرة وأخذت بيارد تمدها خطواتها وتسرع في الركض. باتت المهرة مسرعة الآن فوق الأرض الناعمة المتعرجة مثل نهر صغير يقع في أردنين. كانت المهرة تميل على أحد الجوانب عندما تصل إلى المنحنيات ولوت ماريكا شعر المهرة بيديها وضحكت بمرح.

وهكذا وصلا إلى الحقول يغطيها العشب والذرة، ووقفت بيارد لتشرب من جدول ماء.

التفتت ماريكا لباليتير وهي تلهث وبالكاد تستطيع أن تتحدث وتمسح وجهها بالمنديل. نظرت إليه وعيناها تملؤها البهجة. ربت باليتير على يدها ليجعلها تنظر إلى الأبراج الأربعة - دافل، مايلسترات، هنت، ميشيلين- التي يمكن أن تراها من هذه البقعة

وتأتي الرينارد بعيداً خلف الأشجار عند منحني النهر الأخير. رؤية مدينة "نت" من هنا تجعلها تبدو غنية وفريدة وكأنها قلب الأرض.

حيث حقول الذرة والأرض الخضراء والبنية المحروثة مع المزارع والأشجار الطويلة المقسمة بشكل بقع عشوائية تنحدر للأسفل للمراعي المنخفضة بجانب النهر. وبالطرف الآخر توجد أرض خصبة هي الأخرى تخفيها أشعة الشمس من المنظر، ملأت أشعة الشمس الوادي مثل الرياح، حتى إن باليتير وماريكا ينظران إليها بالكاد بإحدى عينيهما والأخرى مغلقة.

قال باليتير وهو يلوح بيده الخاوية فوق الوادي:

"هذه هي غرفتي الرئيسية، غرفة الاستقبال. السماء هي السقف، والشمس هي الساعة، والعشب هو السجادة، والمطر هو الستائر، لكن لا يوجد من يشاركني سريري".

احمرت ماريكا خجلاً وضحكت؛ ونظرت إلى عيني باليتير ثم نظرت للأسفل مرة أخرى. رأى باليتير هذا وقد أخبره هذا التصرف بأكثر مما يريد، وكأن الرياح هبت برائحة التفاح الشهي. ثم ساد الصمت بينهما، بينما أعظم معجزة على الإطلاق كانت تحدث بداخل كل منهما.

وفجأة علا صوت ضجيج. نظر كليهما إلى الأعلى ويا للمفاجأة! كانت هناك طائرة تحوم عاليًا في السماء الزرقاء الساطعة؛ أصدر

محرك الطائرة أصواتاً عالية وكأنها باخرة في المياه.  
رفعت ماريكا ذراعيها وهي تصيح في سعادة وانبهار باليتير،  
وبدا شاحباً ودمعت عيناه من الاندهاش.

كانت جميلة ورشيقة كالبطلات تتحرك في الهواء دون أي  
تخبط أو اهتزاز، تباين بياض الذيل والأجنحة مع صفاء الخلفية  
الزرقاء.

عمت قعقعة الحديد الهواء وترك جميع من في الوادي أعمالهم  
وخرجوا من منازلهم ليشاهدوا الطائرة.

"إنها تفوق الملائكة". قالها باليتير بمهابة.

صاحت ماريكا: "لا أستطيع أن أصدق عيني". شاهدت الطائرة  
وهي تدور فوق رؤسهما وعنقاهما تدوران معها.  
بدت وكأن شيئاً مقدساً هبط إلى الأرض.

طار الحمام مروحاً بعيداً وكانت هناك أصوات تنادي من جميع  
الجهات.

وفجأة بدا وكأن الطائرة ثبتت مثل الصقر حين يحوم حول  
فريسته؛ قامت بحركة إلى الأسفل ثم دارت نصف دائرة فوق  
الأراضي ثم انجرفت إلى الأسفل مثل الغراب ووصلت للطرف  
الآخر من نهر "نت". ارتعدت الأبقار التي كانت ترعى في هدوء  
واندفعت في عشوائية.

صاح باليتير: "هيا بنا!".

ردت ماريكا في خوف: "ولكن الماء!".

"الماء! الماء! فوق الماء! هيا!". ووكز بيارد بكعبيه وهز اللجام، وانطلقت المهرة سريعاً حتى كادت حوافرها ألا تلمس الأرض، وشعرها وذيلها يمتدان خلفها. شقت الهواء بسرعتها وتطايرت كتل الطين فوق الأشجار.

مال باليتير وماريكا إلى الأمام يحاولان أن يرفعا أنفسهما ليكونا أخف وزناً، مضت الأشجار سريعاً بجانبهما، بدا الذرة وكأنه ومضة خافتة وطويت الأرض تحتها بسرعة كأنها الماء. صاح باليتير: "هيا!".

عدوا مباشرة بداخل حقول الكرنب والجزر فوق جدول الماء وبين الشجيرات واهتزت الأرض وطارت العصافير وتفرقت الديوك في فوضى لتخرج من طريقهم.

نظر باليتير إلى الأعلى. أتى الناس من جميع الممرات والحقول يركضون وها هو نهر "نت" يجري في هدوء وسلام.

سقط قبقاب باليتير وصرخت ماريكا وهبطت بيارد في الماء محدثةً تناثرًا ضخماً للمياه في النهر الهادئ. وكأن قنبلة انفجرت وانبعثت مئة نافورة منها. تناثرت المياه وتحولت إلى أمواج بيضاء، ارتفعت المياه إلى صدريهما وعبرت فوق أكتافهما.

سبحت بيارد عبر دوامة المياه ورفعت نفسها بصعوبة للضفة الأخرى وهي تقطر كأنها سحابة رعدية. هبطت الطائرة هناك

وتجمع حشد حولها، اقتربت الرؤوس من بعضها، حينها وصلت المهرة وباليتير وماريكا ينثرون الماء على كل الجوانب. تراجع الحشد إلى الورا وظهت الطائرة بيضاء وبراقة وكأن يدُ ما قد رفعتها في الهواء ثانية.

كان يقودها طياران ببدلٍ جلدية وقبعات صوفية فوق أذنيهما. أحدهما كان يضيف الوقود في الخزان والآخر كان يربط مسامير المروحة الضخمة البراقة.

سأل باليتير: "كم تأخذون لنشاهد نهر "سخيلده"؟".

ضحك الطياران من السؤال ورفضاً على الفور. لكن باليتير أصرّ، بدأ يعرض أكثر وأكثر، حتى استسلما في النهاية.

فرك كفيه قائلاً: "سنذهب الآن سوياً إلى أرض الشمس".

قال الطيار: "هناك متسع لاثنين فقط".

رد باليتير: "يا لها من خسارة يا فتاتي، لكنني سوف آخذك معي في قلبي".

شعرت ماريكا بالخجل وداعت شعر المهرة.

أعطى أحد الطيارين معطفه الجلدي لباليتير، وكان بنطاله مبتلاً؛ كان هذا جيداً.

جلس خلف الطيار الذي أمسك مقود الطائرة، والرجل الآخر

دفع المروحة عدة مرات حتى بدأت في الدوران سريعاً وأصبحت غير مرئية. شعر باليتير بقوة وكأن آلاف الرياح ترتطم بأنفه. طارت قبعات الرجال وارتفعت تنورات النساء.

بدأت المروحة تصدر صوتاً مرتفعاً وحتى قبل أن يدرك باليتير أقلعت الطائرة.

في لحظة استطاع أن يرى الأشجار تحته والحشد يركض خلفها بمنتهى الإثارة. ها هي ماريكا بفستانها الأحمر تمتطي المهرة البيضاء بجوار ضفة النهر تلوح له بمنديلها وتصيح "إلى اللقاء!" لكن صوت المروحة المرتفع منع باليتير من أن يسمع شيئاً.

انطلقت الطائرة عالياً وبعيداً بسرعة مهولة. نظر باليتير حوله إلى الأرض التي تقع تحته حيث بدأ كل شيء في التلاشي وكأنه يجلس ثابتاً في مكانه والأرض تدور بسرعة وتقع في الأعماق.

لم يعد يشعر بوزن جسده وكأنه لم يعد لديه جسد.

ارتفعوا أعلى وأعلى! وبدأ تدريجياً يرى الأفق الأزرق يتكشف.

ماذا كانت الغابات، المنازل، القرى، الأبراج، الحقول، الأشجار ونهر "نت"؟ لماذا أصبحت أشياء لا ترى سوى بالعدسة المكبرة! الضوء كان يحيط بهم من كل اتجاه، بدت في أربعة آلاف متر تحته ممتدة وجميلة وساحرة ورائعة وكأنه يكتشف غموضاً عظيماً.

قال باليتير: "كم تبدو الأرض جميلة!"

عمت ضوضاء المروحة الأجواء وكأنهم يركبون الصوت.

غمرت باليتير سعادة عارمة. أن يجلس في الهواء الواسع، أن يكون جزءاً من الرياح، محاطاً ومشبعاً بالضوء والهواء، يندفع خلاله كالسهم الموجه نحو الأبدية، شعر كأنه قد ثمل من الفضاء! ها هو العالم يرقد تحته جميلاً وغنياً بالألوان وضوء الشمس كامل ومثالي، مقدس وقوي كنهاية جميع الأشياء.

ازدادت سعادة باليتير أكثر فأكثر وتمتم: "كم هي جميلة! كم هي جميلة! شكرًا لك ربي لأنك خلقتني على الأرض!".

هناك بالأسفل في الأعماق، بدا نهر سخيلده كالخيوط الفضي، يشق طريقه عبر المدينة وبجواره "مدينة أنتفيرب"؛ المدينة العظيمة التي تحتوي على آلاف المنازل ومئات الشوارع. بعد هذا بعيداً بعيداً حيث يختفي النهر في الأفق يظهر بنعومة بريق البحر العظيم.

ها هي بروكسل وميشيلين وكل المدن والقرى الصغيرة. كان باليتير يستطيع أن يغطي عشر مدن بيد واحدة، وقال:

"هنا يعيش الناس؛ يعيشون هنا وهم يظنون أنهم يعرفون كل شيء عنها! وكأنها مياه في زجاجة! لو كان توما الكمبيسي ركب طائرة من قبل، كان كتابه سوف يكون أفضل آلاف المرات مما هو!".

## الفصل العاشر

### أمطار صيفية

عم المساء. رائحة الزهور البيضاء ملأت الهواء الكهرماني اللون. باليتير يدخن بسعادة، يسند ظهره إلى شجرة، يتأمل أرضه التي جرفت لتوها.

البهجة الخلافة للضوء والهواء قد انتعشت مع قدوم الليل، وتملك سكون عظيم روح باليتير.

الدخان من مدخنة الدير قد تضاءل إلى خط أبيض مستقيم فوق أشجار السور.

ثلاث دقائق واضحة خرجت من البرج ودوى صداها بقلب باليتير. بدا البرج الصغير داكناً في ظل السماء الصفراء، وباليتير يتجول بجوار السور إلى الدير الأبيض الوحيد. تسلل الشفق الرمادي بطيئاً فوق الحوائط البيضاء وأحجار الطريق لمعت بالأبيض. المنازل بدت وكأن ارتفاعها تضاعف، الأبواب مغلقة، الشوارع هادئة عدا طائري سنونو يحلقان عالياً في الهواء ويصيحان.

مشى باليتير على أطراف أصابعه، وقف لينصت للسكون ثم دخل الكنيسة. لا يوجد أحد هناك. وقفت الكراسي اللامعة بشموخ

في صفوف ومصباح المذبح ظل يغمز بثبات مثل العين. جلس وقد جعل السكون المتواصل عينيه تغمضان في سلام. تفتحت روحه وأسقط جميع الأشياء الأخرى كأنها حلم منسي. ها هو يجلس هناك.

قال باليتير: "أستطيع أن أشعر بماهية الإله، لكني ما زلت إنساناً".

حينما خرج كان اللون الأصفر قد تلاشى من السماء وعلقت بها غيوم رمادية، لكن اليوم لم ينتهِ بعد. كانت كل الأبواب مفتوحة بمنزل باليتير لكنه لا يزال مظلمًا من الداخل. لا يوجد أحد هناك.

رأى باليتير تحت السقيفة شفرة منجل ثقيل تلمع، فقرر أن يأخذه ويذهب للقصر. كان هناك طائر أسود في الحديقة يصفر نغمات قليلة بين الحين والآخر، قال باليتير:

"هذا يعني أن الأمطار باتت قريبة".

ذهب باليتير إلى مراعي الخيل ليجز العشب. شحذ المنجل وعندما وقع فوق العشب رن صوته.

قام بحركات كاسحة جيدة وهو يجز الأعشاب، بدا ظله ضخماً مظلمًا في ظل ضوء النهار الخافت الذي قارب على الانتهاء، انعكس الضوء بشكل مستمر فوق شفرة المنجل.

فجأة علا صوت بين العشب، رأى حفنة من الزهور الصفراء

ووجه ماريكا يلمع برقة فوقها. كان سعيدًا. اقتربت وهي تقول بإعجاب: "يبدو وكأن عملاقًا هو من يقوم بالقص".

سألها باليتير: "أيمكنني أن أشمها؟" وقرَّب وجهه من الزهور الرقيقة.

تمتت ماريكا برقة: "إنها لك".

"إنني أستطيع أن أشم رائحة روحك بداخلها!". قالها وهو يأخذ الزهور بين ذراعيه ونظر إليها بامتنان. لقد شعر كأنه طفل صغير.

"تعالى لنجلس وتخبريني لمَ قطفتها؟". قالها باليتير وهو يجلس فوق العشب ووضع باقة الزهور فوق ركبتيه. جلست ماريكا بجانبه وأخبرته كيف أنها ذهبت للصلاة مع شارلوت في كنيسة سانت آن الميدانية، في الطريق سألت مزارعًا إذا كانت تستطيع الحصول على بعض من هذه الزهور، إذ إنه قد قال مرارًا إنه يحب رائحتها المحملة بالعسل.

توقفًا عن الكلام. لم تتحرك ورقة فوق الأشجار وأتى صوت شارلوت من المطبخ وهي تتمم بصلواتها.

وقفت ماريكا فجأة وهي تصيح باندهاش: "أمطار! إنها تمطر!".

فتح باليتير يديه وبعد لحظة سقطت قطرة ماء باردة كبيرة فوقها وقال: "ناعمة كالبلسم الشافي".

قطرات ماء ضخمة تتساقط بين الحين والآخر من السماء  
المختفية وراء الأشجار، أحياناً تتساقط بالقرب منهما وأحياناً  
بعيداً.

كانا يستطيعان سماع صوت ارتطام وتحطم القطرات فوق  
الأشجار، كانا يشعران بالقطرات فوق أيديهما أو وجهيهما أو  
فوق باقة زهور ماريكا. كانت تتناثر أحياناً وكأنها بين يدين  
مسرفتين، ثم توقفت وعادت مرة أخرى في قطرات متفردة.  
استمعا لكل القطرات على حدة وكأنها شيء مهم.

رائحة الزهور طافت حولهم ببطء، أطلق الطائر الأسود في  
الحديقة نغمات واضحة طويلة من حلقة الذهبي لتنم عن مدى  
سعاده بهذا الغيث الوفير. بدا لباليتير وكأن هذا الطائر البسيط  
قد التقط بعض قطرات المطر واستخدمها ليغرد بها. بعض  
التغريدات كانت تبدو وكأنه يمتص القطرات ويلفظها مرة أخرى  
في شكل أصوات متلألئة.

كان صوت صلاة "أفي ماري" (السلام عليك مريم) يأتي طوال  
الوقت من المطبخ بشكل مستمر. التقط باليتير إحدى القطرات  
بلسانه ثم نظر إلى ماريكا وقال لها بصوت عاطفي:  
"إنها ليلة سماوية، أليس كذلك ماريكا؟".

نظرت إلى وجهه ولم تنبس ببنت شفة. أمسك بيدها المبتلة  
وخبأها تحت أصابعه الكبيرة.

"أوه ماريكا!". قالها وهو يشعر أنه قد يضغط على يدها حتى تتكسر، امتلاً قلبه بالحب. روحه مستعدة للانفجار.

ضم باليتير ماريكا إليه، وأحنت رأسها حتى أصبح لا يستطيع أن يرى وجهها.

"ماريكا!". قالها بتنهيدة طويلة. لكنها لم تتحرك ولم تقل شيئاً، ظلت قطرات المطر الضخمة تتناثر فوق الأوراق ببطء والطائر الأسود يغرد حتى اختفى آخر ضوء للنهار. أصبح المطبخ هادئاً الآن، حتى أضاءت النافذة فجأة ونادت شارلوت من الباب: "هيا جميعاً، العشاء أصبح جاهزاً".

سحبت ماريكا يدها من يده، وقفت ثم دخلت دون أن تنطق كلمة واحدة.

بقي باليتير مكانه وقد غمرته السعادة -ماريكا تحبه بكل تأكيد- مد ساقيه وجعل قطرات المطر اللطيفة تتساقط فوقه كالبلسم الشافي.

## الفصل الحادي عشر

### جولة فالكيري

كان الحر خانقًا، الشمس أحدثت شقوقًا عميقة في الأرض، بدت الخضروات كأنها عالقة في الطين وأصبح لونها كلون منشفة الأطباق.

جلس باليثير وماريكا في الظل الأزرق لزهور عباد الشمس ونبات البلسان، يأكلان التوت الطازج من قبعته المصنوعة من القش. كان طعمه لاذعًا، امتلأت زهور عباد الشمس بطنين النحل. وقف ومدد جسده ثم نادى: "انظري يا ماريكا إلى الأضواء هناك! انظري إليها! إنها كالموسيقى!".

وقفت ماريكا، تنظر إلى المدينة وهي تلمع في ضوء الشمس، وكانت تضع يدها فوق عينها من شدة الضوء.

لا يوجد أي كائن حي يتحرك هناك، لا توجد أي إشارة للحياة. الحرارة تغلي فوق الطرقات وكأنها بداخل الفرن، السكون يغطي الأرض كأنه الرصاص.

رأى باليثير كيف أضاعت الشمس وجه ماريكا والكرز الذي علقه فوق أذنيها بدا وكأنه حبوب المرجان بجوار وجنتيها الناعمتين؛

عندما شعرت بنظرتة إليها، صاحت وهي تحرك جسدها بنعومة،  
" هيا لنذهب في جولة للتجديف!".

صاح: "لنرى من سيصل أولاً للنهر!"، وتسابقا بكل قوتهما  
مروراً بالحديقة إلى الحقول الغناء، حتى وصلا في الوقت نفسه،  
حملها باليثيركالريشة فوق النهر.

بينما يصعدان إلى القارب المتأرجح جاء صوت شارلوت  
صائحاً: "ستذهبان للتجديف في هذا الحر أيها الأحمقان، من  
الأفضل أن تجلسا وتأكلا الكرز".

أجابها باليثير: "لدينا شمس لنستمتع بها"، ثم بضربتين  
قويتين من المجداف بدأ يجذبهما التيار عبر الحقول المغطاة  
بحرارة الشمس من الجانبين. جلست ماريكا خلف باليثير وأنزلا  
أيديهما لتتناسب في الماء الفاتر.

كانا ينظران بعضهما إلى بعض بين الحين والآخر في صمت،  
ثم ابتسما ولمعت عيناهما. جرفهما التيار دون أن يلاحظا ومرت  
أمامهما الأشجار سريعاً، بينما أكوام القش البعيدة بدت وكأنها  
تتحرك معها. لم تمر أي رياح فوق هذه الأرض الشاسعة؛ حام  
السكون حول ماريكا حتى إنها سألت:

"أيمكن أن تعزف لحناً؟".

أجابها باليثير: "لم أحضر مزماري معي".

"حسناً إذاً غنّ لنا أغنية".

فبدأ يغني:

"كان هناك أمير وأميرة

أحبا بعضهما بعضاً بحق".

ثم قال بعد أن انتهى من الغناء:

"الفرق الوحيد الآن أن الملكة شارلوت ستكون قد أضاءت أربع

شموع لتحمي الصغار من الغرق".

"أصبح وجه ماريكا وردي اللون".

رأى باليتير رجلاً يصطاد يقف ثابتاً كالتمثال عند أحد منحنيات  
النهر، فصاح: "هناك شخص يقف في انتظار كالتمثال، لا يغمض  
عينيه".

نظر إليه الصياد في عدم اكتراث ثم أعاد نظره مرة أخرى إلى  
الفليئة الحمراء الصغيرة.

استمرا في الابتعاد، فجأة صاحت ماريكا وهي تشير إلى  
السماء:

"سحب رعدية! سحب رعدية!".

ها هي هناك! تملأ الأفق، السحب الصغيرة المنتفخة تتدافع  
فوق رأسيهما وكأنها أعمدة محفورة ترفع السماء الزرقاء.

سألها باليتير: "هل تخافين الرعد؟".

"أنا؟ كلا! أنا أحب سماع صوته!".

"حسناً إذاً سوف نستمتع ببعض المرح، دعي الرعد يأتي".  
وفرك يديه ضاحكاً بمجرد التفكير فيه.

هنالك زحف ظل فوق بريق الحقول النحاسي، وفي لحظة أصبحت نصف الأراضي مظلمة. كلما انجرفوا مع التيار، بدأت السحب المرتفعة في الانكماش والصفوف البيضاء المتفرقة اندمجت وانسحبت بعيداً ثم تفرقت في شكل قطع رمادية غطت السماء الزرقاء وكأن هناك خيمة رمادية تخيم فوق المشهد بأكمله.

أثارت الرياح الرمال ونثرتها فوق السحاب؛ اهتزت الأشجار وأصدرت فحيحاً، طار الحمام بشكل دائري في السماء الداكنة كأنه قطع من الورق الأبيض، بدت الغربان كالرايات السوداء وهي تحوم فوق برج الكنيسة.

توقفت الرياح وعم السكون فجأة، ظهر وميض أحمر يلمع بعيداً فوق النهر في ظل الظلام الأرجواني، كان هناك صوت رعد خافت خلف الغيوم. بريق شموع النذور ظهر في نوافذ المزرعة البعيدة.

لمع البرق في الأفق في ثلاث جهات في وقت واحد؛ ضرب الرعد الأرض بقوة وأصدر هديرًا عنيفاً ارتجت له الأرض.

صاح باليتير وماريكا: "ها هي آتية! ها هي آتية!".

بدأت قطرات المطر الدافئ تتساقط فوق ملابسهم الرقيقة تنثر

رذاذًا باردًا فوق جسديهما وكأنها انتعاش إلهي. سحابة مطيرة متدفقة غمرت المنزل الريفي والأرض بالماء في لحظة. انهمرت الأمطار فوق الحقول في كل الأنحاء وعلق الضباب فوق الأرض، ضرب وميض البرق الأرض وهدر الرعد حتى كاد يصم الآذان. شاهدنا فلاحاً تضع ثيابها فوق رأسها وتركض عبر الحقول لتحتمي تحت سقف خشبي.

لكن باليتير وماريكا ضحكا واستمتعا بالأمطار، تدفق الماء فوق وجهيهما حتى امتلأً بالبريق. اندفعا مع التيار حتى وصلا إلى حقل الطحان حيث كانت الأبقار والخيول تتحرك في اضطراب. جالت بخاطر باليتير فكرة جيدة.

صاح: "هيا بنا نتوقف! هيا بنا هيا بنا ننزل للأرض!"

سألت ماريكا: "لماذا؟ ماذا هناك؟"

"لنمتطي خيلاً وبقرة. اقفزي!"

"نعم هذا صحيح! هيا بنا!". صاحت ماريكا.

قفزا إلى الضفة وحمل باليتير ماريكا فوق مهرة كستنائية اللون.

"تمسكي جيداً بعرف المهرة" صاح باليتير، وقفز هو فوق أقرب حصان، ولطم الحصان بيده العارية وانطلق مباشرة يليه القطيع كله؛ نحو عشرين بقرة وجواداً.

تدافع القطيع وانطلق بعيداً تحت الأمطار ككتلة واحدة. تعلقت ماريكا بشعر المهرة الخائفة وهي تهتز من الضحك. جلس باليتير بسهولة فوق حصانه وأخذ يلوح بيديه ويغني بكل قوته أغنية "فالكيري" الرنانة لكورس فاغنر.

ازداد الرعد والبرق والمطر كأنه يوم القيامة؛ بينما جموع الخيول والأبقار ترتعش وتصدر أصواتاً مكتومة كأنها سوف تحطم كل شيء أمامها، اهتزت الأرض وارتجفت تحت أقدامهم وكتل من التربة تناثرت فوق أجسادهم الجامحة.

شعر ماريكا المبتل تحرك مع خطوات المهر وطار من خلفها كأنه شرع. دفع باليتير فرسه قدماً وتبعه القطيع الضخم وتدافعوا إلى الأمام بقوة وشراسة أكبر، كما لو أنهم يتحدون ضد قوة الطبيعة. علا صوت باليتير فوق كل أصوات الرعد والصهيل والخوار والخطوات وهو يغني: "تا، تا، تا، تا!" كان رائعاً!

بدأ الرعد في الهدوء، وباليتير قد ساق القطيع وهم يركضون ويستنشقون الهواء في ظل بريق الشمس التي سطعت من خلال شقوق الغيوم وصولاً إلى الحقول. ثم سطع قوس قزح فوق الأرض في زهو. تأمل باليتير، وهو لا يزال فوق حصانه مبللاً، ماريكا فوق المهرة الضخمة، وابتسمت هي الأخرى بينما هي تقطر كأنها الأمطار، شعرها منسدل، تلهث وتشرق بالسعادة.

تأمل تموجات خصرها وصدرها اليافع المشدود من خلال فستانها الأبيض المبتل فوق بشرتها الوردية. كانت سعيدة جداً

وبدت وكأنها ملاك في جوف الأفق الداكن الواسع؛ في خلفيتها  
ظهرت الأرض الخضراء المشمسة والأشجار والمنازل وطواحين  
الهواء وفوقها قوس قزح المهيب.

نعم! هذا هو الجمال بعينه بالطبع! تحرك قلب باليتير بداخله.  
دفع جواده وذهب بجوارها وحضنها فجأه وصاح:

"أنتِ زوجتي، زوجتي الجميلة!".

وبتتهيدة طويلة لفت ماريكا ذراعيها المبتلتين حول عنقه  
وسألت في بساطة وحماس:

"متى؟".

" في خلال أربعة أسابيع من الآن!". أجابها بسعادة وقبلها  
قبلة مبللة طويلة فوق شفثتها وأسنانها البيضاء الجميلة.

لا تزال شارلوت ترتعد خوفاً من صوت الرعد وكانت سعيدة  
بعودتهما.

"هل يتسع مضجعي لاثنتين؟". سأل باليتير.

"لما تقول هذا...؟". ثم نظرت شارلوت باندهاش لماريكا وهي  
تحيط بذراع باليتير.

صاحت ماريكا بسعادة: "سوف أتزوج باليتير".

"حقاً؟ حقاً؟". تلعثت شارلوت وهي ترتجف، "أنت يا ابنتي

الروحية، تتزوجي الفتى؟... حَقًّا؟... يا إلهي!". وتعلقت برقبة  
باليثير وانهمرت دموع السعادة من عينيها.

لمس هذا قلب باليثير وتسالت الدموع إلى عينيها؛ ثم عض على  
شفتيه ليمنع نفسه من البكاء، لكنه لم يجد أي نفع.

## الفصل الثاني عشر

### ضوء القمر

أحضر مزارع حصن المياه حزمة القش الأخيرة يوم السبت، وكانت هناك وليمة يوم الأحد؛ فطائر وبيرة محلاة.

جلس باليثير وماريكا مع العائلة بأكملها، العمال والوصيفات على طاولة مستديرة ضخمة؛ الأبواب والنوافذ مفتوحة فقد كان يوماً حاراً. حرارة الظهيرة الحارقة بدت وكأنها تطهو الحقول والمراعي المحيطة. انعكس ضباب أزرق في الغرفة السفلية بحوائطها البيضاء ودلاء الحليب النحاسية. امتلأ المكان بالضحك والثرثرة وصخب كأنها حظيرة دجاج وامتدت الأيدي الحمراء الضخمة لتلتهم الفطائر الصفراء التي تتدفق عليهم من الأطباق المتكدسة. تناولوا السكر وعصير الفاكهة المركز والزبد مع الفطائر. لا يكفيهم صنف حلو واحد؛ جففت الحلوى حلقهم وشربوا البيرة البنية ليرطبوا على أنفسهم.

كل الأبواب والنوافذ كانت بمثابة لوحة مرسومة؛ الطرق تمر عبر حقول الذرة والمراعي الخضراء وظهر النهر في لمحات هنا وهناك، الأسطح تبدو وكأنها تختلس النظر بين الأشجار الكثيفة، الأبقار التي ترعى، الفراشات البيضاء على جانبي الطريق، وبعيداً

الغابات وطواحين الهواء الساكنة، الحمام يطير عبر السماء الزرقاء.

كان بعض الفلاحين الموجودين قادرين على أن يلتهموا عشرات من الفطائر ولا تزال أعينهم معلقة بالمطبخ في انتظار المزيد. أفواههم وأيديهم لزجة ولا يجدون الوقت ليمسحوا أنوفهم. انتشر الذباب فوق الطاولة وكأنه الزبيب فوق الكعكة. واصل باليتير التهام الطعام وتذوق طعم القرفة بين شفثيه ثم البيض ثم الزبد واستنشق كلاً بدوره. أثناء التهامه للفطيرة الحادية عشرة له تأمل باليتير الحقول المشمسة الهادئة وسمع دقات جرس الكنيسة، ثم نظر إلى الوجوه الطامعة اللامعة بجواره وتطلع إلى حبيبته ماريكا. قرصها في خبث في جنبها فقفزت ضاحكة. وضع باليتير قدمه فوق قدمها تحت الطاولة. لمع وجهه من العرق والشحوم وكانت يده لزجتين.

عندما انتهى العشرون شخصاً الجالسون من التهام قرابة المئة والخمسين فطيرة، تم رفع الأطباق والأكواب ووضع نبيذ محلي فوق الطاولة. أشعلوا الغليونات وطافت سحابة من الدخان فوق رؤوسهم.

صاح الجميع: "أغنية! أغنية!". فبدأ باليتير في غناء أغنية "صيادي بلاكنبرج" وحينما جاء دور الكورس تمايل الجميع في صورة دائرية وأيديهم مشبكة بعضهم ببعض.

حينما انتهوا وقد أنهكوا من الصياح والتدافع، طلبوا من ماريكا

الغناء. وقفت ثم بدأت تغني بصوت عذب مرتعش "الحارس الليلي". (دائمًا ما كان الحراس الفلمنكيون والهولنديون يحملون خشخشيات)

واصل باليتير الصغير مع نغمات الأغنية وعندما جاء دور الكورس غنوا جميعًا: "صفق بيدك تيكي تيكي تيك! واخط بقدميك تيكي تيكي توك وابدأ في الدوران!". صفقوا جميعًا بحدة وخطوا بأقدامهم وكأنها مطارق. الجميع يريد أن يشارك، يحدث ضجة، يغني ويتمايل مع الأغاني. غنى كل بدوره وكان هناك كورس معروف في معظم الأغاني حتى يستطيع الجميع أن يشارك ويقفز ويصفق ويغني بكل قوة.

امتلأت ملابسهم وأصبحت رطبة فوق أجسادهم، احتسوا البراندي الفرنسي والنيبيذ المحلي.

صاحت سيدة ممتلئة: "من يحكي لنا قصة جيدة ويلخصها لنا لنهتز جميعًا من الضحك؟".

رد مزارع: "أنا أعرف واحدة". مال الجميع إلى الأمام ليستمعوا، وأفواههم مستعدة للابتسامة، يمسكون الأقداح ويضع كل رجل منهم ذراعه حول امرأته.

روى المزارع قصة شيقة عن الشماس وخادمة الكاهن؛ نهاية القصة كانت مضحكة جدًا حتى إنهم اهتزوا من كثرة الضحك. العديد من الحضور أراد أن يروي قصة أفضل، ثم بدؤوا يروون قصة تلو أخرى، ازدادت فظاظتهم شيئًا فشيئًا حتى بدا أنه قد

حان الوقت ليرسلوا الأطفال للعب خارجًا. بدأ العديد منهم في السرد حتى أصبح هناك ثلاث أو أربع قصص تروى في الوقت نفسه على الطاولة.

باليثير لم يتوان هو الآخر، وماريكا التي تظاهرت بعدم الاستماع ربتت على قطة القديسة آن وأطعمتها كعكة التوابل.

علا هدير الضحكات في نهاية كل قصة؛ بالرغم من عبارة "غير مسموح بحلف اليمين" تعالت أصوات الحلف باليمين كأفضل ما يعبر عن سعادتهم ورضاهم العميق.

في النهاية دخل نسيم ذهبي من الحقول ليرطب الغرفة، البريق القوي فوق الأراضي المضاءة بضوء الشمس بدا وكأنه شعاع نحاسي، انغمست الشمس بعيداً في وهج أحمر خلف جموع الغيوم. أحالت إضاءة الشمس المدخل إلى مربع براق وأضاءت المشهد ذا الضي الأزرق داخل الغرفة بشكل بديع. بعثت الزهور بجوار النافذة روائح عطرية.

حينما خرج باليثير ونظر إلى الحقول والسماء تمتم لنفسه:  
"ستكون ليلة في الألف!"

اختفت الشمس وتلاشت الظلال، امتدت أشعة بيضاء بين السحب كأنها قرون غزلان، وكأن هناك كاهناً يقف بعد الأفق.

دخل وهو مفتون تماماً وقال لماريكا:

"هيا بنا لنذهب ونتحدث للرب قليلاً!".

وقفنا ليتوجها إلى الخارج لكن أهل المزرعة لم يسمحوا لهما  
وتوسلوا وأثاروهما حتى يبقوا معهم.

قال باليتير: "سوف أذهب لأغازل ماريكا قليلاً، يجب أن أفعل  
كل ما بوسعي، فهي سوف تذهب غداً".

تفهموا هذا السبب، وبدأ كل منهم في المصافحة استعداداً  
للرحيل.

قال باليتير: "هي سوف تأتي هنا مرة أخرى استعداداً للزفاف،  
وسوف تأتون جميعاً لتحضروا الحفل!".

هنا بدؤوا جميعاً في الغناء:

"كيف نستطيع أن نحيا دون عزيزتنا ماريكا؟

دون عزيزتنا ماريكا لا نستطيع العيش على الإطلاق!".

كانت جميع الروائح الجميلة تملأ الأجواء بالخارج.

تجولا بجوار النهر في صمت. يملأهما سكون الأجواء الخلابة  
للمساء. يوم السبت الحار ينتهي بسلام، بدأ الليل يخيم في هدوء  
فوق المراعي المليئة بالآلاف الأكوام المعطرة من القش.

خرجت من المنازل البيضاء على الضفة الأخرى للنهر أصوات  
موسيقى الكونسرتينا ودقات الجرس الكبير لصلاة الغروب.  
انعكس على طول النهر صورة طفلين، أحدهما يرتدي معطفاً

أبيض والآخر يرتدي معطفًا أحمر، يحملون الهمدباء ويجري خلفهم جرو أسود. بدا الضوء وكأنه ينبعث من الأرض.

امتلاً الأفق بالعديد من الطيور والغيوم الرمادية الساكنة. علقت رطوبة الليل بقوة فوق العشب، لم تتحرك ورقة واحدة من شجر الحور. بدا الضوء والماء حتى الوقت ساكنين وكأنهما في حالة انتظار الأوامر للتحرك. كان شعورًا خارقًا للطبيعة.

بعد قليل سطع قمر أحمر خلف شجرة الحور ليلمع فوق كل هذا الهدوء الساحر. جعل الكون كله يعود ليبدو أكثر شبابًا وبهجة.

تعجب باليتير: "أوه، إنها تجعلك تخر راعًا".

وقف مفتونًا وكأنه لم ير القمر من قبل. بالطبع كانت تلك هي المعجزة التي ينتظرها كل شيء! الآن بدأ المساء يستأنف عمله وخرجت الخفافيش. نعق في نعاس سرب ضخ من الغربان ثم طاروا عبر الأفق وتفرقوا في الغابات البعيدة التي كانت قد أظلمت بالفعل. بدأت الكلاب تنبح على القمر وانتهى النهار.

استكملا التنزه ورأسها يميل فوق ذراعه، ثم وصلا إلى نهر "نت" المتدفق. كان هناك جسر خشبي صغير قبالة شجرة صفصاف ضخمة تدلت فروعها فوق تيار الماء في شكل قوس أخضر. جذبا الأفرع جانبًا ليمرًا إلى الداخل وكانهما يدخلان غرفة خضراء.

كان كالمعبد الصغير معطرًا برائحة أوراق الشجر الخضراء.

تدفق النهر أمامهما بجوار المراعي، وظهر القمر في الأفق وقد بات ذهبي اللون في السماء الزرقاء الرمادية. كان مكاناً بديعاً واجتمع رأسا المحبين وتدلّت ذراعاهما فوق الجسر المليء بالطحالب.

مر النسيم محدثاً تموجاً فوق صفحة الماء بجانب القصب وغمر ضوء القمر النهر، وكأن هناك فقاعات من نور القمر، ثم تنحى النسيم وبدا ضوء القمر ساكناً فوق صفحة الماء مرة أخرى في صفاء ونقاء روح القديس. طارت بومة منخفضة فوق النهر ثم اختفت بعيداً بين القصب.

كانا منعزلين تحت قبة الأعشاب الصغيرة، بعيدين عن ضوء القمر، امتلاً قلبهما بالحب في تلك العزلة.

احتضنها باليتير وأخذ يقبلها بلا توقف، خديها الرقيقين، فمها الرطب وأعينها المغلقة. بدت وكأنها تذوب في عشقه وغاصت بلا مقاومة في عناقه القوي. كست أشعة ضوء القمر فروع الأشجار وانعكست فوق كتفيها ووجهها. نظر إليها باليتير وهو مفتون ثم تتمم: "مثل اللحم، حلم!". ولامس شعرها ووجهها بشفتيه وعض على خدها ورقبتها؛ كاد أن يحطمها من شدة الحب، مثلما تعزل تلك القبة الورقية الخضراء العالم الخارجي وتنغلق على كينونة الشجرة القديمة، كان الشيء الوحيد الذي يجعل باليتير يشعر بالعالم هو أن قدميه تطأ الأرض. نسي الماضي ولا يعرف المستقبل، هو لا يعي شيئاً سوى جلال اللحظة الآنية. لم يتحدث،

لم يكن هناك صوت داخل هذه القبة المقدسة سوى أصوات قبلاتهم. فتحت ماريكا عينيها الواسعتين الجميلتين وقد غمرت السعادة، نظرت إليه طويلاً ثم أغمضت عينيها بهدوء في نشوة.

اخرقت تلك النظرة قلب باليتير حتى ذرف دمعاً من عينيه واقشعر جسده ومرة أخرى بحثت شفثاه عن شفثيتها، مال رأسها على كتفيه والتفت يداها حول عنقه. تمايلا فوق الجسر وحملها بين ذراعيه كما تحمل الأم طفلها.

ازداد ضوء القمر بياضاً وغموضاً مثل أحلام الطفولة؛ هناك فوق الأرض الضبابية الزرقاء.

رائحة الماء والقش والورد ملأت الهواء في كل الأرجاء، ومن بين أشجار مزرعة رينجن غرد العنديلين وكأنه ينشد قطرات صغيرة من اللؤلؤ. علا في السكون صوت عرير الصراصير... التفا مع صوت صرير الخشب ودوران الماء، فأزاحا الفروع جانباً، رأيا صياداً في مركب صغير يجذب شبكته والأسماك الفضية تقفز بداخلها. عمله كان بسيطاً، لكنه بدا كالسحر في ليلة ذهبية. يا لها من ليلة بيضاء جميلة في انتظارهما كأنهما ينظران من نافذة! "هيا بنا لنخرج ونشعر بانعكاس ضوء القمر فوق أجسادنا!"

خرجا من تحت شجرة الصفصاف إلى الهواء الطلق النقي، فوق الأرض الساكنة الشاحبة.

كان القمر في هذا الوقت واضحًا مثل البلور، انعكاس ضوء القمر فوق الأرض وبين النجوم الزرقاء يحمل الضي الأخضر. بدا كل شيء خافتًا مثل ضوء النهار الباهت، ظهرت كل أشجار الحور، والذرة بدت شاحبة، والأبقار نائمة في الحقول. في الحديقة يمكن تمييز الزان النحاسي وأشجار الدلب الخضراء، وتمثال أبيض ناصع لفينوس من دون ذراع، على قاعدة مكسوة بالبلاب. وقد علق ضباب رفيع فوق جداول الماء.

نزلا من فوق الجسر واتجها إلى المراعي حيث تستلقي بقرة نائمة تنظر بعين ثقيلة إلى القمر والحقول الهادئة. ذهب إلى الحقل الكبير بين صفوف من أكوام القش المغطاة بضوء القمر. تجولا بين رائحة القش وجسدهما الملتصقان يتركان ظلًا واحدًا فوق العشب المقصوص. تحرك القمر بجوارهما تاركًا انعكاسًا فوق نهر ضيق.

"هيا لنجلس قليلًا!"

جلسا فوق كومة كبيرة من القش، احتضنا بعضهما بعضًا وغاصا في القش وكأنه عش. خبأت رأسها الجميل بين تجويف كتفيه والتفا حول بعضهما كأنهما أرنبان صغيران.

"الليلة تبدو إلهية!" قالها باليتير بهدوء، نظر إلى السماء المليئة بضوء القمر والنجوم الشاحبة.

النجوم متفرقة في السماء مثل الرمال البيضاء، تتجمع سويًا هنا وهناك مثل خصيلات الشعر؛ بعضها يلمع كالجواهر.

فتحت جميع أبواب السماء، وظهر ضياء درب التبانة بصفاء  
بينها، كأنه بخور.

بين اللحظة والأخرى خرج من هذا السكون الخالد للعالم؛  
شهاب. فتن باليتير وعيناه تنظران من نجم لآخر، من تكوين  
الميزان إلى حزام الجبار ومنه إلى النجم القطبي وهكذا؛ نظر إلى  
أبعد النجوم وما وراءها كأنها نقاط الإبرة حتى لم تستطع عيناه  
أن تريا أي نجوم أخرى، فقط الضباب النقي تحت قبة السماء  
الزرقاء، ثم اندفعت أفكاره: "نجوم! نجوم في كل مكان.... فوق،  
تحت وفي كل الأنحاء حوله!...". صعق باليتير وغمرته السعادة  
وصاح بلا تفكير: "لماذا؟ لماذا؟".

وفجأة غمره جمال النجوم اللانهائية في السماء، بات قلبه  
مفتوناً وصاح: "يا جواهر الرب، إن روعي ترتعش من جمالكم!....  
ماريكا، ماريكا، انظري للأعلى!..". لكن ماريكا كانت قد غفت  
برقة فوق ذراعة.

"هذا أفضل!". قالها مباشرة، هذا أيضاً جميل، يتماشى مع  
الليلة الصافية، الهادئة، الرائعة وغمر قلبه حنان دافئ؛ انحنى في  
هيام وقبلها قبلة في نعومة الريشة.

كانت في غاية الجمال والرفقة، لم يستطع أن يوقظها. استنشقت  
روائح الليل الجميلة وتأمل نجمين صغيرين تلامسا وبدا أنهما  
يذوبان بعضهما في بعض.

طافت سحابة بيضاء صغيرة عبر السماء الصافية. انجرفت إلى الأمام في تردد وكأنها تتحرك بجاذبية القمر؛ تحركت تحت القمر وفجأة تحولت إلى اللون القزحي والوردي والأخضر والأرجواني، بدت مثل قوس قزح مجعد يمر أمام القمر؛ ثم مرت وبدأت تفقد ألوانها تدريجياً وعادت بيضاء، تحركت بعيداً وحيدة، كانت بمثابة ابتسامة المساء العابرة.

أخذ العندليب البعيد يغني، ونقيق الضفادع يعلو من وقت لآخر. أصبح الليل أكثر بريقاً والضباب أكثر كثافة فوق الأرض وجداول الماء.

اهتز السكون، بريق شعاع القمر كاد أن يكون مسموعاً. بقي العشب مستوياً.

سكن باليتير بهدوء الليل، يرمق القمر بنصف عين مغمضة وقد غمره ضوء القمر وغط في نوم عميق.

أكمل الليل المبهر مهامه. النجوم انجرفت واختفت، ألقى القمر بشعاع ضيائه فوق كل شيء ثم تحول إلى أحمر باهت وتسلل نحو الغرب وكأنه جفون مغمضة.

الشخصان النائمان فوق الأرض، تنفسا مع الطبيعة الأم، نفساً واحداً ودقة قلب واحدة، السكون ذاته والحياة ذاتها.

كانا نائمين ورأساهما بجوار بعضهما، يتيهان بعضهما في

بعض. ثم استيقظا يرتعشان مع أول شروق للنهار بينما لا يزال الضباب معلقاً فوق الحقول وأكوام القش.

جاء النهار. الأزهار لم تتفتح بعد لكن الديوك بدأت في الصباح، نبج كلب وصاح طائر الوقواق من داخل الغابات الضبابية.

نظرت ماريكا حولها في سعادة، فركت عينيها لتزيل النوم من عينيها، تثناءت وألقت رأسها فوق كتف باليتير للحظة؛ ثم وقفت لتخرج من العش الدافئ وضحكت من ملابسهما المبللة المجددة والقش الملتصق بشعرهما.

توجهتا إلى المنزل يداً بيد يهيمهان ويثرثران في انتعاش الأبقوانات، يتوقان إلى ملابس نظيفة وقهوة ساخنة.

نفخ الراعي في البوق وبدأت الأجراس تدق؛ إنه النهار!

## الفصل الثالث عشر

### العسل

تفيض خلايا النحل بالعسل. فاحت رائحته في الحديقة بأكملها، انشغل باليتير طوال فترة الأصيل بجمع العسل ووضعه في أوانٍ فخارية.

كانت تشارلوت تساعده، تحمل الأواني إلى القبو البارد واحد تلو الآخر. كلاهما كان يتصبب عرقاً ولزوجة الشمع والعسل تملأ أيديهم ويلعقان أصابعهما طوال الوقت. ظل ليوباس -الكلب- يشاهد العمل ويلعق في نهم ما يسقط منه.

كان باليتير سعيداً بالحصاد الطو، بدأ يغني بأعلى صوته بينما شارلوت تثرثر طوال الوقت عن العسل والجو؛ غلبتها حرارة الجو، لم تكن قلقة من أن يتم لدغها حتى إنها كانت تمشي حافية القدمين مرتدية تنورة قصيرة تصل فقط حتى ساقها، شممت عن ساعديها وذراعاها تخرجان من قميصها الأحمر وكل ذراع في حجم طفل صغير. كشفت ياقة فستانها الواسعة عن رقبتها وعظمة الترقوة السمينة، وصولاً لكتفيها، بدا جسدها ككتلة واحدة ضخمة. احترق وجهها كالفرن ونضحت الرطوبة منها كأنها إسفنجة.

بدأت شارلوت في الحديث عن ماريكا.

"لماذا تنتظرون حتى الخريف للزواج؟"

"سيكون جميلاً أن ندفع بعضنا بعضاً".

"امسك عليك لسانك". قالتها شارلوت متذمرة، لكنها بعد دقيقة عادت تقول مرة أخرى، برقة وبهدوء وهي سعيدة بنفسها: "هأنذا، كما يُعتقد دائماً أنني راهبة، أنا سعيدة لأنني لم أفعل ذلك أبداً، ولكن هل يمكن لماريكا أن تتعايش هنا من دوني؟".

"حسناً، حسناً!" قاطعها باليتير. "يمكنها أن تنام معك".

"هذا جيد جداً". قالتها شارلوت وهي تستعد للوقوف، "ماريكا ابنتي الروحية ويمكنك أن تتأكد أنه لن يصيبها مكروه".

"لماذا أنت متأكدة هكذا، إذا أنا تزوجت لا أريد خادمة بعد الآن؟". قالها باليتير ليضايقها.

هنا انفجرت شارلوت قائلة: "أهكذا! أوجب أن أذهب أنا! أذهب بعيداً، وأنا يتيمة! لم أكن فاعلة! من كان ليصدق هذا! أهذا هو كل ما ألقيه جراء عنائي؛ أهذه هي طريقة تقديرهم لي هم من راعيتهم من مهدهم! رحمتك يا إلهي!".

"حسناً حسناً". قالها باليتير ليهدئ من روعها "لم أنس أنك يتيمة!".

وهكذا انتهى الخلاف وانتهى العمل.

ارتدت شارلوت تنورة أخرى وأنزلت أكمامها وحملت أكبر وعاء من العسل إلى منزل القسيس.

أخذ باليتير أحد الأوعية لصديقه الرسام، فرانسو، وآخر لدار الإيواء على الضفة الأخرى من النهر.

بدأ في التجديف على امتداد النهر وعبر إلى الجانب الآخر، ربط قاربه، وضع أحد الأوعية فوق كتفه والآخر تحت ذراعه ومشى بطريق زلق وهو يصفر لحنًا سريعًا.

حام حول الوعائين سرب من النحل والدبابير طوال الطريق. توقف باليتير عند إحدى الحانات ليروي ظمأه؛ البيرة كانت رديئة، وعند خروجه من الباب عادت سحابة من الحشرات لتحوم حول وعائي العسل.

ظهرت طاحونة الهواء أمامه مباشرة فوق الأشجار، تدور أشرعتها برقة في الرياح الجنوبية، شعاع الشمس ينعكس فوق دوارة الرياح النحاسية ويضيء الطحالب الخضراء التي تزين المبنى الأسود القديم.

طاحونة الهواء القديمة الجميلة! إنها تميل قليلاً على أحد الجوانب، إنها تقف شامخة تعلو فوق الأراضي في جلال كأنها كنيسة؛ مرئية من جميع الجهات.

أراد باليتير أن يتسلقها ليشاهد منظر البلدة الجميل. استمتع

بالمنظر الشمولي (البانوراما)، ليشاهد الرياح تجتاح الظلال الزرقاء فوق الأرض تغطي نصف العالم بزخات المطر بينما تشرق الشمس من خلف الغيوم على بعض القرى الصغيرة وطواحين الهواء. الصباح والمساء أصبحا أطول وأكثر إبهارًا حين يتم رؤيتهما من هذا الارتفاع، والليل أصبح داكنًا أكثر وأبطأ. الشتاء أصبح كأنه إحدى رسومات بروغل، تستطيع أن ترى بعينيك أن الربيع قادم من الجنوب، وتستطيع أن ترى في كل الأنحاء؛ أمطارًا أو جَوًّا جميلاً، رؤية أعمال المزرعة، رجلًا يحرث الأرض من أجل الخبز، كرؤية موسى!

صعد باليتير سريعًا درج غرفة الرسم الخاصة بصديقه الرسام في أعلى طاحونة الهواء. جاءت وراءه زوجة فرانسو الممتلئة وهي تضحك.

كان الرسام، شبه عارٍ، منشغلًا بمنظر بانورامي، الغرفة نصفها مضاء وجدرانها مظلمة. وضع باليتير وعاء العسل وتوجه مباشرة إلى أحد مداخل الهواء ووضع رأسه خارجها. يا له من ضوء وهواء! كانت الذرة في كل مكان؛ في القرى، حول المنازل، غابة الدير، المراعي وعلى طول ضفاف النهر! الأرض كانت ذهبية بالذرة، الرجال الذين يعملون بها بدوا كأنهم نمل أسود.

كان هذا العمل المقدس للذرة، أينما يمتد نظرك تجد المناجل تحصد وطواحين الهواء تدور مثل تلك التي تصدر صرير أشرعتها أمام وجهه مباشرة. "مرحى! كل هذا ليتم إعداد الخبز؛ المن الذي

تنتج الطبيعة الجميلة!".

فوق كل هذا نشرت الشمس المشرقة أشعتها في الأفق.

صاح باليتير لفرانسو وزوجته اللذين أخذًا يتذوقان العسل بالفعل: "هاك! انظرا إلى الطبيعة! كأنها تلد جنينًا. هيا بنا لنمرح! هيا بنا لنكون وسط الذرة ونقبل الأرض وننحني لها!".

توجهوا للطابق السفلي وشربوا كأسًا من النبيذ الأحمر مع الطحان ليوني. أهدت زوجة فرانسو باليتير باقة من زهور الزعفران الصفراء مقابل العسل؛ أغمض باليتير عينيه واستنشق رائحتها الزكية.

ثم حمل باليتير وفرانسو وعاء العسل الآخر إلى دار الرعاية الفقيرة؛ حمل كل منهما مقبضًا وسارا عبر حقول الذرة. كانت قد أينعت بالفعل؛ كانت ثمار الذرة الثقيلة منحنية وبدا لونها من الجانب التحتي أزرق مائلًا للاحمرار. كان يتم قطفها بواسطة مجموعة من الرجال والفتيات هنا وهناك، في بعض الأحيان يوجد رجل يجمع المحصول وحده. بعض المساحات الواسعة كان قد تم قطفها وبجانبها اصطفت حزم الذرة في صفوف أنيقة. أشعة الشمس الحارقة ألهبت والتهمت كل شيء؛ الذرة والأشجار وانكب قوم الحصاد على عملهم، يمكنك أن ترى الحرارة تتدفق فوقهم كأنها سيل من الماء.

أنهى باليتير وفرانسو حديثهما؛ سارا في التراب الذي كانت تقذفه أقدامهما أمامهما؛ كانت تحيط بهم أصوات تنفسهما

وأصوات حفيف احتكاك ثمار الذرة بجسديهما وأصوات طنين النحل الذي يحوم حول وعاء العسل.

بعدما سارا جزءاً من الطريق، شعر باليتير بجفاف حلقه الشديد وأراد بشدة أن يحتسي كأساً من البيرة: لكنهما كانا بعيدين في الضواحي ولا يظهر حتى أفقر نوع من الحانات في الأفق، لم تتبقَّ أي نقطة رطوبة في فمه.

بعد ميل آخر رأى عربية بيرة تخترق طريقاً رملياً فصاح: "مرحى!"

اندهش فرانسو وسأله: "ماذا حدث؟".

رد باليتير: "نحن كنا نموت عطشاً وهناك تأتي البيرة! هيا بنا نذهب لنشرب".

ثم عبرا حقل الذرة وصولاً إلى العربية.

نادى باليتير السائق السمين: "يا هذا! نحن نريد برميلاً، إننا نتوق إليه!".

صاح السائق مجيباً وهو يستكمل طريقه: "جميعها محجوزة".

"سوف ندفع ضعف الثمن" صاح باليتير مجيباً.

هنا توقف السائق قائلاً: "حسناً إذًا، خذ البرميل الصغير في المؤخرة، حتى تستطيعا أن تشربا مباشرة. هل تحضرون

لحفل؟".

قال فرانسو: "ها هو" حمل باليتير البرميل ودفع ثمنه.

انطلق السائق، حمل فرانسو وعاء العسل ودحرج باليتير  
البرميل أمامه بقدمه.

سأل فرانسو: "كيف نستطيع أن نشرب منه؟ لا يوجد معنا  
كأس أو صنوبر".

حك باليتير رأسه: "لا صنوبر، لكن كيف نستطيع الحصول  
على كأس؟".

وقفا يفكران، ثم نظرا إلى وعاء العسل. لو كان هذا الوعاء  
فارغاً، قال فرانسو: "هيا بنا لنذهب للبحث عن كؤوس في إحدى  
المزارع".

"هيا بنا ثانية!". ثم عادا يدحرجان البرميل فوق الطريق  
الرملي. وصلا إلى حقل ذرة قد تم حصد نصفه وفي الجانب  
المظلل جلس العمال الذين يحصدون يشربون شاي الساعة  
الرابعة عصرًا. شعر باليتير بسعادة غامرة برؤيتهم وصاح وهو  
يلوح بذراعيه:

"أيها الرجال، اتركوا قهوتكم! هاكم بيرة طازجة! إذا أحضرتكم  
الكؤوس يمكنكم جميعاً أن تشربوا كما تريدون".

حضروا جميعاً مباشرة مع كؤوسهم يتدافعون ليقتربوا من  
البرميل. أخرج باليتير الفلين بسكين التقليم وتدفقت البيرة

كالنافورة، وضعوا كؤوسهم تحتها وشربوا بنهم. تم صنع سداة سريعاً من قطعة خشب وهكذا يمكن أن يشرب في وقت الفراغ ولا يضيع أي شيء.

جلسوا حول البرميل وباليتير شرب قدر استطاعته من وعاء كبير مرسوم عليه ببغاء أحمر. عطشهم لا ينتهي؛ احتسوا البيرة وضحكوا حتى تصببت جباههم عرقاً.

قالت إحدى الفتيات وهي تضحك: "لنسمع بعضاً من الموسيقى وسيكون كل شيء جميلاً مثل القصص الخيالية!".

صاح بعضهم: "هيا يا أدريان!". ينادون شاباً رفيعاً طويل البنيان. "اجلب البوق؛ وسوف نرقص".

"نعم، نعم" صاحوا جميعاً بحماس: "لدينا متسع من الوقت، أسرع!".

ذهب الفتى بحماس بينما الفتيات يضحكن ويثرثرن في نشوة بعضهن مع بعض.

استمر الشرب طوال الوقت. كان رجل عجوز يقوم بدور الساقى. عاد الشاب سريعاً من المزرعة بصحبة أخيه وبوق نحاسي ذي رقع خضراء. في البداية شرب كأساً من البيرة الصفراء ثم بدأ يعزف لحن فالس بطيء وهو يقف بحدة ومستقيماً. بدت النغمات غريبة جداً وترددت في حقول الذرة لمسافات. بدؤوا

جميعاً الرقص في لحظة، عدا الرجل العجوز الذي ظل يصب البيرة لنفسه. رقص كل شاب مع فتاة والرجال المتبقون أخذوا يرقصون بعضهم مع بعض. رقص فرانسو مع فلاح قصير أحدب. لكن باليتير حصل على زهرة المجموعة، فتاة قصيرة ممتلئة كاشفة ذراعيها وأرجلها، وجهها وردي مليء بالنمش؛ نظرتها ماكرة مثل نظرة القطط.

ضمها باليتير إليه أثناء الرقص؛ شعر بدفء جسدها من وراء فستانها الرقيق، ضغط على خصرها حتى صرخت ضاحكة. انتهى الرقص وجلسوا جميعاً فوق العشب مع الآخرين بجوار برميل البيرة. كانوا جميعاً يلهثون.

حينما تذوقوا البيرة مرة أخرى، صاح باليتير: "هيا بنا، لنرقص رقصة أخرى!".

كانت رقصة البولكا هذه المرة: أخذ باليتير الفتاة ذاتها ورقص بشكل جامح، ضمها إليه بعنف ورقص خارج الدائرة وأسقطها حيث سقط كلاهما أرضاً وسقط هو فوق جسدها الناعم وشعر باهتزاز جسدها وهي تضحك بينما أخذ هو يقبلها مئات القبلات حول عنقها الأبيض وخذها الوردي. وقفا مرة أخرى على نحو مربك وقد بدا أنها لا تتوقف عن الضحك، مما جعلهم جميعاً يضحكون كثيراً حتى إنهم توقفوا عن الشرب. هنا نفخ في بوق على مسافة قريبة؛ كانت تلك إشارة على انتهاء وقت الراحة. تناولوا المناجل والمكابس دون حماس وقاموا للعمل مرة أخرى.

صاحوا ببعض التعليقات المضحكة لباليستير وفرانسو، اللذين عادا إلى طريقهما مرة أخرى تاركين البرميل الخشبي.

سار الصديقان سوياً، يتحدثان معاً، لكن دار الراعية ما زالت بعيدة، أراد فرانسو أن يستريح قليلاً؛ كان متعباً ويتصبب عرقاً فألقى بجسده الثقيل فوق العشب بجوار جدول ماء، أغمض عينيه وغطّ في النوم سريعاً وبدأ في الشخير مثل الخنزير. جلس باليستير بجواره، أشعل غليونه وأخذ يحدق في حقول الذرة وطائر القبرة الذي يطير مرتفعاً. أشعل باليستير غليوناً آخر وبما أن فرانسو لم يحرك ساكناً غطّ في نوم عميق هو الآخر. كان سرب من الحشرات يحوم حول وعاء العسل الموضوع بينهما. كانا نائمين وخلفهما شجرة بلوط ضخمة والجو من حولهما ينتفض من شدة الحرارة.

حينما استيقظ باليستير، كان وعاء العسل مقلوباً والشمس تغرق في خط سحابة فضية. استيقظ فرانسو بعد قليل وقال وهو يتنأب: "هذا أعطاني طاقة جيدة!".

ضحكا على العسل المسكوب ثم صمتا من أجل جمال المساء. اختفى الضوء بشكل ساحر، بدت السماء قزحية اللون، مثل صدفة لؤلؤة المحيط. وقفا يتأملان الليل وهو يزحف ويغطي حقول الذرة ويلقي بضياءه القرمزي فوق كل ثمرة من ثمار الذرة. فاحت رائحة من الحقول القريبة، وانجرف الضباب فوق جداول الماء عبر الطرق الجافة مثل الرماد الذهبي.

عادا إلى المنزل. "سوف آخذ غداً وعاء عسل آخر لدار الرعاية".  
توجه فرانسو لطاحونته وباليتير للنهر.

التقى في طريقه طفلة تحمل شنطة دقيق إلى المنزل فوق  
عربة يدوية. أعطاها وعاء العسل، فسارعت في طريقها خجلاً من  
دون أن تقول أي شيء.

ثم رأى عربة تسير محملة بالذرة؛ وتجلس فوقها امرأة ممتلئة،  
ترضع طفلها.

انتهى النهار واخترق ضوء القمر السماء الخضراء. ظهر في  
البعد ثوران ضخمان عكس اتجاه الضوء؛ لا يزالان يحرثان الأرض  
الداكنة والمزارع يمشي بتثاقل من خلفهما. انعكس ضوء أزرق  
فوق جسديهما الأسودين وجلد ظهورهما يتحرك للأعلى والأسفل  
في طيات سميقة مع حركتهما. يقذفان رأسهيهما للأمام والخلف  
وينفث أنفاهما البخار.

استكمل الفلاح عمله وحرث أخدوداً آخر. لمع محراثه باللون  
الأبيض البراق، بينما الثوران الضخمان يجريان ببطء عبر التربة  
التي أصبحت رطبة مفتوحة ولامعة، مما أدى إلى رائحة صحية  
وشيء من بخار رقيق.

باتت السماء أكثر ظلمة، وازداد الهلال حدة وصارت النجوم  
أكثر بريقاً.

راقب باليتير الحيوانات الكادحة حتى اختفت. فقد تأثر بهما،

عندما خطا داخل القارب، دنا أحدهما منه في ظل الظلام، مما جعله يرتعش.

انتهى النهار وبات كل شيء مظلمًا عدا المياه، ما زالت مضيئة والقش ينجرف مع التيار.

تردد هذا السلام الرائع مع أصوات المزارعين وهم ينشدون في طريق عودتهم لمنازلهم. شعرت عينا باليتير بألم الدموع حين تعجب قائلاً: "لا! بركة الله لم تمت بعد! هذا غير صحيح! لقد رأيت الدليل اليوم!".

## الفصل الرابع عشر

### مفاجأة سارة

كان صباح يوم أحد حار وبيارد المهرة البيضاء تسبح في النهر؛ تلهو كأنها طفلة، تصهل وتنثر المياه حتى اهتز الماء الأخضر وتفرق شعاع الشمس.

وقف باليتير يشاهدها في سعادة، ثم في النهاية قفز هو الآخر بكامل هندامه في الماء، أخذ يسبح حتى وصل إليها وتسلقها حتى امتطى ظهرها العريض. جلس فوقها كأنه يجلس فوق فراش، ترك بيارد تذهب في طريقها ولم يسيطر عليها. على هذا النحو هو يسبح ويمتطيها، ينظر إلى الأراضي المشبعة بحرارة الشمس القاسية وتهتز من شدة الحرارة. صفوف من الحزم الصفراء ممتدة على كل الجوانب، لم يتحرك شيء سوى طائر الذعرة، لم يظهر أي إنسان في المشهد.

مشهد السلام المطلق.

فجأة قاطع هذا السكون الحار صوت أجراس الدير الضخمة، رن صوتها العالي في الهواء الدافئ. جاءت شارلوت من الحديقة في كامل أناقتها، ترتدي ساتان أسود لامع مع نقط باهتة، أكمام كبيرة وتنورة واسعة؛ ومجموعة من الريش المتيبس فوق قبعتها

السوداء الجديدة المستديرة، مع كرات صفراء زاهية. كانت تحمل  
دلوًا أخضر صغيرًا، لونه أحمر من الداخل يحتوي على كعك  
من الكمثرى والخوخ والمشمش، وزجاجة بييرة تطل منه. بدت  
سعيدة جدًا وصاحت تخاطب باليتير:

"مرحبًا يا ولدي الصغير، أنا زاهبة! بلغ تحياتي لماريكا  
وأخبرها أنني سوف أكون موجودة يوم الأحد! سوف أصلي كثيرًا  
لكما لكي تعيشا سويًا في سعادة!".

صاح باليتير: "لماذا؟ أنا لا أعتد على سعادة تجلبينها أنت  
لي، أنا سوف أصنع السعادة بنفسني!".

أجابت بتلقائية: "سوف أصلي لكما بالتساوي، سوف أصلي  
كيفما يحلو لي!".

ثم استدارت بسرعة وسارت مبتعدة متوجهة للكنيسة دون  
أن تنظر خلفها؛ كانت تذهب لتلحق بالموكب الذي يتحرك سيرًا  
متوجهًا إلى شيربنهوفل.

كان يُنظر إليها على أنها بطلة، لأن هذه ستكون المرة الخامسة  
والعشرين على التوالي لها لتقوم بهذا الحج الشهير. لهذا السبب  
كانت تستمتع بالفضل الكبير المتمثل في وضع صورة المعجزة  
فوق رأسها، تهللت أساريرها وقفز قلبها من السعادة.

قال باليتير محدثًا بيارد: "نحن الآن زاهبان لرؤية ماريكا، لكن

لنأكل شيئاً أولاً".

ترك باليتير ظهر الفرس وسبح للضفة. تدفقت المياه من بنطاله كأنه مضخة ماء؛ عبر الحديقة لكنه توقف عند منظر الزهور ورائحتها. كان هناك المئات منها، كبيرة في حجم قبضة اليد، تتفتح مثل الجليد، مثل النبيذ الأحمر، مثل بزوغ الفجر، مثل الزعفران المغسول في الحليب. من كان يستطيع أن يحصي زهور البانسيه أو الزهور المخملية الداكنة أو الزهرة ثلاثية الألوان الساحرة التي تنقش في السجاد القيم؟ حول التل الصغير حيث توجد طاحونة الهواء، وجد زهور الآذريون الصفراء الفاقعة التي تبهر العين والنافورة الصغيرة تقف وسط طبقة سميكة من المسك تقذف قطراتها اللؤلؤية. بدا العشب الياباني في البعد كأنه ألعاب نارية ملونة، ثم زهور السوسن بلونها الأصفر الفاتح، وفوق كل هذا ما لا يمكن السهو عنه أبداً ويتفوق عليهم جميعاً زهور الكبوسين في طبقات سميكة بلونها الأحمر والبرتقالي الفاخر تتباين مع الحائط الأبيض في الخلفية وتلتف حول أشجار الفاكهة. كانوا مثل اللهب الذي ينبثق من الأرض!

كان هذا التوهج المتحمس للحياة الجميلة في كل الأنحاء. كانت أجمل من أن يتخيلها الإنسان؛ والروائح السكرية تجعل الروح البشرية تفقد الوعي من السعادة! لكن هنا قد انتهت هذه المتعة.

كانت أكثر مما يتحمل باليتير، تتمم بمرارة:

"فقط الشخص الغبي الذي قد يشناق للجنة وهو يستطيع

الحصول على مثل هذا البهاء!".

ذهب ليتناول طعامًا وعاد يحمل مزمار القربة؛ كانت هذه هي أفضل آلة يستطيع أن يعبر بها عن مشاعره.

سبح عبر النهر وامتطى الفرس وسار بإيقاع خطوات القدم عبر حقول الذرة الجافة. جففت الشمس ملابسه بينما هو يعزف على القربة وينشد أغانيه ويفكر في ماريكا.

ارتفع صوت الضجيج من حوله وأتى العديد من الفلاحين ليستمعوا إليه.

خرج طائر اللقلق من الخندق وطار أمامه محدثًا ضجيجًا. صاح باليتير: "بيتر!". عرفه الطائر الضخم على التو وحام حوله في دوائر واسعة. انسابت قدماه بحرية، ولمع جناحيه الأبيض والأسود تحت ضوء الشمس وكأنهما قد تم غسلهما حديثًا. من حين لآخر يندفع الطائر الضخم للأمام، يميل على جانب واحد، وأحد الجناحين يتدلى ثم يرتفع ويترك نفسه لينجرف للأسفل مرة أخرى دون أي رفرقة. ظل يلعب في الهواء ويحافظ على سرعته لتتماشى مع الفرس.

كانت طواحين الهواء تقف ساكنة، وعلى جانب الطريق وضع محراث مقلوب. كانت الحقول في راحة. على طول الممرات الضيقة، كان الفلاحون في قمصانهم الزرقاء، والنساء في عباءتهن البيضاء يسرون على طول الممرات الضيقة في طريقهم إلى كنيسة الأبريشية الصغيرة التي كانت تدق أجراسها.

من حين لآخر تظهر دراجة بعيداً في الطريق.

طافت موسيقى القربة فوق الحقول الساكنة وكأنها أسراب نحل قد تعلمت الغناء. مر بجوار بساتين مزهرة حيث فاحت منها رائحة تفاح زكية. قد انحنى بعضها محملة بثماره الحمراء والخضراء وكان يجب أن يتم دعمها للأعلى. أشجار الكمثرى الطويلة أصبحت بنية اللون بعد أن امتلأت بالعديد من الثمار. ذاب قلبه من روعة المنظر، وقال باليتير مخاطباً الشمس:

"قم بعملك، شعاع الشمس، تنضج المحصول العذب لليوم الذي تحصل فيه روعي على يومها المقدس!".

احتسى بعضاً من البيرة في حانة وحصلت بيارد عل حفنة من التبغ. رائحة حساء يوم الأحد الزكية انبعثت من المطبخ. طلب باليتير صحناً منه وبمجرد حصوله عليه؛ بيتر، طائر اللقلق، الذي كان يحلق بجواره طوال الطريق وقف في المدخل يتوسل! أطعمه باليتير بعض قطع اللحم ثم حلق بيتر بعيداً في الهواء الأزرق الدافئ وترك نفسه ليطفو فوقه. وقف باليتير وزوجة صاحب الحانة الشابة يشاهدانه ويضحكان بشدة.

عاد باليتير للداخل، شرب كأساً أخرى من البيرة وأعطى بيارد واحدة. بينما انحنى الخادمة لتلتقط سنتاً رأى باليتير عنقها الخمري وقبلها قبلة مبللة فوقها. استدارت الفتاة لتلطمه، لكنه كان قد امتطى جواده بالفعل ويحرك سوطه ويضحك عليها.

ارتفع رماد الطريق عالياً. انعكس بريق شعاع الشمس على

ظهر الفرس مثل الفضة كما أضفت كل شجرة يمران بجوارها  
ظلاً أزرق فوقه.

نامت الكلاب بجوار بيوتها وصياح الديوك لاحق بعضه بعضاً  
من المزارع المختلفة.

إنها الظهيرة الآن، والحقول الخاوية تكاد تشتعل من شدة  
الحرارة، لا توجد غيمة واحدة في السماء الزرقاء الصافية. سمع  
صوت قرع الطبول من بعيد.

وصل باليتير لطاحونة هواء. العجلة الضخمة كانت تدور ببطء  
من ثقل وزن الماء الذي يدور ثم ينفجر مفتوحاً مثل الفضة  
المغلقة وتدفع الرغوة سريعاً أسفل جدول الماء العريض. كم هو  
منعش، رائحة الماء النقي والأشجار الظليلة حول المنزل! نزل  
من فوق الفرس وجعل الفرس يشرب، ثم استلقى ممدداً فوق  
العشب ليدخل غليوناً وينظر حوله بينما يبارد تشم في الجوار  
لتبحث عن البرسيم. ضوء الحقول بدا مضاعفاً عند رؤيته من  
ظل الأشجار الظليلة الوارفة. الصوت الوحيد كان صفير الجنادب  
والمياه المتدفقة، لا طائر ولا ورقة شجر تتحرك.

حول المنزل الوحيد وشجرة الجوز بجواره؛ وقفت الأبقار تجتر  
وعند البوابة وقفت مهرة متدلّية الرأس.

خرجت حمامة من برج الحمام وتبخترت قليلاً ثم دخلت مرة  
أخرى. إحدى بلاطات السقف المطلية لمعت كأنها شعاع شمس  
مكسور.

ما زالت الطبول تدق بعيداً وأصبحت أقرب ثم صمتت؛ ثم بدأت موسيقى الكونسرتينا وهممة أصوات تغني.

صاح باليتير: "اللعنة، ما هذا؟ إنه الموكب!".

قفز فوق جواده وخبأ في اتجاه الموكب. وصل الطريق السريع الأبيض وهو يتصبب عرقاً، امتدت الحقول أمامه وطار في الأفق أمامه بالون أصفر في الجو الحار الأزرق.

نظر باليتير في اتجاه الطريق، هنالك وجد سحابة من الغبار المتلألئ، ها قد حضر الموكب، وتوجه باليتير ليقابله.

حين تتوقف الموسيقى يصيح نحو ألف شخص "أفي ماريا"، يتقدم الموكب صليب والقسيسون ومساعدوهم بردائهم الأحمر. الإيقاع الرتيب بدا وكأنه ينبعث من الأرض. تحول الجميع، الرجال والنساء والفلاحون والراهبات والأطفال إلى اللون الأبيض جراء الرماد المتناثر أمامهم من جراء خطوات أقدامهم المتعبة. امتلأت وجوههم الحمراء بالعرق الأسود، ربط الكثير منهم مناديلهم المنقوعة في الماء المقدس حول جباههم. بعضهم ترك العرق يتصبب ويلعقونه بألسنتهم.

خلع الرجال معاطفهم وأرخی الرجال والنساء ياقة قمصانهم. احتسى بعضهم من زجاجات البيرة الدافئة وظلوا يبصقون وانحنى البعض الآخر ليشرب من ماء الجدول البارد على جانب الطريق.

أكثرهم مثابرة وتديناً كانوا في المقدمة وواصلوا صلاتهم؛ تقلص التعب تدريجياً وبدأت الثرثرة الفارغة تسمع في الخلف. الذين لم يستطيعوا مواكبة الحشد ساروا على جانب الطريق في الرمال الناعمة في سحابة من الغبار، أو انتظروا الحافلة التي تسير خلفهم في تأرجح.

كان الموكب غير منظم. سار شاب يبدو أنه لم يحلق منذ فترة متسكعاً في ظل مظلة راهبة وامرأة متسخة وطفلها البائس جنباً إلى جنب مع أحد المواطنين الأثرياء. شاب هزيل شاحب الوجه محمول في عربة يدوية وجاء خلفه رجال يستندون إلى عكاز، ونساء مع أطفال مرضى يبكون ورجل كفيف.

يا له من مشهد، آلاف الأشخاص يسرون على الأقدام في يوم صيفي حار، ملابسهم مليئة بالغبار، أطفال يصرخون، أصوات ثرثرة، أرجلهم المنهكة ورائحة الأجساد الهزيلة المريضة المتعركة! كان شيئاً استثنائياً وغريباً مثل اللحم.

بهذه الطريقة، تحت هذه السماء الهائلة الخالية إلا من بالون أصفر واحد، لا يزال أمامهم أربع ساعات من السير للذهاب عبر البلاد الحارة كأنها فرن الخباز؛ كل هذا فقط لينحنوا أخيراً أمام الصورة السوداء الصغيرة المعجزة للسيدة شيربنهوفل.

"حسناً حسناً!" تعجب باليتير متأثراً حتى إن الدموع ترقرت في عينيه بينما هو ينظر إلى الحشد المتمائل المليء بالإيمان والحماسة.

وفجأة رأى شارلوت تبتسم له في سعادة وسط الراهبات  
والمترهبنين ثم خف حماسه؛ هنا تذكر فجأة جميع الأشخاص  
الذين أخبرته عنهم ولماذا يذهبون إلى هناك.

فيما بينهم زوجة الطبيب التي تصلي حتى تزيد ممارسته،  
ومالك "الفيل النحاسي" لأن زوجته حامل الآن لتنجب له مولوداً  
بصحة جيدة؛ أرنولد ف. سيكيم، صانع الساعات حيث إن ابنه  
الثاني قد يكون غير مؤهل للخدمة العسكرية؛ وابنه الآخر، الذي  
كان ضابط صف بالفعل، قد يصبح ملازماً، لكن والده أراد أن  
يتولى الابن الأكبر العمل. كما كان هناك أيضاً مزارعون يتمنون  
الأمطار من أجل البطاطس، الطلاب الصغار الذين سوف ينصبون،  
إنها قد لا تمطر.... إلخ.

هؤلاء فقط البعض الذي كان يعرفه، ماذا عن الآخرين؟ صاح  
باليثير مخاطباً راهبة هزيلة:  
"أيتها الراهبة النحيلة!"

لم ترفع المترهنة عينيها، لكن وجهها أصبح شاحباً مثل  
الورقة. عندما مروا جميعاً متمم باليثير: "أين هؤلاء الذين يصلون  
كما دعاهم رايسبروك؟".

ثم ردد:

"هذا فقط لفهم الله حقاً - لعبادته وحبه - ليس من أجل  
مكاسبنا الخاصة - وليس من أجل تعظيمنا أو خلاصنا- أو ما قد

يُمنح لنا - ولكن فقط من أجله - ولأجل مجده الأبدي نحبه - هذا فقط هو الحب المثالي - لأنه بهذه الطريقة يمكننا أن نكون مع الله - ونعيش فيه كما يعيش هو فينا".

وأضاف:

"من يصلي خلاف ذلك مثله كمثل الطفل المنقاد بسلاسل".

ثم امتطى جواده ومر بجوار القرى والنجوع، بعد حين رأى برج بلدة ماريكا والأزرق يعلو فوق الأشجار.

خفق قلبه واستحث خطوات الفرس.

هنالك يقف منزلها، في الطرف الآخر من البلدة. ثم بدأ يعزف لحنًا وسار في الممر المؤدي للمنزل الأبيض الصغير ليفاجئها ويعلن عن حضوره. جاء فلاح ونظر من فوق السياج وركض طفلان صغيران خلف الفرس والموسيقى، لكن منزل ماريكا كان مغلقًا.

نزل باليتير من فوق الجواد وذهب لينظر من جانب الحديقة. وجد العم هاري نائمًا فوق كرسي في الظل، ولا يوجد أي مظهر آخر من مظاهر الحياة.

أيقظ المزارع.

"أين ذهبت حبيبتي؟".

"مرحبًا، أنت هنا؟". أجاب المزارع وهو يتثاءب: "هي ذهبت مع أبناء عمومتها لأنهم سيقون هنا قليلًا، يتنزهون بجوار

المستنقع. الآن هيا بنا لنحتسي شيئاً".

صاح باليتير: "لا، أنا في شدة الاشتياق لرؤية ماريكا؛ سوف أذهب للبحث عنها وأعود مرة أخرى". ثم انطلق.

امتطى جواده وسار في الممرات الجانبية حيث كان كل شيء ساخنًا وخاليًا، ثم بجانب غابة التنوب، وبعدها فوق الأراضي المفتوحة حيث نمت شجيرات من نبات الخلنج والعرعر الأصفر. توجه عبر غابات طويلة من أشجار التنوب التي أدت إلى دوران واحد مع الممر يمين المستنقع إلى بريق الأزهار الأرجواني. المدينة ممتدة بشكل لانهائي مثل البحر الواسع، تنشر غروب الشمس الأرجواني -اللون الأرجواني المشتعل بشعاع الشمس- بينما تأخذ شكل قبة زرقاء في الأعلى، كان الصمت يخيم على كل شيء عدا أصوات طنين النحل.

وقف باليتير مسحورًا بالمنظر. بدا وكأن قلبه مفتوح لا يخفق بجانب حياة الأرض وقد أصبح واعيًا بروح كينونته. شعر وكأنه عملاق مساوٍ للأرض؛ ثم تمتم قائلًا:

"إن روح الإنسان ليست تافهة!".

استكمل مسيرته ولم يستطع أن يصدق عينيه. الأرجواني! يا له من لون! لم يرَ نهاية لهذا اللون الأرجواني الملكي!

لا يوجد أي كائن حي في أراضي المستنقع. سار بها كلها، سرعان ما لفت نظره بعض أشجار البتولا وبريق بركة فضية

بجوارها. لا يوجد تيار مقاوم، لذلك انطلق نحوه وفجأة ظهر اثنا عشر طائر البلسون ينطلقون من ضفة الماء، يرفرفون بعضهم ضد بعض، أبيض ورمادي وأرجلهم الحمراء تتدلى؛ صورة يابانية حقيقية. ثم على طول الضفة الفضية للبركة، كان بإمكانه رؤية ثلاثة مخلوقات عارية تلعب في الماء. وقف في ركابه ونظر إلى الأمام.

نعم! كان هناك ثلاثة مخلوقات عارية تقفز في الماء، تجري للخارج مرة أخرى وينثرون الماء بعضهم على بعض.  
اندفع باليتير قائلاً: "ماذا! هذه مارिका مع أبناء عمومتها! انتظر لحظة!".

كان سعيداً جداً! كاد أن يفقد صوابه. يا لها من مفاجأة! سقط في السرج سريعاً وانطلق للأمام كالسهم.

نظر مرة أخرى. نعم، كانوا فتيات، كان يستطيع أن يميزهم من أشكال أجسادهن. اندفع سريعاً، علت ثلاث صرخات من المفاجأة وركضت ثلاث فتيات عاريات بعيداً، توقفت إحداهن لتلتقط ملابسها التي سقطت منها وركضت مرة أخرى مسرعة.

فور أن أستطاع العداء باليتير أن يميز مارिका صاح عالياً:  
"ماريكا! ماريكا!".

لكنها ركضت مسرعة قدر استطاعتها، سقطت، ثم لحقت بالأخريات. اقترب باليتير، سمع صرخاتهن الخائفة الضاحكة؛

نظر في إعجاب لأجسادهن الوردية الجميلة.

الفتاتان ذواتا الشعر المستقيم التفتتا لاتجاه آخر وبقيت ماريكا وحدها. قطع باليتير طريقها؛ استطاع أن يرى نهدها الناعم واقترب ليستمتع برؤيتها. يا لها من رؤية! فخذيتها الرشيقيين، بشرتها الوردية التي لا تزال مبللة ولامعة وشعرها يتدلى مثل الوشاح من خلفها!

صاح باليتير "أوه ماريكا!".

لكنها انكملت إلى الخلف وهي ترتجف: "دعني، من فضلك دعني أجلب ملابسني!".

لكنه كان في لحظة جموح ليعي أي شيء. كم كان جميلاً أن ينظر إلى جسد محبوبته الجميل، الفتاة التي تعلق روحه بها، بين نبات الخلنج الأرجواني!

وقفت ساكنة، متعبة، تنكمش لتجنب الخطر، تشبك يديها أمام فخذيتها الملتصقين، وقد احمرت من الخجل وتنظر إليه في توسل "دعني أرتدي ملابسني!".

"أنت جميلة جداً للنظر إليك، حبيبتي". وانحنى باليتير وحملها ووضعها فوق حصانه وهو في غاية السعادة بحبه الشديد لها ولتمكنه من لمس الجسد العاري الجميل. قبلها مراراً وتكراراً، لكنها قد أغلقت عينيها ولم تنظر للأعلى ولا تزال يداها مشدودتين على أطرافها، وانهمرت الدموع من عينيها.

"ما هذا؟ دموع؟". قال باليتير: "دموع؟ لماذا؟ حسناً سوف نحضر الملابس". وأدار رأس الحصان عائداً.

اطمأنت ونظرت إليه في سعادة وعرفان. قبلها قبلة طويلة بطيئة، أَلقت هي بذراعيها الناعمتين حول عنقه ورأسها فوق كتفه.

لاحقاً كانت الفتيات الثلاث فوق الحصان، وسار باليتير أمامهم يعزف الموسيقى ويغنون جميعاً.

جلسوا جميعاً للعشاء؛ لحم خنزير مقلي وخبز المزرعة والقهوة اللذيذة. لم يتم ذكر أي شيء للأهل عن موضوع الاستحمام، تم تحديد موعد الزفاف ليكون في 21 سبتمبر، أغنى شهور السنة، مجد الحياة في الأرض!

## الفصل الخامس عشر

### الأمطار

في اليوم التالي، بعد عاصفة رعديّة في المساء، هطلت الأمطار. نزلت في خطوط سميكة مائلة تخبط الأرض بشدة مثل السيوف. حُجِب الأفق بستائر زرقاء من الأمطار التي استمرت تنزلق فوق الأرض.

جلس باليتير يدخن غليونه تحت ظل العربة اليدوية، يستمع إلى الأمطار وكأنها قصة من كتاب قديم. لقد كان تغييرًا منعشًا بعد الحرارة الشبيهة بحرارة الفرن، أيقظت الأخضر الناضر من التربة. اندفع الماء بقوة فوق السطح إلى قنوات الصرف وجعلها تفيض وتنثر الماء محدثةً فجوات في الأرض. كانت تحدث ضجيجًا عاليًا في الدلاء وتنثر المياه في برميل الماء الكبير؛ تدفقت بجوار الأشجار وسقطت القطرات في النهر.

بدا وكأن الأرض كلها قد روت عطشها مع تنهيدات الارتياح. كان الإسطبل مفتوحًا على مصراعيه وفاحت رائحة الروث. جلس باليتير فوق مقبض العربة اليدوية يشاهد قطرات الماء الكبيرة تسقط فوق السطح وترتد كأنها عرائس خشبية وتذوب في فقاعات.

سقطت الأمطار في قلبه وملأته بالاطمئنان؛ نظر في الأفق الأزرق، النهر العالي، القطرات التي تسقط فوق الحديقة التي بدورها تبعث رائحة الزهور الزكية؛ شاهد دخان غليونه الأزرق وهو يختفي تحت الأمطار وقد انتابه إحساس مألوف بالرفاهية، يجب أن يجد تعبيراً لهذا، هو جميل ورائع جداً يجب أن لا يهدر. أراد أن تدخل الأمطار إلى أعماق قلبه.

قفز داخل القارب، ذلك القارب القديم الراقد هناك يحلم في سكون ويقف ألبياً ضد التيار.

الأمطار لا تزال تصب في النهر في وتيرة رتيبة. أبهره الماء الجاري، بدأ يجدف بقوة وملابسه مبتلة حتى وصل الماء إلى جسده، تناثر الماء فوق القارب وهو يغني بصوت عالٍ.

يا لها من مباركة، كل ذلك الترف الندي المتناثر على الأرض يمثل هذه الهبة المهمة، هدية من العملاق! لن تستطيع الأشجار امتصاص كل هذا الكم الهائل من الأمطار؛ كان العشب مستوياً، وجرى الماء من غدير الماء إلى جوف الأرض. إن الشعور بهذا الكم الهائل من الماء فوق جسده هو متعة غامرة. غمرته المياه لكنه استمر بالغناء.

قال باليتير: "إلهي أنت تتوج السنة بخيراتك والخصوبة تتساقط في طريقك". ورفع رأسه وترك الأمطار تسقط على وجهه تجعله أحمر، وغمرت كتفيه وصدره.

"أيتها الأمطار، تغشيني بستائرِكَ، أنت أخت الشمس"!.

ظل يدفع النهر المتدفق عبر الحقول المغمورة، كان ينظر إلى  
المدينة المبتلة وهو يجدف ويغني:

"إنها تنهمر للأرض

الأرض أصبحت خضراء مرة أخرى

والناس ينظرون من النوافذ

ليباركوا سقوط أول المطر".

لم يكن هناك في هذا المشهد المائي العريض أي أثر لإنسان،  
عدا صياد واحد ينكمش في معطف جلدي، ساكناً وقد علقت  
عيناه بفليضة صنارته الحمراء الصغيرة.

جلس سرب السنونو على طول ضفة الماء؛ الأبقار في المراعي  
تتحرك للأعلى وللأسفل والبخار يتصاعد من أجسادهم الحارة.  
كان راعي بقر يصفر أسفل سقيفة. كانت الحقول المبللة خضراء  
ومبهجة ورائحة صافية تنبثق من الأرض.

كان تآرجح باليتير مع اندفاع الأمطار مصدر سعادته، ودفع  
القارب بقوة. الله يعلم إلى أين يجب أن يصل!

لكن في العبارة، حيث تتقاطع الطرق السريعة مع نهر "نت"،  
ناداه شخص ما باسمه. كان هذا فرانسو ينظر من عربة الطحان،  
يصيح ويلوح إليه. رد عليه باليتير، وها قد جاء الصديق الممتلئ  
وهو يهرول ويضحك تحت المطر. صعد إلى القارب وجلس

واستمروا في السير.

غنى باليتير: "الأمطار تجعلني مبتلاً".

ورد فرانسو: "وتجعلني أنا جافاً".

صاح باليتير: "فلتدخل الكابينة إذا"، تمايل فرانسو عبر الفتحة ولصق وجهه الأحمر مثل باخوس.

أخبره باليتير أن موعد الزفاف أصبح الحادي والعشرين.

قال فرانسو: "يجب أن نشرب نخب هذا. هيا بنا لنذهب للحانة".

رد باليتير: "لا، دعنا نشرب في المنزل".

أشعل فرانسو غليونه قائلاً: "هيا بنا لنذهب للمنزل. لقد أخبرتك أن حلقي جاف!".

ثم أدارا القارب عندما صاح فرانسو: "هنالك الموكب!".

ها هو الموكب تحت الأمطار الغزيرة، يزحف في طريقه تحت المظلات في اضطراب للأسف، المسيرة تعتبر نصف المعتاد، المشاركون غير منتظمين في صفوفهم، لا يوجد موسيقى أو طبول، لا يقوده القساوسة وفي المؤخرة تأتي الحافلات الصفراء وعربة أو اثنتان. في النهاية اتخذ القساوسة ملجأً وامتلأت الحافلات بالناس؛ الأسطح كانت مكتظة بالناس في ظل الأمطار المتدفقة بمظلات أو من دونها؛ ها هي شارلوت، البطلة.

رأها باليتير وتنورتها مكدسة حتى ركبتها، لتكشف ساقها الممتلئتين؛ كانت تسير وحدها تحت مظلتها الأرجوانية. ناداها باليتير، ركضت نحوه وهي تنوح قائلة:

"يا فتاي، عد إلى المنزل سريعًا وأعد القهوة، إني أتضور جوعًا".

"هيا اصعدي إلى القارب".

فأجابت: "لا، لست أنا، أنا أقوم بكل شيء سيرًا على الأقدام، سبع ساعات في المطر؛ كأنها تمطر قططًا وكلابًا!".

ثم عادت للطريق لتأخذ مكانها وسط المتعبدين. ضحك باليتير وفرانسو عليها، لكنهما عادا كما كانا، باليتير يستمع إلى الأمطار وعاد فرانسو ليدخن وهو ينظر إلى الأرض الزرقاء الممتدة.

عندما دخلا المنزل غيرًا ملبسهما. بدأ فرانسو في إعداد القهوة، وضع باليتير الطاولة تحت السقف الزجاجي بجوار الباب، حتى يتمكن من الاستماع إلى صوت دقات قطرات المطر؛ تحت السقف وقبالة المنزل شقت نبتة الكرمة طريقها ونشرت العديد من الأوراق والفاكهة. يا له من كم! أكثر من مئة حفنة من العنب في كبر حجم بيضة الحمام. كانت ضخمة! كانت زينة منزل باليتير، أفضل قطعة أثاث لديه. المزيد من الأيام القليلة وسوف تروي نضارتهم فمه الضمآن! يا لها من فرحة! الخمر التي تبهج القلب وتسعد الروح.

كانت شجرة قوية مترفة، رائعة بالتأكيد، حينما تشرق الشمس فوقها تضيء الأوراق الضخمة وتصنع إطاراً ذهبياً رائعاً حول العناقيد الأرجوانية.

رائحة القهوة الزكية عبأت الغرفة؛ حينما وضع الطعام؛ جبن، كعكة، مربى التفاح، حضرت شارلوت وهي تقطر مثل المصفاة، تتذمر بصوت عالٍ، ألقت بنفسها فوق كرسي، بدأت ترثي أفضل فساتينها الذي قد تدمر ولم يعد يصلح سوى لتنام فوقه الكلاب!

قال باليتير: "لا تتحدثي عنه أكثر من هذا، كيف سار الموكب؟".  
أجابت شارلوت: "حسناً حسناً، يا له من هطول للأمطار!".  
واستطردت: "الأغلبية ينتظرون حتى تتوقف. الفرقة الموسيقية لم تذهب معنا واستقلوا القطار. بعض من السيدات تشاجرن ليركبن الحافلات. أما أنا كانت ملابسني ملتصقة بي كالشمع. السير تحت المطر المنهمر لسبع ساعات! يا إلهي!".

ذهبت لتغيير ملابسها وعادت مرتدية ملابس العمل.

"دعينا نرى ماذا أحضرت".

جلبت دلوها الصغير وأخرجت كرة زجاجية مع صورة للعدراء بداخلها.

صاحت: "انظر لهذا، إنها تمطر ثلجاً". ثم قلبت الكرة وحركتها فتدقق مسحوق أبيض حول الصورة".

قال باليتير: "هذا ليس ثلجًا، إنه نشارة الخشب!".

هددته شارلوت قائلة: "أمسك عليك لسانك، أو لن ترى شيئاً من كل هذا، انظر لهذه أيها الوغد. سيد فرانسو انظر لهذا". ثم قامت بفتح صندوق وأخرجت شيئاً نحاسياً؛ إنه جرس تعلوه صورة للعدراء. ضغطت شارلوت بإصبعها فوق الصورة، بحيث ارتفعت قدمها لأعلى ثم ارتطمت بالمعدن ودق مثل جرس الكنيسة.

"ضع هذا فوق الطاولة؛ استخدمه عندما تحتاجني".

قال باليتير: "نعم، وأنت ستعتقدين أن الأم المقدسة تناديك!".

قالت شارلوت: "كف عن هذا، الآن ها هي مادونا تستطيعون رؤيتها في الظلام، تعاليا وانظرا". وضعت شكلاً من الجص للعدراء في الخزانة وطلبت منهم أن ينظروا من خلال ثقب المفتاح. نظرا، وكان حقيقياً، تلك الصورة الصغيرة المغطاة باللون الفسفوري، لمعت بالضوء الأخضر في الظلام.

صاحت شارلوت: "أليست جميلة، كافية لأن تجعلك تخاف في المساء، أليس كذلك؟".

"حسناً، إنهم بالفعل يصنعون أشياء غريبة هذه الآونة، أليس كذلك يا رجل؟".

أجاب باليتير: "نعم، عندما لا تستطيع الفتاة أن تلعب بالدمى، فهي تستطيع أن تلعب بالعدراء المقدسة".

هنا وبحركة واحدة أزال شارلوت كل ما كان فوق الطاولة

وأخذته معها لغرفتها وهي تقول:

"الآن لن تحصلوا على شيء ولن تلقوا نظرة أخرى على أي شيء".

جلس باليثير وفرانسو ليتناولوا الطعام؛ ثم جاءت شارلوت غاضبة وعابسة، لكنها عادت لطبيعتها أثناء الطعام وبدأت في الحديث عن مارिका.

مجرد ذكر مارिका تدفأ قلب باليثير؛ أخلى الطاولة وأخرج الخمر ليشرّب نخبها.

أسفل الكريمة التي سوف تتحول قريباً إلى خمر؛ شربا المشروب الأحمر في كؤوس من الكريستال ترن رنيناً حاداً عند لمسها.

استمتع فرانسو بالخمر الجيد، بمجرد أن ينهي كأسه يملأها مرة أخرى ويشربها على جرعة واحدة مثل الماء. شربت شارلوت الخمر البيضاء الحلوة وأحضرت زجاجة لنفسها. شرب باليثير بنفس قدر ما شربه فرانسو وغدا كلاهما يشربان ويتحدثان عن مارिका حتى شربا أربعة زجاجات ونصف الزجاجة، يدخان سيجاراً في الوقت نفسه. سرعان ما بدأ يزيغ نظرهما ويتلعثم كلامهما. ذهب شارلوت للتسوق، ثم شرب كل منهما زجاجة أخرى من الخمر الأحمر العتيق.

عندما حل المساء، قال باليثير:

"هيا بنا نذهب لنخبر القسيس!".

خرجا وهما يتعثران ويتمايلان واحداً خلف الآخر، سارا عبر وحل الأمطار، يضحكان دون أن يعرفا السبب. وجدا القسيس ما زال مشغولاً في صوبته الزجاجية لنبات الصبار. هذا الرجل الصالح يمتلك أندر الأنواع من هذه النباتات، كان يكرس جزءاً كبيراً من وقته لها ويحب أن يتحدث عنها.

أخبراه أن موعد الزفاف قد تحدد، وأحضر هو ثلاث زجاجات وراء برميل البيرة. كانت الشموع مضيئة، كان من الممكن أن يعزف القسيس لهم جزءاً من موسيقى بيتهوفن على آلة التشيلو، لكن يبدو أنهما لا يريدان أي موسيقى.

جلس باليتير وفرانسو وكلاهما مخمور، وبالرغم من ذلك استمرا بالشرب. بدأ باليتير يغني -يتمتم بكلماته- ثم يبدأ في التحدث وينسى ما كان يقول. ظل فرانسو يضحك طوال الوقت دون توقف، ثم صاح:

"هيا بنا نذهب الآن إلى الطاحونة ونتناول مشروباً، هيا بنا باليتير، هيا بنا يا أبت".

لكن القسيس كان لا يزال لديه بعض الأعمال ليقوم بها ولم يستطع الذهاب معهما. عبر باليتير وفرانسو فناء الدير، يتمايلان من جانب لآخر. حطم باليتير لوحاً زجاجياً وكان هناك دوي صوت التحطم في سكون الليل.

عبرا الطريق وذراعاها متشابكان، يغنيان بأعلى صوت،  
يتعثران تحت الأمطار التي ما زالت تهطل بشدة... حينما استيقظ  
باليستير في اليوم التالي في طاحونة فرانسو ورأى الغيوم العملاقة  
في الأفق، صاح: "أيتها الأرض التي لها ألف وجه، متى تستطيعين  
أن ترضيني؟"

## الفصل السادس عشر

### قرن الخيرات

جاء شهر سبتمبر أخيراً، الشهر ذو الجو البارد الصافي الذي يملأ الأشجار بالعبق الأزرق.

كان معتدلاً للغاية ولا يزال كما هو اليوم في الحقول؛ حيث كان العديد من الفلاحين يجمعون البطاطس. بين الحين والآخر يمر سرب من الإوز البري خلال ضوء الشمس الباهت وتكتلات من الغيوم الصغيرة البيضاء المعلقة في السماء الشرقية.

هنالك بجوار منزل باليتير، تم إرساء قارب مطلي حديثاً. برزت جوانبه المنتفخة اللامعة عاليًا فوق المياه، تم طلاؤه باللون الأخضر البراق والأبيض، بالإضافة إلى بعض المسحات الصفراء هنا وهناك أو نجمة حمراء؛ الأشرعة البيضاء غير معلقة بإحكام في الصاري وراية حمراء صغيرة ترفرف بالأعلى.

كان هذا القارب - ذو الألوان المتعددة - هو القارب الذي سوف يقوم باليتير بجولة زفافه فيه. كان يجب أن يمتلئ القارب بالفاكهة الغنية، من محصول السنة الوفير، وكان يجب أن يكون طعامهم الوحيد.

لم يسبق أن يكون المحصول غنيًا ووفيرًا هكذا! كان هذا ما يملأ

الأرض؛ مشهد للألوان الرائعة والأشجار تنحني من ثقل الثمار.  
إنها أغنى هبات الطبيعة، فضلها المقدس الذي امتص روح  
ودماء الأرض وتدفقت في صورة كنوز للبشرية!  
لقد تم الوفاء بعهد مايو الوردي الأبيض على نحو رائع، ها هي  
براعم بداية الربيع قد أثمرت.

الرؤية العطرة الرقيقة البيضاء التي غطت الأشجار بنعومة  
أصبحت الآن أشبه بالبساط الخصب المبهر المليء بالتفاح  
والكمثرى والمشمش والبطيخ والمكسرات والألوان الذهبية  
والقرمزية والأرجوانية، تمامًا كالحلم!

الحدائق كانت مثل الجنة، دون أي فاكهة محرمة؛ حيث توجد  
كل خيرات الحياة في انتظار الأيدي، ألوان غنية وحلوى مفيدة. يا  
لها من بركة! هذا شيء يستحق الصلاة والثناء!  
غمرت باليتير السعادة في هذا الوقت. فقد صوابه وأخذ يمرح  
كطائر الشحرور.

"الأرض تسقط جواهرها!"

كان يرتدي في قدميه جوربين، وارتدى أحد مآزر شارلوت  
القطنية الزرقاء؛ جواربه الحمراء كانت ملفتة في خضم اللون  
الأخضر الرمادي للحديقة.

تم حصاد كل شيء وأصبح جاهزاً للتحميل في القارب، كان

على باليتير أن يبدأ اليوم، ليكون مستعدًا غدًا من أجل الزفاف.  
نزل من الشجرة وهو مغطى بالطحالب الخضراء وفمه مملوء  
بالكمثرى ونادى شارلوت؛ التي كانت تقوم بقطف الجوز  
بالكسارة: "أسرعي!".

لكن شارلوت استكملت التكسير كأنها الشيطان في سانت  
دونستان، حتى تحطمت الفروع، طارت الأوراق في كل الاتجاهات،  
والجوز المقطوف يتساقط فوق الأرض كقطرات المطر.  
التفاح المحصود تم تجميعه في أرض التنظيف، رؤيته ملقى  
تحت أشعة الشمس الذهبية تسيل اللعاب.

قال باليتير في إعجاب: "التفاح في حجم قبضة اليد، أحمر  
قرمزي مجزع بالأصفر؛ جوهره أحمر. من كان ليظن أنه من  
الداخل أبيض اللون كالحليب؟".

أخذ واحدة ومسحها في كم قميصه حتى صارت تلمع كالزجاج.  
وتمتم قائلاً: "من المؤسف أكلها!". نظر إلى تجويف كفه  
الفارغ.

وعاد منادياً من جديد: "هيا شارلوت، اتركي البقية. لدينا كمُّ  
كافٍ من المكسرات، أحضريها جميعها إلى القارب".

ملأت شارلوت حقيبة قماشية بالتفاح، احتضنتها وحملتها  
بصعوبة إلى القارب؛ التفاح الأحمر انعكس على وجهها مثل  
مغيب الشمس القرمزي.

وبالمصادفة كان القسيس على ضفة النهر يقرأ صلواته،  
وصاح: "مرحبًا شارلوت، أحضري لي بعضًا منه!".

حاولت شارلوت أن تستدير، لكنها تعثرت وسقطت فوق الأرض  
وصاحت:

"يا إلهي! ماريا! تفاحي! تفاحي!". بينما التفاح الوردي  
يتدحرج بعيدًا أمام عينيها.

جاء القسيس على الفور ليساعدها في تجميعه، وباليتير يقف  
بالقرب منهم يضحك بصوت عالٍ حتى عم الصدى أرجاء المكان.  
ساعد القسيس بحمل السلة.

في هذه الأثناء ملأ باليتير نصف العربة اليدوية بالفاكهة، أخذ  
يكومها حتى تدحرجت مرة أخرى. انبهر القسيس بمنظر هذا  
الكم من الفاكهة. صفق بيديه وصاح: "انظر لهذا، فقط انظر  
لهذا، كان سليمان سيؤلف أغنية جيدة عنها!".

هذا كان صحيحًا بالتأكيد!

يا لها من روعة! إنه تل متكس بأفضل أنواع الفاكهة؛ العنب  
الأرجواني بأوراقه المحروقة من حرارة الشمس، يتخلله خوخ  
وردي وأصفر، والتفاح والبندق الأخضر والجوز والبطيخ الذهبي  
والكمثرى البرونزية والكستناء البني اللامع الطازج والبشملة  
جميعهم مختلطون ويتوهجون من بريق التفاح الأحمر!

متكدسة ومتدفقة في ثراء من الألوان وتنشر رائحة جميلة تكفي لتشفي المريض وتجعل الطيور تجن.

الحياة نفسها تقبع هناك، قربان للإله.

ليوباس -الكلب- جذب العربة الثقيلة بحرص إلى القارب. شارلوت والقسيس يسيران بجواره في سعادة.

غرف القارب صغيرة ومريحة، ستائر بيضاء ومزهريات أمام النوافذ الصغيرة، التي يمكن للمرء أن يرى من خلالها ما وراء الحقول.

كان الفراش هناك في الزاوية، أسفل إحدى النوافذ المستديرة، أعدته شارلوت بشكل جميل ولم تنس أن تعلق فوقه صليباً صغيراً مع سعفة نخيل.

عادت شارلوت مباشرة لإحضار المزيد من الفاكهة، بينما باليتير يجلس في طرف الطاولة وجلس القسيس معه. احتسى كأساً من الشيدام، ثم قال القسيس:

"إنها فكرة جيدة أن تقوم بجولة زفافك على متن قارب!".

أجاب باليتير: "نعم! ماذا كنت سأجد أفضل من هذا لنبتعد عنك أنت وشارلوت، لنكون وحدنا ونذوب بين ذراعي بعضنا؟ ها هو نخب قارب الزفاف!".

أحضرت شارلوت حمولة أخرى من الفاكهة وقيثارة اليهود الكونسرتينا وتبغ وأشياء أخرى. ثم كان عليهم جميعاً أن يتركوا

القارب لأن منسوب النهر كان يرتفع وكان على باليتير أن يرتدي  
ملابسه.

وصل فرانسو في الوقت نفسه تقريباً ومعه أشياءه مجمعة  
في منديل وكان يصيح ليتم اصطحابه عبر النهر؛ كان زاهباً مع  
باليتير للزفاف. شارلوت والقسيس سوف يذهبان في اليوم التالي  
بالعربة التي يجرها ليوباس.

شارلوت أقلت فرانسو بالقارب، وأخبرهم الرسام أن زوجته  
لن تستطيع الحضور، إذ إن أحد أطفالهم السبعة أسنانه تؤلمه،  
وقال:

"سوف نستطيع تدبر الأمر وحدنا، أليس كذلك؟".

انتهى اليوم بضباب أزرق وجاء المساء غامضاً وهادئاً وارتفع  
المد بثبات.

صاح باليتير: "سوف نتزوج!" وقام بفتح الشراع ودفع القارب  
بعيداً ليدخل في التيار وانجرف بأمان، وقد انعكس بوضوح في  
الماء.

"نحن نبحر لماريكا" صاح باليتير وفرانسو أمام شارلوت  
والقسيس؛ اللذين وقفا يشهدانها من الأرض. لوح لهما القسيس  
بمنذيله، وفجأة اندفعت شارلوت تجاههما وهي تصيح:

"أوه يا ولدي، ولدي العزيز!" ثم خبأت وجهها في منظرها  
الأزرق.

أبحر الرجلان في اتجاه المدينة. دخان وجبة العشاء تصاعد من العديد من المداخل مباشرة عبر الشفق الهادئ الذي كان لا يزال يلمع بغروب الشمس الذهبي. كانت المصابيح مضاءة؛ كانا يستطيعان سماع أصوات الأطفال وقعقة العربات الثقيلة على الحصى. ثم اجتازا الحقول المفتوحة، كانت هادئة للغاية وكان الليل قد غطى الأشجار. انتشر في الأجواء دفاء معتدل. وكأن الحقول كانت مهجورة إلا من صوت قعقعة العربات، وتحرك القارب بهدوء مع المد.

تغشى السماء الأرض في غطاء أزرق صافٍ، تعلق خط من الضباب الأبيض أمام الأشجار البعيدة، كانت هناك بقعة حمراء تلمع في حقول البطاطس الخاوية. امتد الضباب أكثر فوق الأرض وأخذ ينتقل فوق الماء مثل الأشباح في الأحلام.

وصلت إليهم روائح منعشة من المراعي؛ تسللت رائحة التفاح والبطيخ من القمرة.

سلام هائل عم كل شيء، راحة جميلة بعد عمل شاق. صدى ضحكة طائر متأخر في السكون البعيد.

كان الصديقان يستلقيان على سطح السفينة، لا يتحدثان لأنهما يدخلان الغليون. غدًا ستأتي مارिका -البتول- إلى هذا القارب وتزدهر إلى امرأة بين الحصاد الغني في هذا العام السخي. يا له من بهاء! يا لها من إثارة! كيف يمكنه أن يبقى ساكنًا؟ لكن باليتير لم يكن يفكر بهذا كثيرًا، فقد كان المساء شديد الهدوء

والرقة وتغمره السكينة، حتى شعر باليتير هو الآخر بالسكينة والهدوء والنقاء كالقسيس.

حفل الزفاف الآن على قدم وساق، امتدت الطاولة تحت الظل الطويل، كانت مليئة بالرفاق؛ يأكلون بشرهة، ويتحدثون بأعلى أصواتهم، يصيحون وينشدون. كانت الضوضاء مثل حظيرة الماشية وعلا فوق صوت الصخب صوت كونسرتينا أو رنين المثلث الموسيقي.

الخدم بقمصانهم ذات الأكمام يحضرون أطباق النقانق والكرنب ولحم الخنزير والفاصوليا؛ يطبخون البطاطس بالبخار وأباريق البيرة فوق عربات اليد أو الأبواب المنزوعة من مفصلاتها. للحصول على الكثير من الإضاءة؛ تم فتح البابين في نهاية السقيفة التي تطل على منظر جيد على الحقول ومن ورائها الغابة التي كانت تقف في ضباب رفيع مغزول بضوء الشمس الذهبي.

تم تزيين وزخرفة الجدران بأوراق نبات الهليون الخضراء الداكنة وورق ورود ذي ألوان زاهية هنا وهناك. خيم على المكان اللون الأزرق بالفعل من دخان التبغ من الغليونات والسيجار. تسللت الشمس إلى داخل السقيفة وجعلت الألوان ساطعة. جلس الثنائي الشاب، باليتير وماريكا، في منتصف الطاولة، ماريكا كانت تجلس كالدمية، مشدودة وهادئة، مرتدية فستاناً مستقيماً بلون البرقوق ضيق حول الصدر؛ انسدل شال أبيض فوق كتفها

وكان مثبتاً في شعرها مع إكليل من زهر البرتقال المجفف والمغطى بالشمع. جلست هناك تتظاهر بالرزانة لكنها كانت مشرقة بالسعادة. خذاها كانا أكثر وردية من المعتاد، أضفت الشمس لونا ذهبياً على خصلات شعرها المجعدة فوق جبهتها البيضاء. جلست وسط كل هذا الضجيج والثرثرة وكأنها لا تنتمي لكل هذا، لكن حينما تحدث معها باليتير، الذي كان يجلس بجوارها ويتناول طعامه في هدوء، انخفضت نظرتها وتورد وجهها وارتسمت ابتسامة سعيدة فوق شفيتها. ولكن عندما بدأ العم هنري -والدها- يتحدث مع باليتير عن العسل والسماذ، تجولت بعينيها حول الطاولة وأومات برأسها في لطف وخجل إلى بعض الأقارب والأصدقاء. هي تقريباً لم تأكل أي شيء سوى ثمرة خوخ أو ثمرة جوز من بين أطباق الفاكهة العديدة الموزعة فوق المائدة.

تأملها باليتير وهي تجلس ببساطتها الطفولية الجميلة وبدأ قلبه يخفق بقوة. أراد أن ينفرد بها وبدأ ينفذ صبره.

قال لها: "تعالى، هل لنا أن نتسلل إلى الخارج سوياً؟".

لكنها فضلت الانتظار قليلاً، فهي لا تحب أن تغادر وتنتهي الحفل. ثم ظهر المزيد من أطباق الطعام، وأغانٍ جديدة تم غناؤها، وامتلأت الكؤوس.

لذلك ظلوا جالسين.

جلس شاب أحول فوق برميل يعزف على الكونسرتينا دون توقف، مع كأس من البيرة بجانبه.

لم يستطع فرانسو أن يزيح عينيه عن كل هذه الألوان المعروضة أمامه؛ وجوه كل هؤلاء الفلاحين الذين لم يشموا أي شيء سوى تربتهم الأصلية وأخذوا شكلهم ولونهم منها.

قال فرانسو: "يستحق كل منهم وزنه ذهباً".

بالنسبة لرسام كان هذا الجمع بمثابة مهرجان للألوان؛ الشالات المنقوشة اللامعة، بريق الحلي الذهبي، والقبعات المصنوعة من الدانتيل الأبيض كالثلج، والشعر الفاتح للفتيات الصغيرات؛ ربطات عنق الرجال الزاهية كأنهم فرسان في زيهم الأخضر الفاتح. بالإضافة إلى اللون الأسود -حرير أسود وأقطان سوداء- الذي أبرز الألوان الرائعة والفاكهة فوق الطاولة.

صاح فرانسو مخاطباً باليتير: "انظر يا صديقي العزيز، لن تجد صورة أفضل بين هنا والصين. إنها عظيمة!".

ظلت الشمس تتسلل بعيداً رويداً رويداً لتجعل الصورة أكثر ثراء.

ظهر رأس القسيس الحليق بوضوح مع الخلفية الخشبية الزرقاء. كانت شارلوت تتصبب عرقاً وهي تشعر بسعادة. جلست جدة ماريكا بجوارها، ترتدي الحرير الأسود، وقبعة من القش مع شرائط عريضة فوقها.

غنت مديح حفيدتها دون توقف، حتى ترقرقت الدموع في عيون شارلوت. بدؤوا جميعاً في الغناء والضحك والمزاح ثم بدأت البيرة تذهب عقولهم. أحدثوا ضجيجاً عالياً حتى إن الكونسرتينا أصبحت بالكاد مسموعة.

بدأ صبر باليتير ينفد. أراد أن يكون مع ماريكا. لم تجرؤ ماريكا على النهوض حتى همس في أذنها؛ ثم وقفت بابتسامة على وجهها وذهبت. في تلك اللحظة، قفز مزارع يبلغ من العمر نحو الأربعين، في حالة سكر، على كرسي وبدأ في الغناء:

" ترك ثلاثة طبالين صغار الحرب وراءهم،

ثلاثة طبالين صغار يسرون على طول الطريق —

دوم-دوم-دوم! دوم-دوم! دوم-دوم!

يسرون على طول الطريق".

اشترك الجميع في غناء هذه الأغنية، بحيث تمكنت ماريكا من الفرار دون أن يلاحظها أحد تقريباً.

خرج باليتير من الجانب الآخر وتقابلا خلف المنزل حيث توجد جميع العربات، التي أحضرت الضيوف، تقف في الانتظار. بينما أسرع ماريكا إلى غرفتها لتحضر حزمة ملابسها المعدة سابقاً، ربط باليتير ليوباس بعربة الكلاب الزرقاء. جلسا فوق المقعد الضيق وعلا صوت "هيا!" وبدأ حفل الزفاف.

بالكاد ابتعدوا على مرمى حجر عندما بدأ صراخ عالٍ من  
المزرعة وخلف السور. وقف جميع المدعويين يصيحون ويهتفون،  
يلوحون بأذرعهم ومناديلهم وقد وقف بعضهم فوق الطاوات  
والكراسي.

مروا عبر القرى بسرعة وخرجوا إلى العراء.

صاح باليتير: "هيا بنا نطلق إلى نهر نت!".

انبعثت رائحة الصمغ من غابة شجر الصنوبر الهادئة، أضاءت  
أشعة الشمس بعض أشجار البتولا هنا وهناك تحت قبة من نبات  
التنوب، أو ورقة شجر سقطت بهدوء فوق الأرض.

أمسك باليتير بزوجته الصغيرة العزيزة بذراع واحدة ووشاحها  
الرقيق يطير خلفها بسرعة توازي سرعة تحركهم. أمالت رأسها  
على كتفه وقبلته ثم انفجرت في ضحكة مبهجة. عادت لتلقائيتها  
مرة أخرى، ها هي أصبحت وحدها مع الشخص الذي أحبته  
من أعماق قلبها. تمايلا بعضهما على بعض وتطاير الرمل من  
جاء حركة العربة. وقف الفلاحون يضحكون وينظرون إليهما،  
يصيحون في مرح، لكنهما انطلقا دون أن يلتفتا، فهما يتوقان لأن  
يكونا وحدهما أخيراً.

تدريجياً وصلا إلى أرض أكثر صلابة، وبعد مرورهما بغابة  
نبات التنوب الرقيق، أصبح بريق النهر تحتها جلياً، ها هو  
القارب يرسو هناك.

توجهها بسرعة إلى أسفل المنحدر.

عندما وصلا إلى القارب، أعطى باليتير الفتى الذي كان يحرس القارب حفنة من النقود وأرسله إلى الحفل.

قال باليتير: "خذ العربة معك، ليوباس سيبقى معنا. فهو لن يحكي شيئاً، هيا اذهب!".

ثم صعد باليتير وماريكا وليوباس على متن القارب.

كانت ماريكا تريد أن تنزل للكابينة لتغير فستانها، لكن باليتير صاح ضاحكاً:

"لا تنزلي الكبينة الآن، وإلا لن نصعد إلى سطح المركب مرة أخرى!".

لذلك جلست بجوار الدفة فوق برميل الماء وشاهدته وهو يفرد الأشرعة التي انسدت مباشرة في النسيم الخفيف. بعد ذلك دفع باليتير القارب من الشاطئ وجلس بجوارها عند الدفة، ثم أبحرا ببطء كسرعة السير على الأقدام.

"أخيراً أنت لي!". قالها باليتير صائحاً وهو يغمرها بالقبلات فوق فمها الوردية.

انجرف القارب عبر بلدة رين الجميلة. طافت الغيوم عالية في الهواء الأزرق. كانت هناك أبقار في جميع المراعي والتلال التي تقع في الأراضي البعيدة المغطاة بأشجار الصنوبر.

ماريكا بفستانها البرقوقي اللون آوت إلى ذراع باليتير، بينما كان هو يوجه القارب بيده الأخرى. رفع النسيم وشاحها بعض المرات ليعود فوق خديها الورديين مرة أخرى مع خيوط من أشعة الشمس.

بدت له عذراء جميلة صغيرة، كم كانت سعيدة! لمعت السعادة في عينيها. بقيت سلة الفاكهة التي وضعها باليتير عند قدميها؛ دون مساس.

فاحت رائحة المياه والمراعي. كان هناك بالفعل أشجار تتحول إلى الأصفر هنا وهناك. أضاءت الشمس الشراع الأبيض، أسراب مثلثة من طيور الكركية تطير باتجاه الجنوب. شاهدتهم باليتير ثم -وللمرة الأولى- أصبح يتوق لينطلق إلى العالم الواسع.

بدا كل هذا جديداً وجميلاً بالنسبة لهما. ضحكا على كل هذا في سعادة، لكن قلوبهما امتلأت بحرارة الحب، الحب الذي يفوق العقل ويأسر كل قوى الحياة الأخرى. بدأ في نسيان كل هذا الجمال في ظل اشتياقهما لينفردا بعضهما ببعض.

كانا في شدة الاشتياق لبعضهما. القبلات لم تكن كافية؛ لم يكن قربهما كافياً.

كانا ينجران طوال الوقت، وعم المساء سريعاً.

تحول كل شيء إلى اللون الرمادي. هدأت الرياح والأشعة وعم السكون كل شيء.

هما لا يعرفان هذا الجزء من البلدة. كان هناك مصباح صغير  
مضاء بعيداً جداً. لكنهما لم يفكرا في التحرك أبداً.  
تسلل ضباب المساء عبر السكون وازدادت كثافته وهما  
يشاهدانه.

فجأة اصطدما بالأرض وعلق القارب بسرعة. مما جعل  
باليستير يقفز. تنهدت ماريكا وربط باليستير القارب بجذع شجرة  
صفصاف. وقد ازداد الضوء قليلاً الآن.  
قال باليستير: "هيا، لننزل الآن!".

ثم أضاء مصباحهما، عندما رأت ماريكا هذه الفاكهة الجميلة  
الوفيرة والفرش الأبيض الصغير مُعداً، تدفق اللون الأحمر إلى  
وجهها، خفق قلبها بشدة، ثم خبأت رأسها الصغير في صدره.  
نشرت النافذة الصغيرة فوق رأسيهما ضوءاً عبر الظلام، في  
إشارة للسلام والسعادة الغامرة.

كم هو مبهج أن يستقظ كلاهما في صباح اليوم التالي في  
فراشهما الدافئ ورائحة الفاكهة الزكية تحيط بهما! حينما نظرا  
عبر النافذة المستديرة الصغيرة بالقرب من رأسيهما، شاهدا  
المراعي ممتدة تحت ضوء الشمس الساطع والتلال المائية  
المكسوة بالخضار في كل مكان! أمسكا بعضهما ببعض وبدأ في  
الثرثرة كالطفلين.

صعدا إلى سطح القارب، يتناولان الفاكهة؛ ويا لها من سعادة!  
شمس ورياح!

لقد أمطرت في المساء مما جعل كل شيء يبدو جديداً ومنعشاً.  
رياح معتدلة مستمرة هبت فوق الأراضي، تحركت الغيوم،  
وأصبحت الشمس أكثر إشراقاً ولمعاناً فوق الأراضي الخضراء  
عبر الغيوم البيضاء كالحليب.

أبحر القارب الآن بأشرعة مفتوحة وقد انتفخ الشراع بالرياح  
كالوسادة. أبحر عبر الماء الفضي المتموج، أصدرت اللوحات  
الخشبية صريراً ورفرف العلم الأحمر الصغير. نبج ليوباس، لكن  
بالكاد يمكن سماعه.

علق الضباب بمداخن البيوت المنعزلة، وأشرعة طاحونة بيضاء  
فوق تل تدور بسرعة.

التصقت تنورة ماريكا بساقها المشدودتين تظهر ثنيات  
جسدها اليافع الأنيق. طار الدخان من غليون باليتير مع الرياح.  
إنهما محظوظان جداً ليتمكننا من الإبحار هكذا، وقف كليهما فوق  
سطح القارب ليشعرا بالرياح تدفع جسديهما، واستمرا بالوقوف  
لوقت أطول بطول نهر "نت" البديع الذي يمر عبر السدود.

صاح باليتير: "ماريكا" وضم زوجته العزيزة الصغيرة إلى  
قلبه ونظر إلى عيونها الواسعة السعيدة المتحمسة.

ثم استطرده قائلاً: "أنت ضاعفت أهمية حياتي وجمالها، كيف

يمكنني أن أشكر الله على ذلك؟".

لم تجب، فصاح عاليًا:

"دعينا نتناول هذه الفاكهة"، ثم قام بعصر حفنة من العنب

بكلتا كفيه في فمها.

## الفصل السابع عشر

### موسيقى البوق

ظلت رياح الخريف تهب بشكل متواصل لعدة أيام على البلدة، تسوق أمامها الأمطار والضباب. بقيت قمم الأشجار منحنية لأيام والأوراق مجعدة والعشب مستويًا على امتداد الأرض. ثم جاء الضباب وتعفنت الأوراق وبدأت الأبقار في التوجه إلى حظائرها الدافئة.

ماريكا وباليتير كانا يحتفظان بروح عيد الحب اليافعة في منزلهما.

ولكن أخيرًا أصبح هناك طقس معتدل مرة أخرى وظهرت مساحات جميلة تحت الشمس، التي بدأت في الغروب الآن، وعادت الأبواب والنوافذ مفتوحة مرة أخرى.

يا للسماوات! يا له من تغير للأرض!

الأخضر القوي الذي كسا الأشجار لعدة شهور، أصبح الآن أحمر وذهبيًا وبنياً! خيم سلام بديع وسكون نقي وصفاء إلهي على كل شيء، بداية بالطقس والحقول والجداول حتى الطحالب؛ جميع الأشياء كبيرها وصغيرها.

سقطت الأوراق وبات الشتاء على الأبواب. رحل البهاء. تنازلت الحياة عن كل كنوزها، ستنغمس الحياة في الأرض وهي متعبة ومجهددة لتستمد قوة جديدة لعام آخر. الضفادع والخفافيش والطيور والصراصير جميعهم يطبق عليهم نفس الناموس. رد الفعل! هو استنشاق الحياة. حيوات جديدة ولدت وعاشت في كل الأنحاء؛ وبما أن الحياة يجب دائماً أن تنتج حياة، لذا فهي تحتفظ ببعض من الحيوانات العديدة المعدة لتستقبل أرواحاً جديدة للعام القادم.

كيف يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؟ من أي مكان آخر قد تجد الحياة أشكالاً لتكسو بها أرواحها؟ إنه عالم لا يحتوي على شيء أكثر من جوهره الخالص.

وبالتالي فإن أشكال الحياة تخلق غيرها قبل أن تزول. كل شيء بالتناوب يدخل دورة الحياة، وكل شكل جميل مثل الآخر، إذ إنهم جميعاً يتشاركون لب الحياة. كم جميلاً أن يتفكر الإنسان في هذا! لكن للأسف! نحن البشر نتمنى عكس ذلك.

كان الجو هادئاً جداً هنا بجوار جدول الماء تحت الأشجار الطويلة ذات الأوراق الصفراء والبنية المتشابهة. إنه وقت الظهيرة، لا يوجد أي صوت يمكن سماعه سوى صوت أوراق الشجر المتساقطة.

كان باليتير يحمل حقيبة مزدوجة فوق كتفه، مليئة بوجبة الشيلم، كان عائداً إلى المنزل ويسلك مسار الجدول المتعرج.

كان في غاية السعادة بلون الخريف البهي وقد تلتخ فمه بعصير التوت الذي وجدته في طريقه، ووقف ساكناً مرة أخرى عند رؤيته الجمال الرائع من حوله.

ها هي! كل تلك الأوراق الصفراء، جميع الأشجار الصفراء مغطاة بضوء الشمس! الكتل الصفراء، التي امتصت الشمس وجعلتها تتألق بمقابل السماء الزرقاء الصافية؛ لم تستطع أن تتحمل كل هذا البهاء في وقت واحد وتركت الأوراق لتسقط أرضاً وبدا أن الشجرة بأكملها مشتتة. حدث الشيء نفسه مع كل الأشجار، حيث أضفت كل منها الضوء والألوان على شجرة أخرى، حتى شكلت الأشجار مجتمعة سحابة ذهبية. شعر باليتير وكأنه هو نفسه قد اشتعل بها. استكمل باليتير سيره، وفي كل خطوة يخطوها كان حفيف الأوراق الجافة يخترق السكون. كانت أوراق الأشجار المتساقطة الكثيفة تملأ جميع الأرجاء، مثل السجاد، وتفوح منها رائحة طيبة. أحب باليتير الصوت، فبدلاً من أن يرفع قدميه بدأ يجر قدميه عبر الأوراق لتحدث صوتاً أعلى، صوت الحفيف جعله يحلم. تدافعت الأوراق وقفزت وسقطت فوق حذائه؛ أخذ يلعب بها، يدفع الأوراق ثم يعود ليحركها ببطء حتى بدا أنه جعل تلك الأوراق الصفراء تغني أغنية مثل مهمة البحر البعيد.

سار باليتير حتى وصل إلى مساحة جبلية معزولة مليئة بأوراق الخريف ومحاطة بأشجار طويلة وكبيرة وشجيرات كثيفة. وقف باليتير يتأملها. هنا تبدو الشمس واضحة وتسطع بكل قوتها فوق

أوراق الشجر الزاهية الألوان، حتى إن أوراق شجر الحور الصفراء صارت مثل الذهب السائل، وأشجار الزان الحمراء أصبحت تبدو كالدم المتوهج.

مشهد رائع للألوان والأصوات! مشهد لأنقى الألوان الذهبية التي يمكن تخيلها؛ أصفر كهربائي وبني وأحمر ونحاسي واحمرار الدم ولون اللهب والذهبي! قد تشابكت مع أشعة الشمس، تتراقص وتنساب من خلالها حتى بدت وكأنها رؤية للنغمات الإلهية للألوان، وكأنها تصدر أصواتاً موسيقية.

كانت الأجواء أكثر سكوناً في تلك المساحات الواسعة. لم يتحرك شيء، الهواء كان راسخاً كالحديد.

فجأة رفع باليتير رأسه وأنصت. أصوات بعيدة لأبواق صيد عديدة! ذاب صوتها في بريق الأشجار الذهبي! وقف ينصت ثم انطلق يحدث حفيفاً فوق أوراق الأشجار وسار في ممرات المشاة المتعرجة تحت الأشجار الكبيرة في الحقول الواسعة.

الشمس الساطعة تعم كل الأرجاء، وهناك عبر الضفة الأخرى للنهر، كانت غابة الدير الشاسعة محاطة بضباب أزرق. تطايرت أوراق الخريف في الهواء وفاحت رائحة اللفت القديمة في الأرض.

استلقى باليتير فوق العشب يستمع لنباح الكلاب البعيد وأصوات موسيقى الأبواق التي تأتي من داخل الغابة المحاطة

بالضباب الأزرق. الأصوات تمايلت يميناً وشمالاً وتردد صداها حتى اختفت في الهواء.

خرج ظبي يركض من الغابة ووراؤه المزارعون والفلاحون يحملون المدمة والمذراة؛ لكن الظبي كان أسرع منهم ووثب بعيداً في خفة وقرونه مائلة للخلف وهو يضم قدميه الأماميتين، كما كنا نشاهدها منسوجة فوق المنسوجات القديمة. ذهب بعيداً عبر أحد المراعي المغمورة بالماء واختفى في الغابة الغربية الأخرى.

استمر النفخ في الأبواق بعيداً ثم اقتربت الأصوات وعادت لتبتعد مرة أخرى حيثما اتجه الصيد. رأى أغناماً ترعى وأشعة الشمس تلامس آذانها وتتجدد فوق صوفها السميك. على حافة النهر الصغير جلس الراعي الأحذب، يلعب الورق، كما قد يفعل طفل صغير، وحيد، يا للمسكين!

"بهذه الطريقة لا بد أن تفوز، ولكن هل يمكنك الفوز ضدي؟".  
سأله باليتير.

جلس فوق العشب وأخذ الأوراق المجددة المتسخة قسمهم وبدأ يفرق الورق. بدأ كلاهما اللعب، وأخذا يقسمان وتنازعا وصاحا كما لو كانت حياتهما على المحك، يشربان بين الحين والآخر من البراندي الذي كان يحمله الراعي في قارورة في جيبه.

ثم غادر الأحذب مع قطيعه وكانت الشمس تغرب في لون اللهب الغربي مع خطوط قرمزية وذهبية متقطعة عبر غيوم

زرقاء وأرجوانية، تنشر بريقاً فوق جميع الأراضي وتحول البرك على طول الطريق إلى بقع ذهبية.

عاد باليتير إلى المنزل عبر الممرات وألقى نظرة لطيفة على فلاحين شابيين يتهامسان فوق ظهر بقرة بيضاء كانت تحصد البرسيم المتأخر. تركت الشمس هالة برتقالية حول أجسادهم وطائر السنونو يطير فوق رؤوسهم ويصدر صيحاته. بعد ذلك وجد حانة على الطريق حيث كان يلعب الفلاحون والسائقون الورق.

بمجرد دخول باليتير إلى الحانة صاح الجميع: "مرحباً، أنت تدخل في قلعة الآن! ستكون غنياً مثل أمعاق البحر! تستطيع أن تطلب برمياً من البني القديم. يمكنك أن تجني كل هذا!".

نظر إليهم في دهشة وقال: "ماذا يعني هذا؟".

صاحوا جميعاً في وقت واحد: "ألا تعرف شيئاً عن هذا؟".

أخبروه أنه سوف يتم إنشاء خط سكة حديد فوق نهر "نت" وأن النهر سيتحول إلى قناة وأنه سوف يتم ضم مزرعته إليها، كما أنه سيتم بناء حصن آخر ومقبرة جديدة. وقع هذا الخبر عليه كالصاعقة.

"اللعة! إذا انتهى كل شيء!". واستمر باليتير يطلق كلمات اللعنات والكلمات الساخطة.

"وداعاً أرضي الجيدة، لن أمكث هنا إذا كان هذا هو الوضع!

سوف أذهب خارجًا! ثم سنطير كالطيور! العالم كبير بما يكفي!". تذكر باليتير طيور الكركية، التي رأها يوم زفافه، تطير باتجاه الجنوب، وكيف جعلته يفكر في الخروج إلى العالم بحثًا عن منزل آخر.

"أنا أنظر باتجاهكم!". قالها وشرب نخبهم. حمل حقيبته فوق كتفه وأسرع إلى المنزل ليخبر ماريكا عن كل شيء.

اقترب المساء. عم الظلام شرقًا ولم يبقَ سوى خط زهبي واحد في الغرب. ارتفع الضباب من الأرض برائحة الأوراق المتساقطة، استقر السكون فوق الأرض؛ كان هناك فقط صوت حفيف وتحطم أوراق الشجر الصفراء تحت أقدام باليتير. توجهت بقرة نحو حظيرتها، سقطت ورقة شجر في كفه، انبعث صوت لحن حزين وحيد من بوق بعيد في غابة الدير المظلمة مما أصابه بالقشعريرة وترقرقت الدموع في عينيه؛ شعر ببرودة الشتاء في الأرض وفي قلبه.

أخبر ماريكا كل شيء عندما عاد إلى المنزل وكلاهما في الفراش. كانت سعيدة بهذا، وقد قررا أنه حين يأتي الربيع وتصبح الأرض خضراء مرة أخرى سيخرجان معًا إلى العالم.

## الفصل الثامن عشر

### يوم ضبابي ممطر

كان المطر البارد يتساقط عبر الضباب الكثيف الذي أخفى العالم عن الأنظار.

كانت خضرة الأشجار لامعة، مثل ظهر الضفدع. كل شيء كان مبتلاً. الذين خرجوا من الأبواب ابتلوا حتى أجسادهم.

امتدت الرطوبة إلى المنازل وأظلمت النوافذ وابتلت الجدران. بلاط الأرضيات يشع رطوبة وأصبح الملح رطباً. كان الحصى مبتلاً والغرفة مبتلة؛ كان كل شيء مبتلاً. ترددت تغريدة حمامة وحيدة عبر الضباب من شجرة مظلمة.

لفظت الطبيعة أنفاسها الأخيرة وبدا كل شيء مهجوراً ومنتهياً.

كانت الأشجار جرداء تماماً وموحشة للنظر إليها بأغصانها الملتوية والجافة. فقد أطاحت الرياح البرية الغاضبة الخرقاء بكل أوراقها وألقت بها في الهواء حتى إن بعضها طار كالطيور؛ وانجرف الآلاف منها على طول الطرق وسرعان ما تجمعت إلى زاوية حيث لم يجدوا مخرجاً وبدؤوا يدورون في شكل دوامة مراراً وتكراراً طوال الوقت، وكأنهم قد فقدوا صوابهم، وهكذا استمرت رقصة الأوراق دون توقف وبرتابة حتى ثبتها المطر

وتركها لتتعفن.

حزنت الأشجار على أوراقها كالأمهات. وقفت ماريكا وشارلوت في ظل السقيفة، وقد شمرتا عن سواعدهما عند حوض الغسيل الذي يتصاعد منه البخار، بينما باليتير يجلس على ركبتيه يقطع الخشب.

كان الهواء ساكناً. كانت كلتا المرأتين لا تتحدثان، لم يكن هناك صوت في الهواء عدا صوت ضرب وتقطيع الأخشاب. كان الضباب محيطاً بالضفة الأخرى من النهر، كانت بيضاء طوال الليل بحيث لا يمكن أن ترى شيئاً عبر النهر.

كانت أشجار الحديقة تقف رمادية وقاتمة وكأنها أشياء عديمة المنفعة.

جاء رجل يتسكع خلف السياج كالشبح مع كلبه الأسود من خلف باليتير؛ توقف وصاح بصوت أجش:

"مرحباً، باليتير، أهذا أنت؟". وبدأ في نوبة من السعال.

وبعدما توقف عن السعال، صاح باليتير: "نعم هذا أنا".

"هل يمكنك أن تسمح لي بالعبور؟ أو سأضطر أن أقطع مسافة طويلة".

قال باليتير: "إلى أين أنت ذاهب، بيت؟".

"إلى غابة الدير لشراء الأخشاب. ستكون هناك صفقات جيدة، هل ستأتي؟".

"سوف آتي معك! انتظر قليلاً!".

وذهب ليرتدي معطفه.

سألته ماريكا: "هل ستعود سريعاً، لدي أخبار جيدة لك".

"ألا يمكنك أن تقولها لشارلوت؟".

"بالتأكيد، لكن.... حسناً، اذهب وعد سريعاً". قالتها ماريكا وقد احمرت خجلاً وهي ترفع خصلة شعرها البنية المجددة من فوق جبينها بذراعها الجميلة.

صاحت شارلوت بغضب: "كن واثقاً أنني سأعرفها! سوف أسمعها قبلك أيها السخيف!". واستكملت في تعاطف وقالت لماريكا: "أليس كذلك يا حبيبتي؟".

أجابت ماريكا: "نعم" وأكملت الغسيل.

ألحت شارلوت قائلة: "أخبريني الآن، أخبريني قليلاً".

فأخبرتها ماريكا.

صاحت شارلوت في سعادة: "هل هذا أكيد؟". وأصرت على الفور أن تتوقف ماريكا عن استكمال الغسيل، إذ إن هذا قد يؤديها.

"سوف يقفز باليتير من السعادة لمعرفة ذلك. دعيني أخبره أنا، سوف أعطيه لمحة!".

عبر باليتير النهر بصحبة بيت وكلبه وتوجها نحو غابة الدير.  
سلكا ممر المشاة المتعرج، إذ إنهما لم يستطيعا أن يحددا الطريق  
بسبب الضباب. ظهرت الأشجار على مسافات كأنها تنبع من  
اللون الرمادي من الأرض ثم تختفي فجأة.

التصقت قطرات المطر بمعطف باليتير مثل لآلئ البذور،  
وانغمست الأرض في وحل ناعم حتى تخطى أحذيتهم.

عبرا مرعى مغطى بالماء وبه ثلاث أشجار صفصاف مقلمة  
وكثيية. نبج الكلب بعد نعيب الغراب الذي طار فجأة داخل  
الضباب. تحدث باليتير ورفيقه عن الزراعة، وهرول الكلب المطيع  
خلفهما وهو يتشمم الأرض.

لم يكن هناك أي حركة في الهواء، لا توجد نسمة ريح، وسقطت  
الأمطار في هدوء.

شعر باليتير بالحر وأرخی معطفه.

حتى وصلا أخيراً إلى الغابة وسارا فوق الأوراق العفنة الناعمة  
تحت الأشجار. أصبح الضوء باهتاً.

هذه هي غابة الدير الهائلة.

انزلقت قطرات مطر كبيرة وثقيلة من أفرع الأشجار. حينما  
توغلا للداخل قليلاً، وجدا مجموعة من الناس يلتفون حول رجل  
يصيح بأرقام. وقف الرجال هناك تغمهم الأمطار وأنوفهم مبللة.  
انضم باليتير ورفيقه إلى المجموعة.

علا صوت الرجل، الأخنف الحاد، فوق الأشجار الشامخة المبللة، الواقفة هناك كالعمالقة الضخمة، تلوح في الأفق من خلال الضباب الذي تعلق بها.

اصطحبهم بائع المزاد جميعاً إلى شجرة زان، يا لها من شجرة ضخمة لا يستطيع ثلاثة رجال أن يمتدوا حولها.

تمتد فروعها الشامخة على نطاق واسع واختبأت قمتهما تحت الضباب، غرست جذورها الملتوية بجوف الأرض، راسخة كالصخرة. شجرة ساحرة! عندما تخيل باليتير أن هذه الشجرة العملاقة سوف تسقط في غضون أيام، لم يستطع أن يتمالك نفسه وصاح موجهاً حديثه للشجرة: "أنتِ يجب أن تستمري في النمو!". وأذهل بائع المزاد بإعلانه عرضاً سخياً جداً، حتى إن البائع بالكاد أخذ نفساً ليصيح: "متفق عليه!".

باليتير الآن أصبح مالكاً وإلهاً! يا لها من شجرة! من النادر أن يكون لها مثيل. بالرغم من كونها مجرد شجرة واحدة إلا أنها جعلته سعيداً وكأن قد عُرض عليه مملكة.

قال باليتير: "شجرتي! أعدك أنه حينما يتم قطع الأشجار الأخرى، ستظليل أنت واقفة هنا! استمري في النمو، نمو الأوراق والجوز، استمري في النمو كما يحلو لك، وخبئي الأرناب الصغيرة بين أطرافك الضخمة!".

هو قد جاء لشراء حطب للشتاء وقد آل به الأمر بشراء شجرة كاملة، ونقش فوق لحاء الشجر بسكينته، الكلمات الوحيدة التي

كتبها: "استمتع بيومك".

ذهب وحيداً عبر الغابة الهادئة، حيث كانت القطرات الكبيرة ما زالت تتسرب من الضباب. ظل يتفكر في الأشجار والبشر، وكيف أنه بينما هو يتجول في الغابة وحيداً سعيداً كالمملوك بسبب شجرة، كان هناك، خارج الغابة، عالم مليء بالألم والبؤس؛ أناس معظمهم مريض وحزين ويشعرون بالأسى، يعيشون فقط على أمل الموت.

هذه الفكرة حطمته، ولكن للأسف! ماذا يمكنه أن يفعل؟ هو نفسه ليس أكثر من مجرد إنسان آخر!

الأرض تدور وهو يدور معها. لكن هناك فرق واحد، إنه يستمتع بدورها. وهذا شيء لا يمكن لأي إنسان أن يعطيه أو يشاركه مع أي شخص مهما حاول جاهداً.

عند خروجه من الغابة سمع صوت خطوات العديد من الخيول المتعبة وصوت صليل حذاء فضفاض عبر الطريق السريع، ظهر من الضباب نحو عشرين حصاناً منهكين ويتخبطون بعضهم ببعض.

كانوا يعرجون على أقدامهم المتورمة ورؤوسهم العجوزة متدلّية بالقرب من رقابهم النحيفة الطويلة. مفاصلهم كانت بارزة وتبدو في حجم قبضة اليد وضلوعهم تبدو مثل الأطواق

التي تحيط بالبرميل. كان بينهم عميان وجرحى، وقد انضموا بعضهم على بعض وكأنهم يساندون بعضهم. يا لها من كتلة من البؤس! يسوقهم إلى المذبح شخصين متسخين؛ هم لن يحظوا أبداً بتجربة أن ينهوا يومهم في حقل من العشب الأخضر الجميل. كانوا تقريباً مثل البشر، وبعد الميئة القاسية سوف يتم تقديمهم كطعام.

سأل باليتير: "من أين أتوا؟".

أجاب الرجل بزمجرة: "من لوفان".

تمزق قلب باليتير. الشخص الآخر كان في الخلف؛ يحمل مقبض السوط ويضرب الحصان الأخير وكان أعرج. ظل الرجل يضربه بحكم العادة فقط.

وكان هذا ما أفقد باليتير صوابه وجعله جامحاً، دون تفكير اندفع نحو الرجل وضربه في وجهه مباشرة حتى إن الرجل سقط أرضاً. لكن الرجل كان مستعداً للقتال وقفز واقفاً يلعن وتوجه متحفزاً نحو باليتير؛ لكن باليتير خنقه وتدحرجاً سوياً في الوحل. ثم جاء الرجل الأول ليساعد رفيقه، لكن باليتير جذبته للأسفل هو الآخر، وبدأ يغني بصوت عالٍ:

"هولكا تولكا! ارقص البولكا!"

در في دائرة!"

وضرب رأسهما ببعض بقوة. كان نفوح منهما رائحة نبيذ قوي.

"وإذا ضربتما تلك الحيوانات المسكينة مرة أخرى سوف آكل رأسيكما، سوف أفعّل! يا لكما من متوحشين!". قالها باليتير وسار بعيداً؛ صاح الرجلان بشيء ما خلفه لكنهما لم يفعلوا شيئاً. عندما وصل إلى المنزل كانت رائحة القهوة المعدة حديثاً تملأ المكان.

كان فرانسو يجلس بجوار المدفأة الموقدة ويتحدث مع ماريكا. شارلوت كانت تعد المائدة.

صاحوا جميعاً: "ما هذا، ماذا حدث لعينك؟".

"اصطدمت بشجرة"، أجاب باليتير: "أعطيني قهوة، إني جائع".

لكن شارلوت لم تستطع أن تحتفظ بالأخبار الجيدة لنفسها وذهبت وهمست في أذنيه.

صاح باليتير صيحة مليئة بالفرح: "ماذا؟ هل هذا حقيقي يا ماريكا؟".

أومأت ماريكا برأسها واحمرت خجلاً حتى عينيها.

قفز وضمها بين ذراعيه وقبل فمها حتى شهقت لتستطيع التنفس.

صاح باليتير: "خبز الكشمش! كعك التوابل وخبز! شارلوت؛ استدعي القسيس!".

بمجرد أن ارتدت شارلوت تنورة أخرى ذهبت مبتسمة لتحضر القسيس.

"مبارك" قالها الرجل الطيب لباليتير وربت فوق كتف ماريكا، واستدار ببهجة قائلاً: "الآن باليتير يا بني، لن تريد أن تذهب لتجوب العالم؛ أنت في انتظار مولود. يجب أن تبقى وتعيش معنا هنا في أرض نت!".

لكن باليتير قال: "سنؤجل الأمر قليلاً فقط. سوف نذهب ولكن بعد ولادة الطفل، وسوف أفعل ما بوسعي لتأتي أنت معنا!".

شربوا القهوة الجيدة والحليب وتناولوا خبز الكشمش والجبن الهولندي ولحم الخنزير المقلي والعديد من الأكلات الطيبة الأخرى. ثم أحضرت شارلوت بعض الخمر القديم جداً؛ "من عصر يسوع، عندما كان طفلاً" هكذا قالت. أشعلوا السجائر وجلسوا حول المدفأة المريحة. تحدثوا عن أشياء غريبة ولكن في معظم الأحيان كان هناك صمت لطيف. بمجرد أن انتهت شارلوت من التنظيف، جاءت وجلست معهم، لتشاركهم السمر والضحك.

جلس تايبارد -القط- في حضن ماريكا.

أحاط بهم دخان التبغ، وقد بدأ الشفق يتسلل. صوت المطر كان خافتاً فوق زجاج النوافذ التي لا تستطيع أن ترى شيئاً عبرها بسبب الضباب، بدأ الضوء يصبح رمادياً أكثر فأكثر. أصبحت

الوجوه غير واضحة؛ ظهر فقط بريق النار والسيارات الثلاث في الشفق الرمادي الناعم، وامتزجت كلماتهم القليلة مع نعومته. ساعد الدفء على تهدئتهم وسكونهم. في بعض الأوقات كان يسود صمت طويل، لا يسمع خلاله سوى صوت قطرات المطر فوق النافذة.

في ظل السكون المطبق مثل المخمل، قرأ القسيس آيات لجيزيل. لم يتحدث أحد عن جيزيل أو ذكر أي ملحوظة عن الفن، لكن كان هناك شيء جعلها مناسبة لتلك اللحظة، لتتماشى مع روح الليلة. جاءت بتسلسل طبيعي مثلما تزهر الزهرة. جاء الصوت بهدوء وببطء وبوضوح، بكل الإخلاص في قلب بشري:

"أجلس حزيناً ووحيداً

أشاهد السماء

حيث تتألق النجوم فوق

كل ما أراه هو الظلام،

ليس هناك ضوء لي،

حُفظ ضوءهم بشكل إلهي جداً

يا إلهي، كم صغيرة وضعيفة

هي روحي، وكل شيء

تائه أجلس في ليلتك العظيمة،

بأَسِّ وسط نجومك،  
مثل الطفل الذي لم يولد  
الذي لن يرى الضوء أبداً!".  
عندما انتهت لم ينطق أحدهم بكلمة، لا نفس: كان هناك صمت  
مبهر وتوقع.

ثم بدأ القسيس مرة أخرى:  
"أيتها الأغنية، أيتها الأغنية،  
أنت أسهل ألم  
أنت تجعلين قلبي مكتملاً مرة أخرى،  
ويتحرر من أي أسف قديم.  
أيتها الأغنية، أيتها الأغنية.  
هذا ألم ذكي

أنت وحدك يمكنك أن تشفي الألم!  
الأمل يُحيي القلب الجريح  
فقط إذا أنت أردت ذلك!  
أيتها الأغنية، أيتها الأغنية،  
هذه الدموع المريرة  
التي تبلل ذقني، إني أعلم، إني أعلم،

تختفي الأحزان بلمستك

وتتدفق حلوة كالعسل!

أيتها الأغنية، أيتها الأغنية الحلوة!".

التردد الأخير لكلمة "أيتها الأغنية" قد نُطق بوعي عميق  
بالمشاعر وبهدوء شديد لدرجة أنه بدا أنها لا تتردد عبر الصوت  
بل عبر اهتزاز القلب. ثم بعد وقفة جاءت تلك الآية الصوفية  
العميقة، "الفرح" - "تأتي بعض أيام للفرح في الحياة" - عم  
الصمت بعد هذه القصيدة الدينية.

انتهى هذا بتنهد مكبوت، وكان هذا كل شيء.

لا تزال الأمطار تتساقط على النوافذ. تنهد باليتير تنهيدة طويلة  
وتبعته ماريكا، أشعل فرانسو سيجارة مرة أخرى، وهذا ما أظهر  
أن الدموع كانت تملأ أعينهم جميعاً، عدا شارلوت التي غالبها  
النعاس وهي متكئة على المدفأة.

## الفصل التاسع عشر

### يوم شتوي جميل

خرج بالبيتير وقد كان الجو صافياً ومنعشاً وكأن الربيع قد عاد مرة أخرى. أخذ قبعته، أشعل غليونه وخرج ليتجول قليلاً. كانت السماء زرقاء صافية كالرخام، كان النسيم اللطيف يداعب ويرفرف الغسيل في الحدائق. كان هذا المنظر ممتعاً لالبيتير؛ أن يشاهد الملابس تتحرك وكأن الحياة دبت فيها بالفعل.

كان الفلاحون يعملون هنا وهناك في الحقول؛ المجارف تلمع، اخضرار العشب الرطب كان يلمع مع الخلفية البنية للتربة. كان الأفق صافياً لكن دون شمس؛ ظهرت الأسطح الحمراء للمنازل عبر الأشجار المقلمة، ظهر برج ميشلين الأزرق بعيداً في الجنوب عبر الأشجار الكثيفة.

فرك بالبيتير كفيه واستنشق رائحة الأرض المغمورة بالأمطار لعدة أيام، قد بدأت تعود صلبة مرة أخرى بفعل الرياح المنعشة. عادت الطرق جافة ومستقرة مرة أخرى. صاح ديك وحلق الحمام في الأجواء.

قال بالبيتير: "هذا هو الجو الجميل!". أخذ يتنقل من حارة

لأخرى، ثم سمع صوت أورغ يدوي. بدا الصوت وكأنه أجراس بيانو زجاجي أو نقر على زجاجات مكسورة.

كان الصوت واضحاً جداً ومبهجاً في هذا الطقس الجميل.

تتبع باليتير مصدر الصوت على الفور. كان الصوت يأتي من خلف الطريق السريع، أسرع ليكتشف الأمر. على مقربة من الطريق، بالقرب من مجموعة من أشجار الحور، كان هناك صفان من منازل العمال قبالة بعضهما. عندما اقترب منهما لم يكن هناك أي إنسان سوى طفلين يلعبان بالطين.

بينما هو واقف رأى امرأة حاملاً رقيقة الوجه وفتاة ذات شعر أحمر تدفعان أورغاً يدوياً وتأتیان باتجاهه. توقفتا بمجرد وصولهما للمنازل وأمسكت السيدة المقبض وبدأت تعزف أغنية "أتعرف البلدا؟". بإيقاع غير متوائم تماماً مع مشاعر الأغنية الأصلية! وفجأة فُتحت الستائر والأبواب وخرجت النساء وبعضهن يحملن أطفالاً. كُن يُرتبن شعرهن ويقومن بتزوير معاطفهم الفضفاضة ووجوههن مشرقة، وتبادلن المزاح أثناء قدومهن، يحملن تنوراتهن إلى الخلف ويجتمعن في مجموعات. وقف صعاليك صغار متسخون حول الأورغ، ظهر رجل نحيل في منتصف الشارع، يبدو من الخيوط التي علقت في ملابسه أنه خياط، كان يرتدي جورباً في قدميه، يلوح بذراعيه وساقيه وبدأ يرقص. ضحكت السيدات عليه. أمسكت فتاتان ببعضهما وبدأتا في الدوران حتى طارت تنوراتهن. هنا بدأ الجميع يرقص. عادت

الأمهات لوضع أطفالهن في المهد أو تركوهن في أحضان بعض الصغار الواقفين بالجوار، وبدأن في الرقص. استمتع باليتير كثيراً بمشاهدتهن. دارت الفتاة ذات الشعر الأحمر بكوب صدئ وأعطاهما الجميع سنتاً أو اثنتين.

استمرت المرأة في العزف: عزفت "الأرملة الطروب"، "الساعة على نهر الراين"، وموسيقى الفالس من "فاوست"، حتى ظهر فجأة رجل شرطة، يدفع جميع الأطفال بعيداً، وأمر السيدة المذهولة:

"لا يسمح بعزف الأورغ هنا دون تصريح من السلطات، هيا تحركي من هنا!".

"بالتأكيد يمكن لأي شخص أن يعزف لحناً هنا إذا أراد؟".

"نعم، إذا كانت لا تطلب نقوداً".

"حسناً، إذا هي لا تحتاج للجمع!". قالها باليتير موجهاً حديثه له، ونظر للمرأة وقال لها: "أعيريني هذا الأورغ قليلاً. أنا لن أطلب نقوداً، إذا أستطيع أن أعزف! هيا ارقصوا وأنا سأعزف على الأورغ. يجب أن تحظوا ببعض المرح في هذا الجو الجميل".

أمسك باليتير بالأورغ وأدار المقبض بقوة تصلح لتكسييره.

بدأ السيدات والأطفال في الرقص مجدداً.

كان باليتير سعيداً برؤية هذا وبدأ يغني كلمات اللحن المفعم بالحيوية.

## الفصل العشرون

### جليد

ظل باليتير يراقب السماء يومياً ليبحث عن الغيوم التي ستمطر ثلجًا. الثلج، الأبيض النقي، الذي يحول شكل الشتاء الجاف إلى منظر بهيج، يجعل كل شيء أبيض ويعيد إحياء التربة السوداء. لكن الثلج لم يأت. دفعت الرياح الشمالية القوية غيومًا رقيقة عبر السماء لأيام عديدة، جعلت النهر المتدفق يتجمد. غمرت المراعي والقنوات بطبقات جليد بسُمك ثلاث أو أربع بوصات. هذا مشهد عظيم، هو بالفعل مهرجان بالنسبة لباليتير وماريكا، الجليد الناعم اللامع، الذي يمكن أن يتزلجا ويطيرا فوقه كالطيور!

كانت النوافذ تغطي كل يوم بأشكال رائعة من الثلج، لكن روح الشتاء الحقيقية، الجليد الناعم المعطاء، بقي بعيداً في القطب الشمالي ونفت الهواء.

اشتاق له باليتير كما يشتاق المريض للطقس الجميل. قال باليتير:

"الشتاء دون جليد كالصيف دون أشعة الشمس!".

ولكن في ليلة عيد الميلاد، تساقطت رقائق ثلوج ناعمة سميكة في الليل، غير مرئية، وظلت في ازدياد حتى الصباح.

استيقظ باليتير أولاً. فكر بماريكا التي تنام بهدوء بين ذراعيه، انحنى ليوقظها بقبلة؛ لكنه لمح شيئاً أبيض، نظر إلى النافذة المفتوحة، وإذا بفرع شجرة الجوز الذي كان دائماً أسود اللون أمام السماء، أصبح الآن متلاًئلاً ببياض الثلج. انتفض صائحاً "يا إلهي! يا إلهي!". العالم أجمع أصبح أبيض اللون. قفز باليتير خارج الفراش وهرع إلى النافذة. التقى وجهه بالبرد القارس، لم يستطع الكلام فقد غلبته السعادة. الثلج، الثلج يغطي كل شيء، أبيض وسميك، فوق الحقول والأسوار والقنوات والمزارع والطرقات جميعها مكسوة باللون الأبيض النقي، نزل من السماء بنقاء وبراءة طفل صغير.

هذا البياض أسكت كل الأصوات، وجعل الأرض ساكنة مثل الكنيسة.

رأى باليتير كل هذه الروعة في لمحة واحدة؛ خفق قلبه بشدة؛ ارتدى بنطاله، وانطلق للأسفل وهو يصيح في بهجة: "هاك الحظ السعيد!".

فتح الباب مسرعاً وكان يود أن يدخل الثلج إلى الداخل، لكن الثلج كان يرقد فوق الأرض في عذرية ورقة شديدتين حتى إنه قد لا يتحمل ثقل العصفور.

صاح قائلاً: "أحد ما يجب أن يكون الأول".

ورسم الصليب أمامه وأسقط نفسه فوق الثلج وأخذ يتدحرج عبر السجادة الباردة، يضرب ويحرك قدميه وكأنه يمارس

## السباحة.

نظرت ماريكا من النافذة وصاحت من السعادة وهي تصفق  
بيديها:

"يا له من منظر جميل! يا له من بياض ناصع! بياض ناصع!".  
طارت كرة ثلجية بالقرب من رأسها وهي تتحدث، لكنها  
انفجرت ضاحكة لأنها لم تلمسها، وصاحت عاليًا: "سوف آتي  
للخارج للعب!".

ثم بدأ باليتير بصنع رجل الثلج وهي تساعده. كوم جسمًا ضخماً  
وهي تكور كرة ثلج أكبر وأكبر لتكون هي الرأس. استطاعا بالكاد  
رفعها فوق الجسم. وضع باليتير قبعة خيال المائة القديمة فوقه،  
وضع مكنسة بيده، وضغط بأصابعه ليشكل العينين والأنف  
والفم ووضع غليوناً بداخل الفم.

شاهدا شارلوت تعود إلى المنزل من القداس.

قال باليتير لماريكا: "اختبئي".

اختبأت خلف شجرة وصنعت كرات ثلج.

كانت شارلوت بارتدائها العديد من الملابس الشتوية في ضعف  
سمنتها؛ فهي ترتدي الكثير من التنانير والقمصان. كانت ترتدي  
قلنسوة من الصوف مزينة بخرز زجاجي أخضر وجوارب سميكة  
وحذاء طويلاً في قدميها، هي محاطة بمنقوشات حمراء وخضراء  
وياقة من فرو الأرنب حول رقبتها.

كانت شارلوت مبتسمة وفجأه ضربت رأسها كرة ثلج وأمالت القلنسوة الثقيلة. اندهشت وبدأت تجري بأقصى سرعة يسمح لها بها جسدها الممتلئ بداخل هذا الكم من الملابس. ضربتها كرات الثلج من كل الاتجاهات؛ اثنتان خلف رأسها، ثلاث ارتطمن بظهرها وأرجلها الضخمة، وأخرى ضربتها بمجرد دخولها من الباب.

وبمجرد أن انفجر باليتير وماريكا ضاحكين، خرجت شارلوت مسرعة من الباب تصرخ بغضب:

"ألا تخجلان من أن تخيفاني هكذا؟ رحمتك يا إلهي! إن قلبي يرتجف!".

ثم دخلت وأغلقت الباب بعنف.

أخذاً يقذفان كرات الثلج بعضهما على بعض وأصبح الهواء مليئاً بالقذائف الطائرة التي تحطم بعضها بعضاً أو تنفجر فوق الأشجار حتى طارت واحدة عبر النافذة وألقت الزجاج المكسور داخل المنزل. هنا ظهرت شارلوت مرة أخرى تصب غضبها باتجاه رجل الثلج؛ إذ إن باليتير كان قد اختبأ خلف برميل الماء الكبير وهرعت ماريكا إلى الباب الخلفي. فعادت شارلوت مرة أخرى للداخل إلى المطبخ في تدمر.

بقي باليتير بالخارج وبدأ يقذف كرات الثلج فوق مؤشر الرياح فوق الطاحونة، الذي كان على شكل رجل يجذب أنفاً طويلاً باتجاه الرياح؛ إلى القمم المصممة التي تحمل الرسومات البارزة

والزخارف فوق السطح وسلال الفاكهة المنقوشة على الجملون.

"ادخل لتشرب قهوتك!". قالتها شارلوت بصوت عالٍ.

شم باليتير رائحة القهوة الرائعة وسارع إلى المنزل. تم تقديم لحم الخنزير المقلي مع البيض المخفوق على المائدة يتصاعد منه البخار الساخن، وشربوا القهوة. كانوا يشربون القهوة ويأكلون لحم الخنزير حتى لمعت شفاههم وأصابهم من الدهون، أعادت شارلوت ملء طبق الخبز ثلاث مرات.

كل شيء في الخارج كان أبيض اللون وقد انعكس ضوء صافٍ على الغرفة بأكملها. تدريجيًا بدأ ضوء النهار يتخلل البياض. بدأت الطاحونة، بردائها الأبيض، عبر الضفة الأخرى لنهر "نت"، تلوح بيديها في السماء الرمادية، ظهر خيال أسود صغير لمزارع يعبر الحقل المنحدر، وصدى صوت رنين واضح لأجراس زلاجة من الطريق السريع. انتشرت أسراب من الغربان السوداء من البرج فوق الحقول البيضاء.

"سنخرج الزلاجة لنذهب في جولة!". قالها باليتير بملء فيه واستطرد قائلاً: "يجب أن نحصل على بعض المتعة! لقد نزلت الجنة على الأرض! انظري جيداً!".

كلاهما ذهب ليرتدي قلنسوة من جلد الدب ومغطاً من الفرو. أخرج باليتير الزلاجة الأنيقة من سقيفة العربة وربط سرج بيارد بها؛ تم تعليق أجراس نحاسية كبيرة بالفرس، تدق من أقل حركة.

بينما هو ينتظر ماريكا، أخرج الدجاج من حظيرته وبعد أن نقر للحظات، عاد مرة أخرى للحظيرة وتجمع سويًا. فقط طار الديك الأخضر الكبير ذو العرف الأحمر الذهبي فوق السور وصاح بقوة فوق الأراضي الثلجية الهادئة، ثم رفرف بجناحيه ودخل مرة أخرى بينما يرد عليه صياح آخر من إحدى القرى المجاورة خلف الأراضي الخاوية.

ثم أتت ماريكا وقفزت بنشوة داخل الزلاجة. شارلوت؛ التي كانت لتوها تقوم بغسل الجزر للحساء الذي كان وضع بالفعل على النار وبداخله قطعة لحم كبيرة، خرجت وقالت:

"إنها بالفعل تبدو جميلة. هل يمكنك أن تقلني إلى الحداد؟".

أجابتها ماريكا: "بالطبع! اصعدي!".

ولجت شارلوت داخل الزلاجة وهي سعيدة وتقول:

"سوف تعيدني إلى المنزل مرة أخرى، الحساء على النار بالفعل!".

نبح ليوبارد، أشعل باليتير غليونه ومال للأمام؛ فرقع السوط، رنت الأجراس وانطلقوا في البلدة البيضاء العظيمة.

مرت الأشجار والحقول البيضاء بجوارهم على الجانبين، أمسكت شارلوت بماريكا في خوف، عبروا الثلج في سرعة وهدوء دون صوت. كانت سعادة كسعادة السير والاندفاع والطفو في الهواء.

كان كل شيء أبيض اللون؛ الأشجار والطرق والحقول، جميعها مغلقة بالأفق الرمادي. اختفت المزارع تحت الجليد؛ لا يوجد أي كائن حي، عدا غراب أسود هنا وهناك يندفع للأسفل نحو الحقول. أصبح بإمكانهم رؤية وهج سقيفة الحداد بعيدًا. هنا وقف باليتير ليحث الفرس ليسرع.

صعدت المرأتان إلى حيث النيران المتوهجة المشتعلة، بينما باليتير، لتوفير الوقت، أخذ يساعد الحداد وصبيه من خلال نفخ الكير. بينما كانوا يدقون على الحديد المتزايد والنار توهجت باللون الأحمر داخل ورشة الحدادة، لم يستطع باليتير أن يرفع عينيه عن المدخل والبلدة البيضاء التي تمتد بالخارج إلى مدى بعيد. كان لا يطيق صبرًا أن يعود للخروج على الجليد، ليدخل هذا العالم الأبيض الجميل النقي؛ فأخذ يضخ الهواء في المنفاخ بقوة حتى تطاير الشرر إلى السطح.

بدأت شارلوت تشكو أن الحساء سوف يغلي. "لو لم يكن الجليد، لكنت ذهبت إلى المنزل سيرًا على الأقدام". قالتها بتذمر وهي تدب بقدمها لنفاذ صبرها.

لكن بيارد كانت معدة للرحيل بعد وقت قصير. هرعت شارلوت إلى الزلاجة وانطلقوا.

قالت شارلوت: "اسرع من أجل الحساء!".

ثم فوجئت بالزلاجة تأخذ منعطفًا آخر.

"لماذا يا فتى؟". صاحت في ارتباك "أنت تسير في طريق خاطئ!".

قال باليتير: "سنسير للأمام على طول الطريق!".

قالت بائسة: "يجب أن أعود للمنزل من أجل الحساء!".

"لن نحتاج لحساء". أجاب باليتير وهو يلمس بيارد بالسوط بهدوء، واستمروا في السير بعيداً.

لكن شارلوت لم تستطع أن تصمت وأرادت النزول لتسير إلى المنزل.

قال باليتير: "كلما تحدثت أكثر، كلما تحركنا بسرعة أكبر، أنت مضطرة أن تأتي معنا!".

قالت باستسلام: "إذاً لن أتحدث عن الحساء". واستطردت: "لكني سوف أفكر فيه طوال الوقت!".

في ربع الساعة وصلوا إلى غابات الصنوبر والمروج التي تبدأ على الضفة الشمالية لنهر "نت"، حيث تقع حقول باربنت الخصبة باتجاه الجنوب.

غابة التنوب رائعة في الشتاء، ضخمة ومهيبة. بدت أشجار التنوب وكأنها تنحني وتمد أذرعها لتستقبل الجليد؛ وحينما التقت مع الجليد شكلاً سويماً ممرات لانهائية من الأشجار التي تحمل الثلج فوق الأرض المتموجة المتجمدة، وكأنه شعور الدخول إلى

الكنيسة.

تُليت الصلوات تلقائياً فوق الشفاة في ظل هذا المكان الغريب الهادئ. أنصت ثلاثتهم في رهبة إلى هذا السكون المهيب، انكشمت قلوبهم حتى إنهم بالكاد تجرأوا على المضي قدماً حتى صاحت بعض الطيور أو اهتزت أجراس بيارد.

رنت أجراس بيارد ببهجة، جلجلة رقيقة فوق الأراضي الوعرة المغطاة بالثلج. بدا وكأنها جعلت الأراضي الواسعة تجلجل؛ الغابات بدأت ترن معها؛ أمطرت إيقاعات فضية من قمم الشجر، يتردد صداها بعيداً وعلى نطاق واسع فوق كل هذه المنطقة البيضاء.

لم يقابلوا في طريقهم سوى امرأة عجوز فقيرة ترتدي عباءة، تحمل حزمة من الحطب فوق رأسها تسير باتجاه كوخ صغير في البعد. آثار أقدامها في الثلج شكلت سلسلة طويلة على طول الطريق من الغابة.

يالها من سعادة! الاندفاع عبر الثلج الناعم في جوف هذا البياض واللمعان الفضي وسكون الطبيعة الإلهي! كانت هذه عظة ممتعة للروح. ظل باليتير واقفاً منتصباً ليمتص كل هذه البهجة، يفرقع بسوته حتى تردد الصدى مرات ومرات، أو يغني أغنية قديمة. أخذ ليوباس يسابقمهم في المقدمة وينبح على الغربيان.

وصلوا أخيراً إلى قرية وتوقفوا عند حانة تسمى "البجعة". دخلوا ليحصلوا على شيء للشرب. كان مكاناً صغيراً هادئاً، فقط

مجموعة منازل حول كنيسة من الطوب الأحمر وخطوط بيضاء، مكسوة الآن بطبقة من الثلج الأبيض، كانت هادئة بقدر ما يمكن أن تكون هنا. يبدو أن الحياة قد تم نسيانها، مثلها مثل هؤلاء الموتى الذين ظهرت صلبانهم السوداء الملتوية الصغيرة المثبتة داخل الثلج في ساحة الكنيسة.

دقت ساعة البرج معلنة الساعة العاشرة، وتردد صدى الدقات فوق أسطح المنازل والحقول.

أراد باليتير أن يلقي نظرة على المدينة من برج الكنيسة. بينما تنتظر الامراتان بجوار المدفأة، يتحدثان مع صاحبة الحانة عن الطقس القارس. خرج باليتير لبحث عن راعي الكنيسة الذي كان يعمل صانع أحذية وله ساق خشبية. لم يكن من السهل إقناعه لكن النقود أقنعتة.

صعدا الدرج الحجري المتعرج معًا، وزحفا عبر الأخشاب المغبرة حيث ظهر الجرسان معلقين في الضوء النافذ من نوافذ البرج، استطاع باليتير أن يرى البلدة والمزارع والغابات في كسائها الأبيض وأبراج الكنائس البعيدة عبر الشقوق؛ لكنه عزم على أن يصعد للأعلى ليقترّب من قمة برج الكنيسة ثم قام بفتح نافذة خشبية على مصراعها، وها هي! الطبيعة تكشف عن روحها.

كان هناك بالأسفل قرية صغيرة بحدائقها الصغيرة ذات الحدود المربعة بالإضافة إلى لطريق الوحيد المؤدي للحقول المفتوحة

التي تمتد لأميال مع الغابات والسهول والقنوات والمنازل المنعزلة وطواحين الهواء الدوارة والأبراج والطرق المحاطة بالأشجار التي تؤدي إلى المزيد من القرى، ظهرت بعيداً تلال جروبندونك، باهتة أمام السماء الرمادية.

لم تكن الحياة البشرية متواجدة في كل هذا البياض كان من الصعب رؤيتها، فقط ظل أسود وحيد في حقل أو فوق جسر فوق قناة، وعربة تسير على الطريق السريع.

هذا العالم شديد البياض! كما لو أنه لم يعد موجوداً للحياة والتكاثر، ولكن فقط ليكون أبيضاً نقياً جميلاً. كل شيء كان ساكناً مثل الجليد.

"إن الأرض في حالة تعبد! دعني أدق الجرس!".

أجاب راعي الكنيسة: "لا، لا! ليس حتى الغدا! لا توجد خدمة اليوم!".

لكن باليتير توجه لأحد الأجراس، وصعد إلى أحدهما وتمسك بأحد الحبال وأخذ يدفع ويسحب حتى بدأ الجرس في التحرك؛ ثم بدأت المطرقة ترتطم بالجسم البرونزي للجرس وأصبحت الأرجحة كاملة. تردد صوت الدقات في برج الجرس وحلق للخارج عبر النوافذ كأنه كورس للأصوات البرية. شد راعي الجرس أقاله الهزيلة في ارتباك، وفي الأسفل نظر القسيس من نافذته مندهشاً. عندما استمتع باليتير بالمرح كاملاً، عاد إلى حانة "البجعة"

ليشرب بعضاً من القهوة، وعادوا إلى المنزل من طريق آخر.

كان صوت درس القمح الهادئ يسمع من هنا وهناك، وفجأة سمعوا صوت طلقة بندقية، ثم علا من خلف الشجيرات صوت صراخ الخنزير المقتول. حث باليتير بيارد ثم وصلوا إلى مكان إصابة الخنزير والجزار يملأ الدماء في وعاء فخاري، وقد تناثرت بعض القطرات الحمراء فوق الجليد الأبيض، بينما كانت زوجة المزارع تشعل النار في الأغصان لتشذب الشعيرات.

كان خنزيراً سميناً؛ سأل باليتير إذا كان يستطيع أن يشتري نصفه. بدؤوا في المساومة والمقايسة حتى اتفقوا وتمكن من الحصول على نصف الذبيحة مقابل سعر معقول. بعدما تم تنظيفه من الأحشاء وضعه باليتير في الزلاجة، بين ماريكا وشارلوت، ومن ثم عادوا إلى المنزل بين مناظر الطبيعة الشتوية البيضاء.

## الفصل الحادي والعشرون

### أغانٍ قديمة

بعد منتصف النهار تبدلت السماء وأصبحت زرقاء باهتة مع ضوء الشمس الرقيق.

كان البرد قارسًا، جلس باليثير بجوار المدفأة ومعه غليونه وماريكا تجلس بجواره مع مشغولاتها التي تحيكها. كانت شارلوت تجلس على الطاولة ترتق بعض الجوارب. كانت الأجواء مريحة. القط، تايبارت، يجلس في حوض ماريكا؛ دقت ساعة الحائط برقة، الغلاية النحاسية تصفر فوق النار. كان باليثير يحب مشاهدة شعلات اللهب الممتدة حول قطع الخشب الضخمة. كان السلام يعم كل شيء وطقطقت النيران. بالخارج كان الراهبات والمترهبون الجدد يتزلقون فوق القناة المجمدة بجوار الدير. ثرثرتهم وضحكاتهم ترددت بوضوح عبر الهواء. قام فتیان بتجريف الجليد على الجانب الآخر من النهر، كان هناك حشد من الناس يتزلقون؛ أناس من المدينة وآخرون من القرية أيضًا، وبائعو البرتقال والكعك يجولون في المكان.

انتظر باليثير في المنزل من أجل منشدي الترانيم الذين حضروا ليتمنوا لهم عيد ميلاد سعيدًا. في بعض الأحيان هؤلاء

القوم ينشدون ترانيم قديمة وبسيطة ومؤثرة. كان هناك العديد من الحفلات بالفعل؛ للصغار والكبار.

دق الجرس مرة أخرى، ودخلت خمس نساء؛ ثلاث منهن يرتدين غطاء للرأس، والأخريات يرتدين شالات ملونة زاهية حول رؤوسهن.

"هل نغني لكم يا سيدي؟".

أجاب باليتير: " لنستمع".

وبأصوات النحيب غنوا ترانيم مثيرة للشفقة:

"كان صباح العام الجديد

كان في يوم رأس السنة الجديدة

عندما قابلت مريم المجدلية، الخاطئة

اليسوع في طريقها.

قومي يا مريم المجدلية!

قومي من حزنك العميق،

لأن خطاياك كلها ستغفر

وإن كانت ضعف خبثك".....

عندما انتهين من الغناء قدموا لهن الخبز وكعك التوابل. وبمجرد زهابهن دخل الرجال المكفوفون الثلاثة، أحدهم يحمل

نجمة ورقية محاطة بالزهور.

"أتينا إلى هنا كثلاثة ملوك مع هذا النجمة، ويمكننا أن نغني لك أغنية جديدة رائعة".

"من المؤسف أنكم لا ترتدون ملابس جيدة".

"نحن لا نستطيع رؤية بعضنا بعضاً يا سيدي".

قال باليتير: "انتظروا لحظة! سوف تحصلون على أموال أكثر إذا ارتديتم الملابس المناسبة. شارلوت، اجلبي بعض الملابس القديمة من العلية!".

وألبسهم باليتير الملابس.

الأول، كان قصيراً وبديناً، ذا عيون حمراء ملتعبة، حصل على قطعة من حشوة بيضاء ملصقة على وجهه وغطاء رأس أزرق اللون. الثاني، كان أحذب صغير البنية وجفونه مغلقة؛ قصت ماريكا له تاجاً ورقياً وثبته بورق الشيكولاتة الفضي فوق قبعته المصنوعة من اللباد، ووضعوا أحد مآزر شارلوت الزرقاء حول كتفيه لتكون مثل العباءة. أحبها المكفوفون وتحسسوا بعضهم بعضاً وهم يضحكون. الرجل الثالث الذي كان يحمل صندوق تبغ ليجمع فيه المال، كان طويل القامة، نحيفاً يشبه ليو الثالث عشر، وقد غطى بياض عينيه مقلتيه.

أخذوا يسمرون وجهه ووضعوا قبعة طويلة مهترئة فوق رأسه. في بضع دقائق، كانوا جميعاً مستعدين كالحكماء الثلاثة،

جاسبار، ملكيور، وبالتازار.

قال باليتير: "الآن غنوا لنا".

ضحك الصعاليك الثلاثة، الذين لم يتمكنوا من رؤية بعضهم بعضاً بل لم يتمكنوا من الإبصار أبداً، وأخذوا يمزحون ويضحكون لأنهم يعلمون أنهم متأنقون.

بدؤوا في الغناء وقد ارتسمت ابتسامة على وجوههم، بينما يلوح الرجل القصير بنجمته. ارتعشت أصواتهم وتقطعت، واستمروا في الغناء تقريباً دون أي لحن:

"الرعاة يجلبون الحليب والتوابل.

يستلقي يسوع في المعلف.

قم بتعليق معاطفك خلف الباب.

والده بالتبني، يقوم بمسح الأرض.

تقوم مريم بدهان جسده بيديها

جوزيف يجلب أشرطة التقييط؛

يبكي الرضيع متذمراً من العطش

والأم تعطي الطفل ثديها.

حلقت حولهم طيور مغردة جميلة،

وهدهد الملاك الطفل لينام؛

ثم يعمل جوزيف في عتمة اليوم،  
ويقوم بغسل جميع الملابس.  
يوقد النار ويجلب الأخشاب،  
حتى يحصلوا جميعًا على الدفء والطعام،  
وسعادة جوزيف تزداد كثيرًا  
عندما يتوقف الطفل الجميل عن البكاء.  
نم يا يسوع، نم يا إيمانويل!  
نم يا أمير إسرائيل العظيم!  
آلاف الرفاق يمرحون ويسعدون  
فرحين أنك ولدت اليوم.  
الرب الكريم عند أبواب الجنة  
مستعد لمنع بغضه.  
من أجل يسوع سيتوقف غضبه.  
سوف يجلب الطفل حسن النية والسلام.  
الأم العذراء، جميلة ودمثة،  
إنها تطعم وتكسو الطفل المقدس.  
يداه تربت على صدرها وشعرها،

ليضفي عليها البركة.  
تدفق رغبة حلوة من يسوع،  
حلاوة تشعل النار في روعي.  
بيت لحم المباركة، هكذا أقول،  
تقف متواضعة في الجنة اليوم!".  
كان باليتير متأثراً جداً، انهمرت دموعه.  
وقف المكفوفون الثلاثة متلهفين في انتظار النقود وكعك  
البهارات.

سألت شارلوت: "ماذا نعطيهم؟".  
أجاب باليتير: "هذا أكثر من أن تشتريه النقود".  
"اعطنا ما تظنه الأفضل يا سيدي". قالها الرجال الثلاثة.  
أعطى باليتير أوامره: "أعطوهم نصف الخنزير هذا".  
اندهش الرجال الثلاثة بالفعل. تحسسوا الذبيحة بأيديهم  
المتسخة وهم يثرثرون بعضهم لبعض في سعادة غامرة. ثلاثتهم  
أمسكوا به، ألقوا بصندوق التبغ والنجمة وحملوا الخنزير معهم  
إلى الدير، وذهبوا وهم يغنون.

ظل منشدو الترانيم يتوافدون حتى المساء. واصلت مجموعة  
البيجويين الترحلق فوق القناة وكان لا يزال هناك تجمع في مرعى  
الطاحونة. (البيجويين: هي أعضاء في هولندا الأخوة العلمانية

ليست ملزمة بالندور)

"سوف أذهب للتزحلق الآن". قالها باليتير وارتدى ما يناسب النزول في البرد ثم خرج إلى الحديقة. صعد إلى القارب الذي كان مجمدًا من الثلج، جلس باليتير ليرتدي زلاجاته؛ ثم خطا أول خطوة يحاول أن يتحسس الجليد ثم اندفع يتمايل بخفة كالطير في الهواء.

تزلج على طول مجرى النهر المتجمد، ورأسه يعلو فوق السد لذلك كانت لديه فرصة لرؤية جيدة للمناظر الطبيعية.

بدأت الشمس تغرب وتغطس في الضوء الأحمر الناري في المساء الأرجواني؛ أضفت فوق الجليد ضوءًا قرمزيًا والقمر يتلألأ في خفوت. كان هناك نجم واحد يضوي فوق الطاحونة التي كانت أشرعتها لا تزال تدور في حمرة مغيب الشمس.

استمر باليتير في التزحلق، ينحني قليلاً كأنه محمول بالرياح، ثم وصل أخيراً إلى دافل. كان الظلام قد حل وباتت الأضواء مرئية في المنازل. ألقى القمر الفضي بظلاله فوق الجليد. كل الأصوات قد اختفت. أمسك باليتير ببارجة عالقة بقوة في الجليد، وسحب نفسه إليها ثم جلس هنالك يتأمل الليل. في وهج ضوء كابينة أصفر، استطاع أن يرى سيدة تغني لطفلها ليخلد إلى النوم.

عندما حل المساء، سار باليتير بجوار السد وزلاجاته متدلية فوق كتفه عائداً إلى المنزل. خيم ضوء القمر الفضي الأزرق على الأجواء. وميض النجوم أصبح واضحاً، وكان كل شيء مشرقاً

كالنهار؛ شديد الهدوء والعزلة. كانت أقدامه تسحق الثلج، ورافقه ظلّه الأزرق القصير. بينما امتدت الظلال السوداء للأشجار، وظلت تمتد فوقه وهو يسير. تحرك القمر معه من خلف الأشجار السوداء. بينما تقف الأشجار على الضفة الأخرى من النهر في ضوء القمر، كانت النجوم تتلألأ بين فروعها، وكأنها أشجار بلورية ينبع منها الضوء.

سكون عظيم خيم فوق كل هذا؛ والثلج وضوء القمر الأزرق الساحر جعل منه عالماً خيالياً.

فجأة حلقت فوق رأسه أجنحة ضخمة مندفعة، نظر للأعلى ورأى سرباً من البجع البري، سرباً طويلاً جداً ممتد عبر السماء. وقف باليتير ساكناً يشاهدهم وسمع صوتهم يهللون بعيداً عن القمر المتلألئ الذي قاموا بتغطيته للحظة، ثم عبروا بعدها إلى ليلة الشتاء اللامتناهية وضوء القمر خلفهم... عاد باليتير إلى المنزل وفكره منشغل بسرب الطيور الغامض. عندما وصل إلى المنزل وجد أربعة من أخوات البيجوين يجلسون مع ماريكا وشارلوت في ضوء خافت حول إناء من البراندي الدافئ؛ انعكس الضوء الأزرق فوق وجوههن المتحمسة، وقد كانت رائحة الفطائر المخبوزة حديثاً تفوح من الغرفة.

صاح باليتير: "مرحى!"، فقد كان يتضور جوعاً ومعدته خاوية كالمقربة، واتجه إلى المائدة والتهم العشرات منها وهو يصب فوق كل منها كمية من البراندي.

بعد ذلك قاموا بإضاءة المصباح، وبدأ باليتير يلعب "لعبة الإوزة" القديمة مع الراهبات حتى حان وقت الذهاب إلى قداس منتصف الليل.

شاهدن باليتير وهن يرحلن، كما رأى الناس يأتون على الطرق في جميع الاتجاهات. ثم عاد كل شيء هادئًا وأبيض وفضيًّا. اليوم يوم عيد ميلاد المسيح. أدارت الخراف وجوهها نحو الشرق، وطن النحل داخل الخلية.

تنزل السلام على العالم.

تألقت النجوم عاليًا في السماء، وفي الأرض صلى البشر من أجل السلام، السلام الإلهي.

تأثرت روح باليتير وارتجف، ثم أحضر بوق الصيد، وخرج بجوار سور الدير وبدأ يعزف في ظل ضوء القمر.

حلقت النغمات البطيئة الطويلة فوق الحقول المغطاة بالثلوج، وذابت في غابات الدير والأراضي الفضية. عندما عاد للداخل تردد صدى من قرية بعيدة.

كان باليتير سعيدًا كالأطفال ومحبوبته ماريكا الجميلة بين زراعيه. كان هذا يومًا جيدًا، بمثابة مأدبة للقلب والروح. سعادة روحية.

غط في النوم وهو مبتسم، بينما السلام والبياض يعم العالم البارد. كان السلام الإلهي جميلًا!

## الفصل الثاني والعشرون

### موسيقى الذوبان

بعد أن كسا الصقيع الأشجار لمدة يوم وملاً كل جوف لم يتمكن الثلج من الوصول إليه؛ بدأ ذوبان غير متوقع. فجأة ساد طقس معتدل. شعرت به الأسطح والأشجار المكسوة بالثلج وأخذ الثلج في الذوبان، بدأت القطرات في السقوط وانزلقت رقايات الثلج كما استمر الجليد في الانكماش والتصدع وعلا صوت الطقطقة. بعد ثلاثة أيام انجرفت كتل الجليد مع تيار النهر.

"الذوبان يعزف الموسيقى في جميع أنحاء البلدة" قالها باليتير للقسيس وهما يقفان فوق الجسر الحجري الصغير فوق فرع ضيق من نهر "نت" الذي يلتف حول الدير. وقفنا يسمعان صوت الذوبان كأنه يغني ويتردد عبر جدران الدير. كان الدير مهيباً وفي غاية العراقة صباح ذلك اليوم من شهر فبراير؛ في عيد كاندليماس (عيد دخول المسيح إلى الهيكل). جميع الأسطح والجمالونات الحمراء والجدران البيضاء تقطر ماء، كل أشجار التفاح والكمثرى في الحدائق مشبعة بالرطوبة، لكنها تلمع في ضوء الشمس الصافي الباهت. الشمس ليست ساطعة لكنها جعلت كل شيء مغطى بالماء؛ يلمع كما لو كانت أشعة شمس

صيفية في أوجها. بدت الشمس في السماء جديدة ومنعشة كأنها بركة ذهبية لامعة. لا تزال بعض قطع الثلج تتخفى هنا وهناك؛ فوق حواف بلاطات الأسقف أو فوق شجرة أو في وعاء زهرة أو فوق دلو مقلوب. هو الثلج ذاته الذي سبق وجعل العالم برافًا، لكن زمنه قد انتهى ومضى. بدأت حياة جديدة تصحو تحت الجليد، ويجب عليه أن يفسح لها مجالًا. خصوم الجليد قد وجدوه وبدؤوا يتقدمون تحت قيادة إله الشمس اليافع، استلّوا أسلحتهم البراقة أمامه فاخترقوا ومات؛ يا له من مسكين، يذوب في قطرات وتيار الماء.

خرج صوت الموسيقى الناعمة لقطرات المطر من كل شيء، تلمع في ضوء الشمس كخيوط من اللؤلؤ معلق في الأشجار والأسطح. تسقط من ممرات الصرف في قطرات سريعة وثقيلة، تحدث همهمة في الأنابيب السفلية وتتناثر على الرصيف وتسقط مثل قطع الرخام فوق الجليد الذائب المتضائل. عزفت كل أنواع الألحان؛ السريعة منها والبطيئة، نغمات بالقطرات وموسيقى الراب المتقطعة فوق الدلاء والبراميل ومقطوعات القرع والنقر. تمت إضافة المزيد من النغمات لموسيقى الفوغا، تلك التي تسمعا أثناء استماعك لموسيقى الذوبان. أغنية الشمس العظيمة اليافعة؛ الأصوات الأولى للربيع! امتلأت السماء الساطعة برنين الأجراس.

صاح القسيس: "قد بات الطقس الجميل وشيكًا!". واستطرد بعد لحظة صمت وتنهيدة: "من المؤسف، يا باليتير، أنك مضطر

أن تترك بلدتنا. لم لا تبقى وتبني منزلاً آخر أبعد من ذلك؟ وعندما يمر عام ستكون قد تعودت على نهر "نت" الجديد وتعجب به. قل إنك سوف تبقى".

أجاب باليتير: "صحيح، ربما يكون المكان أفضل بعد التغيير، لكن رغبتني وفكرة العيش في أي مكان وكل مكان قد سيطرت عليّ، يجب أن أرحل. لقد خطرت لي الفكرة في سبتمبر، يوم زفافي، عندما رأيت طائر اللقلق يطير بعيداً مرتفعاً في الهواء!".

سأله القسيس: "وأين تريد الذهاب؟".

"لا أعلم بعد، كل الأماكن سواسية بالنسبة لي".

"سوف يكون هناك العديد لتراه، ولو لم أكن رجلاً عجوزاً، لكنت ذهبت معك".

وسأله باليتير: "ماذا عن عملك كقسيس؟".

أجاب القسيس ضاحكاً: "نعم، كدت أنسى ذلك!".

"هيا بنا، لنذهب إلى فرانسو لنشرب نخب تلك السيمفونية المائية!".

تحركا بعيداً عن الدير وسارا بجوار السور. ثلاثة صفوف مزدوجة من الأشجار الضخمة، مثل ممر الكنيسة، لمحات من الأراضي تظهر عبر الفراغات كأنها نوافذ، تقطر عليها قطرات سريعة كبيرة لامعة كأنها سيل من اللؤلؤ البرية الساطعة. محدثة جلبة فوق الأشجار، تتناثر من فرع إلى آخر في آن واحد أو

تسقط واحدة أسرع تلو الأخرى. في بعض الأحيان تسقط دفقة واحدة، تنفجر فوق قبعة القسيس المستديرة، ثم تنزل ببطء وتعود مرة أخرى في صورة دفقة كبيرة فوق كنف باليتير، وها هو أصبح مبتلاً مثل قماشة الصحون.

قال باليتير: "لينهمروا، تفوح منهم رائحة الربيع!".

وتركا أنفسهما ليبتلاً حتى أصبح الماء يتدفق من عباءة القسيس وأصبحت قبعة باليتير كأنها محاطة بسلسلة من الخرز. لمع كلاهما بالماء.

قال باليتير: "استمع!".

صاح القسيس: "أسمع هذا!".

واستمعت أذانهما إلى موسيقى قطرات المطر الباردة المتلائة. امتلأت البلدة بالحن عذبة ورقيقة. تتناثر رقاقت الثلج، وامتلاً الأفق ببخار رقيق يغطي الأسقف والأشجار الداكنة. نسجت الشمس المائية خيوطاً ذهبية لامعة عبر الضباب، لتجعل المنظر يبدو كأنه قماش شرقي قديم.

"انظر!". صاح باليتير وهو يركض نحو بقعة ثلج فوق العشب، "بقعة ثلج! بقعة ثلج!".

بداخل رقعة الثلج تلك، شقت زهرة صغيرة طريقها وفتحت أوراقها البيضاء البريئة، رغم البرد والاحتياج إلى الهواء.

صاح باليتير في فرح: "لقد وضع الله بركته في الأرض بالفعل!".

قال القسيس: "نستطيع أن نشكر الله جيداً أن الشتاء قد انتهى، نحن لدينا عيد كانديماس".

"أستطيع أن أسمع صوت تكسر الضوء".

"الأشجار تقطر فرحاً!". قال الآخر.

"هيا بنا نذهب لنشرب كأساً من البيرة مع فرانسو؛ لنشرب نخب قدوم الربيع". ويقوله هذا أمسك باليتير بذراعه وعبرا النهر سوياً. لكن الجليد تكسر وانجرف في كتل صفراء كبيرة، متصدعاً بينما يجرفه التيار. كان القارب الصغير عالقاً بقوة في الجليد.

قال القسيس ضاحكاً: "لكن نحن لن نستطيع العبور من هنا يا باليتير، دعنا نذهب من الطريق داخل القرية".

"هذا سهل، فقط أمسك بيدي" باليتير مجيباً.

قال القسيس: "لا لا! أنا ما زلت صغيراً على أن أفقد حياتي".

رد باليتير: "أنا أستطيع أن أقفز".

استسلم القسيس لحكم باليتير، فقد كان يثق في رشاقتة.

حمل باليتير القسيس فوق ظهره، نزل على أحد جوانب الضفة وقفز فوق إحدى الكتل المنجرفة. طقطقت وانزلقت للأسفل لكن قبل أن تبتل قدم باليتير قفز إلى ثلاثة أو أربع كتل ثلجية متتالية

حتى انتهى به المطاف في منتصف النهر يقف فوق طبقة جليد صلبة.

صاح القسيس: "هيا أكمل!".

"لا" قالها باليتير وهو يساعد القسيس في النزول على قدميه، "أتشعر كم هو جميل أن تسير فوق الماء هكذا" ثم انجرفا مع النهر. لمحتهما شارلوت فهرعت إلى الباب في زعر، وهي تضم يديها وتصرخ:

"إنهما يغرقان! القسيس يغرق! أحضروا حبلًا! النجدة! النجدة!".

ركضت بأقصى سرعتها إلى النهر وتبعت الرجلين المنجرفين. لكنها فقدت صوابها عندما قال لها القسيس بصوت عالٍ: "حسنًا شارلوت! ألا تعتقدين أنني أصلح أن أكون قديس بطرس جيدًا؟".

اهتز جسدها الممتلئ وصاحت في هياج: "لا يا رجل....".  
تركا أنفسهما لينجرفا هكذا ليصلا إلى فرانسو، ليحتفلوا بانتهاء الشتاء وحلول القطرات المتلائة.

## الفصل الثالث والعشرون

### مزمار القرية

عندما ذاب الثلج والجليد، اختفت الشمس لبعض الوقت وهطل  
مطر خفيف لمدة أسبوعين. ثم هبت رياح خفيفة من الجنوب  
خلف غابة الدير، بعد أربعمائة الرماح بيومين انتشرت براءم من  
الأوراق السميكة فوق فروع الشجيرات والأشجار السوداء.

تأمل باليتير هذا الصباح من نافذته في البرج وصاح قائلاً:

"إنني أرى الربيع! أستطيع أن أرى الربيع!". ترك إفطاره؛  
واندفع لمشاهدة بواذر الحياة الأولى.

اختبأت الشمس خلف الغيوم البعيدة الرقيقة، لم يكن الأفق  
بمثل هذا النقاء والوضوح من قبل. كانت أعشاش العققع السوداء  
واضحة في الأشجار البعيدة وكان يمكن رؤية طواحين الهواء  
الدوارة عبر فروع الأشجار. كانت البلدة كلها جرداء ومفتوحة  
للمشاهدة مباشرة مع خلفية الأشجار الغناء، كما لو كانت المرة  
الأولى.

صاح باليتير: "أيتها الأشجار! أنت أيادي الأرض! الأيدي التي  
تؤدي بها عملها، التي تصلي وتمرح بها وترفعها للسماء كل  
عام بكل قواها وخيرها الوفير. تقدم بيديها ثمارها الحلوة إلى

البشرية. فلتحيا الأشجار!".

وبالنظر حوله؛ هناك عبر النهر وجد رجلاً يجلس بداخل إحدى الأشجار يقطع الفروع بفأس. وبعيداً كان هناك مزارع وزوجته يقلمان الشجيرات في حديقتهما. كانت مصدر أصوات مبهجة في ظل هذا السلام الذي يعم الأراضي.

صاح باليتير: "إنه قمر جديد اليوم! ستتمو الأشياء مثل التيار!". ذهب إلى الطابق السفلي ليجلب سكين التقليم.

نادته ماريكا: "تعال وتناول قهوتك أولاً!".

وقالت شارلوت: "نحن قد تناولنا قهوتنا".

"ليس الآن حبيبتي". قالها مجيباً ماريكا، "لكن تعالي للخارج لتشاهدي الربيع. الهواء سيكون مفيداً لك وللصغير: سوف تجعله يسرع".

وجذب ماريكا إلى الحديقة.

وعلا صوته بحماس: " فقط انظري للأشجار! إنها تتمدد للأعلى!". كسر غصيناً من شجرة قرنفل. "انظري إلى قطعة الخشب ذات الرائحة الطيبة تلك، تفوح منها رائحة البرتقال!". ثم قام بغرسها في شعر ماريكا الكثيف. وقفت الأشجار حولهما، تبدو غريبة جداً في شكلها الأسود العاري، بفروعها المتشابكة والملتوية بعشوائية، كما لو أنها خرجت من الأرض بمعجزة

وتحجرت مع أول تدفق لعصارة الحياة.

لكنهم كانوا مرنين وبهم ليونة كخصر فتاة شابة، قد امتصت جميعها قوة الحياة المتحمسة المتصاعدة. كان من بينها أشجار التفاح المجوفة الملتوية الصلبة مثل الصخور، تبدو ميتة بجوار كل الأشجار الحية! لكن مع أول رياح معتدلة ستستيقظ مرة أخرى، وتنفجر قشرتها، وستظهر براعم صغيرة، بسرعة وكثرة مثل أشجار المشمش.

أسند باليتير السلم على شجرة كمثرى، ذات الموسمين، لكنها تبدو سوداء وبأئسة من المطر والبرد.

صعد السلم، أمسك بأحد الفروع بالمقص وتأمله جيداً ثم قطعه، سقط الفرع الأسود أرضاً كاشفاً عن لب الخشب اليافع الأبيض كالتفاح، عندما شاهده باليتير ضحك عاليًا كالطفل.

"كم يبدو جديداً! ناضراً ويافعاً! تعالي والقي نظرة!" واشتم الفرع ولمسه بطرف لسانه ليتذوق العصارة اللاذعة.

جاءت ماريكا بناءً على نداءه لكنها لم ترد أن تخاطر بوزنها الثقيل فوق السلم.

علق باليتير قائلاً: "يا للخسارة، إن طعمها طيب جداً!"

ثم عاد للتشذيب مرة أخرى.

بدأت الشجرة تبدو مختلفة جداً الآن. بدت يافعة أكثر بعد تشذيبها وقد امتلأت بالبقع البيضاء، ناضرة مثل طفل يرتدي

قميصًا نظيفًا بعد استحمام يوم السبت. تبادل باليتير المزاح مع رجل يقلم أشجاره عبر الضفة الأخرى للنهر، والرجل بدوره قد رد عليه بصوت عالٍ. تبعته شارلوت لتلتقط الفروع.

قالت: "إنه حطب جيد للنار".

فجأة طار طائر أسود إلى داخل الحديقة، وقف فوق أحد الفروع العالية لشجرة الكمثرى الجرداء، أخذ ينظف وينسق ريشه ويلقي نظرة عما حوله. تأمله باليتير وهو يجلس هناك، أسود مثل الفحم بمنقاره الأصفر الزعفراني وفي خلفيته السماء.

قال لشارلوت بصوت هادئ: "صه!"، وغرد الطائر الأسود بنغمات فريدة، وصمت للحظات كأنه يحاول أن يجد شيئاً أفضل، ثم بدأ يغرد بنغمات طويلة واضحة وعالية ثم ينزل تدريجياً إلى أخرى منخفضة وناعمة؛ وفجأة أطلق لنفسه العنان ليغني كما يليق به، حتى انقطعت أنفاسه، وألقى نظرة أخرى عما حوله، غرد لحناً أو اثنين ثم طار بعيداً.

قال باليتير: "يا له من مجنون!".

كانت لا تزال موسيقى الطائر الأسود تتردد في الهواء حينما حدثت ضجة مفاجئة بين الشجيرات، رفرقة صاخبة وزقزقة عصافير تتشاجر من أجل دجاجة؛ يتدافعون كأطفال المدرسة؛ لكن الدجاجة تحررت وطارت إلى داخل أشجار السياج والسرب

كله وراها.

علا صوت ماريكا بسعادة: "تعال! انظر! زهور التيوليب بدأت تزهر!".

قفز باليتير من السلم، جلس على ركبتيه بجوارها لينظر إلى الأوراق الخضراء الفاتحة التي تبدو مثل مقدمة الأسهم، حيث بدأت تطل من الأرض بحثاً عن الربيع.

وهما ينظران، رفرت مجموعة كبيرة من الأجنحة فوق رأسيهما. رفع رأسه لينظر، وقد وجد سرباً كبيراً من الحمام يمر فوق الحديقة ليصل إلى الحقول المفتوحة. نظر بالتير إلى الحقول عبر السياج والضوء الباهت منعكس فوقها. كان المزارعون والأحصنة يعملون بينما تمر القوارب عبر النهر بأشرعتها. قال باليتير: "سوف أذهب في جولة!".

هبّت نسمة رياح خفيفة لتنتشر رائحة التربة المجرفة حديثاً ورائحة السماد عبر الحدائق.

"أعدوا لنا حساء جيداً اليوم. لا أريد قهوة!". ثم دخل إلى المطبخ وأخذ قطعة خبز وزبداء، وركض وقفز من فوق السياج وها هو يسير في الطريق. تبعه ليوباس وركض أمامه وأخذ ينبح في حماس. بمجرد أن انتهى باليتير من تناول الطعام، أشعل غليونه وشاهد الدخان الأزرق يتصاعد في دوائر بسعادة. استنشق الهواء النقي وتأمل في دهشة المشهد القديم الحديث

الموجود أمامه. طواحين الهواء البعيدة ترسم الصلبان في الأفق، أصبح منظر الكنائس والمزارع الآن كما لم يشاهدها من قبل، في ظل أوراق الصيف الكثيفة. شعر وكأنه قد تجدد شبابه. كان قلبه مقهورًا من الحياة بداخل المنزل؛ هو الآن يتلهف ويرتجف ليتذوق رائحة الحقول الجيدة.

يأتي من هنا وهناك صوت فأس أو صوت صياح حاد لأحد الديوك؛ لكن الهواء كان ساكنًا، مليئًا بالحياة الخاملة التي بدأت تصحو وتعمل في صمت. لقد شعر باليتير وتذوق وشم هذه القوة التي كانت تنبض داخل الكون. اخترقت كينونته مع كل دقة قلب؛ غمرته بالسعادة؛ جعلته يشعر بالقوة والمقدرة. بدأ يغني مع أصوات دقات الجرس التي تعزف لحناً قديمًا جميلًا؛ حملته إليه رياح خفيفة عبر الحقول. كانوا يطلقون نغمات ذهبية وفضية، بينما يوجد مزارع يشذب طريق الخروج بتناغم معهم:

"جلسوا على ضفة نهر" .. إلخ.

وصلا إلى المراعي المغمورة بالماء. حلق فوقهما طائر نورس وأطلق صياحًا عاليًا، عندما رآه ليوباس، رفع أنفه للأعلى واندفع بسرعة في الماء وسط قطرات متناثرة متلألئة. وقف باليتير ليشاهد بعض الرجال على ضفة نهر "نت"، يبدون من بعيد في حجم النمل وهم يقطعون صفاً من الأشجار.

"المتسولون المساكين! كما لو كانوا يحصلون على دمهم الجديد".

لكن الحياة لا تموت؛ كلا، إنها تعود دومًا، كانت هناك امرأة حامل تنثر بذورًا هنالك على المنحدر، خلف محراث يجذبه نير الثيران. خلع باليتير حذاءه واجتازوا المرعى المغمور. كانت السماء زرقاء ثم فجأة سطعت الشمس عبر شق في الغيوم وألقت شعاعًا ذهبيًا فوق غابة الدير السوداء، وها هي تلك الأشجار السوداء تتحول للون الأحمر الأرجواني وأصبح المنظر مشرقًا لبعض الوقت. على طريق لمع فيه الضوء كان هناك ظل لشخصين يسيران -رجل وامرأة يحملان حقائب فوق أكتافهما- بينما غطى الظلام الطريق خلف الأشجار. ثم صاح ديك؛ اقتربت الشمس مرة أخرى. رقص باليتير فرحًا.

"إن البراعم تنتفخ، تنتفخ كثدي الأم!".

إنه الربيع، انطلاق الحياة عبر الأرض. انتفضت الحياة من جوف الكون كله ولا يمكن أن يقمعها أي شيء مرة أخرى. قد قامت أمشاط الجنة بتجريفها وتخطيها طوال الليل والنهار. إن جسد الأرض قد تم ذبحه حتى كاد أن يصبح ميتًا، لكن الروح، الروح الإلهية ظلت نقية و متماسكة وها هي الآن قد قامت بقوة بداخل كل الألياف الأرضية.

لقد عاد الربيع غنيًا وقويًا كما كان دائمًا، ليعيش، لا ليفعل شيئًا سوى أن يعيش!

بعيدًا هنالك كان قص صوف الأغنام مستمرًا. بينما كان أحد الخراف ينتظر بصوفه الكثيف القذر في الحظيرة، كان الآخر،

الذي أنهى قص صوفه لتوه، يركض منطلقاً ويثغو في سعادة لشعوره بالهواء النقي فوق جلده.

امتلاً الريف كله برائحة نمو الخشب، وانتشرت أصوات ضربة الفأس وسكينة التقليم، وصوت مطرقة الحداد يتردد في البعد. جاء باليتير من بين شجيرة صغيرة وأوراق الأشجار المتعفنة مجتمعة على هيئة سجادة صلبة، وطار طائر كبير يصيح أمامهم. كان يستطيع أن يشم الخميرة المفعمة بالحياة التي تعمل داخل الأرض والأشجار، ويضع يده عليها ليتحسسها. لم يستطيع أن يشيح بنظره عن الأشجار، وقف يتأملها في إعجاب وهمي تمارس مهامها. كم كانت مليئة بالعصارة من داخلها، وكيف تتصارع وتتدافع لتحصل على حرقتها! القوة الهائلة التي حركت المناظر الطبيعية جعلتها تنطلق وتدور وتلتوي وتلتف. كيف أثمرت الغصون الصغيرة، عندما شعرت بالشمس، أصبحت ورقة شجر، ثم زهرة، ثم ثمرة! إن الأشجار هي أيادي الأرض بكل تأكيد. تنهد باليتير. كم كان يريد أن يكون شجرة ليشعر بالقوة الكاملة لصحوة الحياة عبر عروقه. كانت هناك شجرة دردار معمرة، قد يمتد عمرها لألف سنة، غارقة في الرطوبة. هذا جعله يصيح: "لم يُرني الله أبداً أفضل من هذا!" كان جوفها بارزاً، مليئاً بالشقوق والفجوات في المنتصف، اخضرت من الطحالب والرطوبة وقشور الفطريات، مغطاة باللباب وبأعلى الجذع المفتوح نبتت كتلة صغيرة من العشب وازدهرت زهرتان صغيرتان من زهور الديزي، إحداهما لا تزال برعمًا والأخرى

تفتحت؛ بيضاء كالحليب بحواف قرمزية وكأنه قد تم غمسها في الخمر. جلس باليتير داخل الحطام الحي لهذه الشجرة العريقة وألقى ذراعيه حولها والتفت حولها تمامًا، وتعجب قائلاً: "أوه يا أختاه!".

كان باليتير جائعًا وبعيدًا عن المنزل عندما سمع صوت البوق الذي يعلن الساعة الثانية عشرة من مزرعة مجاورة، فانطلق إلى هذا المنزل لتناول العشاء.

كان النهر في طريقه لكن المد كان منخفضًا، مجرد جدول ماء بين ضفتين من الطين اللامع، فرفع بنطاله حتى ركبتيه ووضع فرده حذاء في كل جيب وعبر النهر.

على الجانب الآخر من الجدول، حيث ترقد الأشجار العجوز المقطعة، كانت هناك حظيرة قديمة الطراز ذات أبراج في الجوانب. قد أخرج خروف رأسه من فتحة في الجدار وحدّق في باليتير بغباء؛ وبجعة تعوم فوق مياه صافية هادئة، تتبعها بطة صغيرة تبطبط. وقف عامل المزرعة في الماء حتى ركبتيه يصطاد الثعابين بالرمح، ومن خلف السقيفة والبركة كان يمكن رؤية جدران المنزل البيضاء من خلال الأشجار السوداء. عبر باليتير الجسر الخشبي الصغير وسأل زوجة المزارع الممتلئة، التي كانت تقلب الزيد في وعاء أزرق بجوار الباب، إذا ما كان يستطيع أن يتناول العشاء.

"بالطبع باليتير، تفضل بالدخول". أجابته صوفيا. جففت

يديها في مئزرها ووجهته ليجلس في مكان على المائدة الممتدة المعدة بأربعة وعشرين طبقاً أو أكثر. جاء العمال، رجال ونساء، من جميع الاتجاهات؛ من المزرعة والحقول والإسطبلات، وجلسوا جميعاً على الطاولة.

صاح باليتير: "يجب أن تعطوني جميعاً البطاطس".

أجابوا جميعاً: "تفضل أنت مدعو إليها!".

أحضرت صوفيا طبقاً ممتلئاً من البطاطس وكميات النقانق لا تزال تتلأأ في المقلاة.

ثم نقر المزارع النحيف طبقه بشوكة، وعم الصمت بعدها، بينما علا صوت حاد لطفل يردد الصلاة. تشابكت الأيدي الخشنة وانخفضت الأعين، بينما علا صوت صياح دجاجة بالخارج. ثم بدؤوا جميعاً في تناول الطعام. كان باليتير يتصور جوعاً؛ فشريحة الخبز التي تناولها في الصباح قد انتهى تأثيرها من فترة طويلة. دون أي تفكير تناول نحو ثلاثين قطعة بطاطس ولم يترك أي شيء من نقانقه، لكن الطرف الذي كان يحتوي على الخيط أطعمه للقط.

بينما هم يتناولون طعامهم سمعوا صوت دمدمة مزمار القربة ودوي صوت ناي. نهضوا جميعاً وذهبوا للخارج. كانوا أربعة من الحكائين، ثلاثة يعزفون مزمار القربة وواحد يعزف على الناي. استمروا في العزف دون أن ينطقوا بأي كلمة. كان الرجال متسخين وشعثاً، يرتدون ثياباً رثة ويلفون حول رقبتهم مناديل

ملونة ووضعوا حزمة من الريش في قبعاتهم. كانت رائحتهم مثل الهواء الطلق والتربة، لكن باليتير اندهش من جمال موسيقاهم. علا صوت موسيقى مزمار القربة في ثلاث نغمات متناغمة، بينما صوت الناي الحاد يتراقص بينهم، يتردد ويتخطى بعض النغمات ويتمايل ويوصل الانسجام الناقص بين مزامير القربة.

عمال المزرعة، خجولون من المتجولين المتسخين، وقفوا يستندون إلى الحائط يستمعون إلى موسيقى الأراضي الأجنبية. عندما انتهت المقطوعة الموسيقية، دار بينهم عازف الناي بقبعته وكل منهم أعطاه نقوداً. ثم بدؤوا يعزفون مقطوعة أخرى قصيرة ورحلوا بخطى متثاقلة.

صاح باليتير: "سوف أذهب معهم! سوف أرشدهم عبر المزارع". وتجول معهم من مزرعة إلى أخرى وازداد إعجابه أكثر فأكثر بهؤلاء الهائمين البائسين. سألهم أسئلة، لكنهم أجابوا بلا مبالاة أنهم قد أتوا من إسبانيا عبر فرنسا وأنهم كانوا في جنوب روسيا وإيطاليا وسويسرا وهم الآن يمرون عبر هولندا إلى النرويج.

كان يود أن يرفع قبعته لهم، هؤلاء الهائمين الذين قضوا حياتهم مع الموسيقى في العديد من الأراضي. هناك شيء عظيم بهم؛ كانوا شعراء. الآن انشقت السماء وسطعت الشمس وألقت بتوهج أرجواني فوق الأشجار وبراعمها، وكسا اللون الفضي المراعي المغمورة بالماء. كان الرجال يعملون في الحقول،

يعدون ويجرفون الأرض للخضروات بين الأشجار في الحدائق؛ وقد فاحت رائحة صحية. كان الصمت يعم المكان حتى إنه يمكن سماع صوت قعقعة العربات، التي ليست في مجال الرؤية حتى. بينما هم يتنقلون من مزرعة لأخرى وصلوا قرب المستشفى الخاص بورشة العمل، قابلوا مجموعة من المرضى خرجوا للتجول تحت إشراف أربع راهبات. كانوا سعداء بخروجهم لأشعة الشمس، مجموعة من المحتاجين البؤساء وبعض النساء الهزيلات، أحدهم يمشي مستنداً إلى عكاز، إحدى الراهبات تدفع عربة وفوقها شخص ما يشبه الجثة يبتسم، وفقير من دون أرجل يتحرك مستخدماً مكواتين. استندت امرأة عجوز هزيلة إلى ذراع راهبة قوية، بعضهم قد ربط رأسه بضمادة. كان هناك رجل بساق واحدة، وآخر برقعة سوداء فوق عينه، بالإضافة لنساء منهكة وأطفال مريضة. أولئك الذين لم يتجولوا؛ جلسوا فوق بعض الأشجار المتساقطة يتحدثون أو يشاهدون العمال وهم يعملون في الحقول.

عندما رأى باليتير هذه المجموعة من البؤساء الذين خرجوا ليشعروا بشمس شهر فبراير، قال للموسيقين أن يعزفوا لهم لحناً. عندما بدؤوا، تجمع حولهم الرفاق المرضى بأقصى سرعة يستطيعونها. كان هناك رجل بدين مبتور الساق يستند إلى عكازين، رفع أحد العكازين وبدأ يرقص بساق واحدة والعكاز الآخر، وهو يصيح: "لقد شفيت! أستطيع العودة إلى المنزل!". ضحك المرضى وابتسمت الراهبات.

ظهر فرانسو فجأة أمام باب حانة قريبة، صاح بأعلى صوت  
منادياً باليتير، الذي قال بدوره للموسيقيين: "هيا! سوف نحتسي  
بعضاً من بيرة مزمار القربة هناك".

كان هذا مناسباً تماماً للعازفين الأربعة وذهبوا جميعاً.

قال باليتير لفرانسو: "هؤلاء أربعة طيور مغردة ساقتهم  
لنا الرياح. هيا يا صديقي. ها هم فاغنز، باليسترينا، بيتهوفن،  
شوبرت؛ أولئك الذين يستطيعون أن يصنعوا الموسيقى من  
جيوبهم. أعطهم بيرة!".

حصل كل منهم على إبريق كبير وشربوا بنهم حتى تساقطت  
القطرات فوق ذقونهم.

سألهم باليتير وهو ينقر فوق فمه بإصبعه: "هل أنتم جوعى؟".  
قال فرانسو: "يمكنكم تناول العشاء معي، وبعدها تعزفون لنا  
أحلى الألحان وتملؤون العالم كله موسيقى لنا!".

"نعم". وأومأوا برؤوسهم.

"لنحصل على شراب آخر أولاً".

أحضروا لهم المزيد من البيرة، ثم دخنوا هم الستة وشربوا  
مثل الفرسان. جلسوا هناك حتى حل الشفق المبكر، ثم ذهبوا  
إلى منزل فرانسو. كان الجو قرمزيًا والشمس تختفي خلف  
مجموعة من الأشجار السوداء. وكأن النهر الذي ارتفع المد به  
مرة أخرى، يلعب الشمس والأشجار السوداء منغمسة فيه. عندما

غاصت الشمس، كان لا يزال ضوءها الذهبي ينعكس فوق أشعة الطاحونة التي وقفت بلا حراك في ظل الرياح الساكنة.

كان الهواء ساكناً وخفيفاً. وومضت الأضواء في البيوت الصغيرة، وظهرت النجوم في السماء الصافية الباهتة. خيم ضباب أزرق خفيف في الأفق.

أضأوا المصباح وتناولوا عشاء مكوناً من لحم الخنزير والبطاطس المقلية. كانت زوجة فرانسو -ممتلئة الصدر- طبخة ماهرة وقدمت لهم صلصة لذيذة بنكهة القرنفل وورق اللورى والزعتر. ذعر أطفالهم عندما شاهدوا الرجال ذوي الهيئة الهمجية، ركضوا إلى فراشهم وهم يصرخون. عندما تناولوا كفايتهم من الطعام والشراب، قال باليتير:

"لتعزفوا لنا شيئاً الآن".

اتجهوا للأسفل وزوجة فرانسو معهم.

قد يغشى الليل الأرض. سطعت العديد من النجوم عالياً في السماء الزرقاء، كثيرة كشعيرات فوق ظهر كلب. السكون المطلق كان هائلاً.

أشعل فرانسو ناراً كثيفة أسفل الطاحونة، التي أضاءت الجزء السفلي بينما ظل المبنى الضخم في الظلام هيكلًا ضخماً في ظل السماء المتلألئة بالنجوم.

طقطقت النيران وألقت بضياؤها المتوهج على المتشردين ذوي  
الثياب الرثة، الذين جلسوا يتأملون الذهب وبالكاد أجابوا عندما  
توجه الحديث إليهم.

"ابدؤوا الآن" قالها باليتير الذي كان يستلقي فوق كومة قش  
ووجهه للأسفل. ثم بدأ عازفو مزارم القربة الثلاثة في العزف،  
وتدفقت نغمات صوت الناي بوضوح داخل وخارج الموسيقى  
مثل قطرات المطر، لتذكر باليتير بالراقصين الإسبان المفعمين  
بالحيوية والأغاني الروسية الكئيبة، ألحان حيوية من الجبال،  
ألحان مثيرة للشفقة من سهول بروتاني. العالم أجمع مر نصب  
عينيه بصوت عاطفي ومبهج وحالم ورقيق.

استمع باليتير وهو مفتون. فهو لم يسمع مثيلاً لهذا من قبل.  
أضفى خفقان النار ضوءاً أحمر فوق كفيه. الطاحونة السوداء  
الضخمة تقف عالياً فوق رأسه ونصب عينيه يمتد الليل المضاء  
بالنجوم والأراضي المظلمة الغامضة التي يكمن الربيع في جوفها.  
يا لها من موسيقى ساحرة، سماع أولئك الحكائين في مثل هذا  
المكان في ليلة مظلمة، بجوار نار متوهجة، بينما الرفاق الآخرون  
نائمون. جعله هذا يرتجف من السعادة، بينما تنهمر دموعه فوق  
كفيه. حسناً، الآن هو أيضاً سوف يخرج ليرى العالم!

كانت شارلوت قد نامت منذ مدة طويلة، لكن ماريكا كانت لا  
تزال بالحديقة. انعكس وميض النجوم فوق النهر الساكن، كانت  
تميل وتسنند فوق السور لتسمع وتشاهد موسيقى مزارم القربة

هنالك، حينما رأت نارًا موقدة.

كانت تعلم أن باليتير سيكون هناك. هذا هو ما سيفعله باليتير، هو ذاته الشخص الذي أحبته من أعماق قلبها. كانت تنتظره طوال اليوم، لكنه لم يعد إلى المنزل حتى الآن، كان في غاية السعادة بالنار؛ هذا هو ما يحبه تمامًا. لكنها كانت موقنة أنه يحبها هي الأخرى. ربما كان يفكر بها أثناء استماعه لتلك الموسيقى. نعم، هي كانت موقنة من هذا، وقد أسعدتها تلك الفكرة. كانت تود أن تكون بصحبته لتغفو فوق صدره في سكون من تأثير تلك الموسيقى الحزينة الهادئة.

قالت: "متشردى!". وتنهدت بسعادة وهي تقف هناك تستمع لموسيقى مزمار القربة تتردد عبر ليلة الربيع العذبة.

## الفصل الرابع والعشرون

### أجراس روما

استلقى باليتير على ظهره يتأمل مسار الغيوم وشكلها. سماء مارس بكاملها مفتوحة أمامه. كانت هناك غيوم صغيرة مجنونة تتدافع وتتبادل الأماكن فيتغير المشهد كل دقيقة. كانت هناك بالأعلى كتلة رمادية ضخمة تلوح في الأفق، محملة بالمطر والبرد. طافت أمام الشمس وهي تجر كل شيء معها حتى ارتطمت بجبل ضخ من الغيوم البيضاء، التي كسرتها إلى خيوط باهتة ارتفعت عاليًا في السماء ثم انتهت على هيئة عناقيد سحب بيضاء صغيرة. في هذه الأثناء ظهر أسفل الأفق سلسلة جبال من الغيوم الوردية وطافت باتجاه الجنوب. قممها كانت في بياض الثلج، رقيقة الشكل في ظل السماء الزرقاء الصافية؛ وقمم الأبراج في القرى المجاورة تبدو منقوشة بداخلها. مشهد سويسري بكل معنى الكلمة. لكن قممهم انتفخت والجبال الصغيرة ارتفعت فوق الأبراج وانجرفت نحو الشمس، تحول لون قممهم إلى ذهبي وفضي، وفي الداخل كانت أرجوانية وبنية باهتة. بدت وكأنها كاتدرائية من الغيوم؛ تحتوي على نوافذ وممرات ومحراب. يا الله! لكن بينما تشاهدهم تنقسم إلى غيوم صغيرة مثل الصوف،

ثم طافت للأسفل، وتجدت وذابت في المطر في منظر صاف مشمس.

ثم أتت غيمة ضخمة بيضاء، صلبة كالقربييط وتوجت كأنها العاهل لكل هذا. سطعت الشمس بالكامل فوقها وجعلت عيون باليتير تلمع. تربعت على العرش هناك حتى أتى فيلق وهاجمها من كل الجوانب، كسفن حربية، ضخمة لونها أبيض وبني، تغلبوا عليها وابتلعوا بريقتها. آخرون ارتفعوا فوقها، والبعض الآخر مروا عبرها بقوة، يتغيرون ويتبدلون طوال الوقت. يتجمعون ويتفرقون، يتدافعون ويتزاحمون، كأنهم كائنات حية تتحرك باستمرار. ثم بزغ لون أزرق هادئ بين الغيوم والشمس، شمس عيد الفصح، حيث إن اليوم التالي كان عيد الفصح. الشمس الجديدة الرقيقة الصافية كانت تتحرك داخل هذه الغيوم وكأنها طفل رضيع مستيقظ في فراش أبيض. أطلقت خيوط طويلة من أشعة ذهبية وفضية فوق الضوء الأرجواني والأصفر والأبيض لتلمع في الهواء. اشترك الحمام في اللعبة؛ طارت أسراب الحمام للأعلى وعادت لتندفع للأسفل مرة أخرى، كأنها قطع من الورق الأبيض في خلفيتها الغيوم الأرجوانية، وعندما لمستها أشعة الشمس صارت مثل رقائق الذهب.

مشهد عظيم، قد تتمكن رياضة الغيوم هذه، أن تجعل الراعي الذي يجلس وحيداً، مستمتعاً ليوم كامل.

تستلقي الأرض الخصبة أسفل كل هذا، خضراء ونضرة. يتحرك عبرها نسيم رقيق تحت ظل الغيوم والشمس الساطعة. بدت الأشجار سوداء، لكن أشعة الشمس كستها بلون الصفار الأخضر لبراعم الأوراق النابتة. فقط بعض أشجار التفاح الوردية تحمر بالحياة هنا وهناك. تلاًلاً نهر "نت" باللون الفضي وأشرعة القوارب البيضاء المنتفخة.

تحولت السماء فجأة إلى رمادية وكئيبة على غير المتوقع؛ انهمر المطر والبرد فوق العشب ووجه باليتير، قفز ضاحكاً وركض ليحتمي بسقيفة خشبية. من موقعه هذا كان يستطيع أن يرى الطاحونة والأشجرة الحمراء تدور بين أشعة الشمس. وفي لحظة، سطعت الشمس فوق غابة الدير، المغطاة بالبرد؛ وامتد قوس قزح عبر السماء المظلمة فوق الطاحونة الضئيلة.

صاحت الديوك عالياً. شم باليتير رائحة البنفسج تحت الخشب. صاح "هذه لماريكا!" وبدأ يبحث في العشب القصير الناضر، وها هي، أزهار يوم "الجمعة العظيمة" الجميلة! كان على وشك أن يقطفها لكنه توقف وتمتم لنفسه "كلا سوف أتركها؛ هي هنا في أحسن حال".

قفز عبر جدول الماء وسار إلى المنزل عبر الحقول. كانت الحياة تجدد كل شيء؛ الهواء مليء بالعطور والبشائر؛ والصحوة تنتفض من الأرض. حزمة من العشب تنمو في كل مكان، زهور الديزي تفتحت والعصافير تغرد من كل اتجاه.

خلعت الحقول الجيدة السخية عباءة الشتاء؛ وتم حرث التربة، وجز الأعشاب وتقليبها، وها هي الحقول الهائلة تمتد باختلاف درجات ألوانها البنية. يقف خيال مائة هنا وهناك بالثياب الرثة التي تطير في مهب الرياح. عمل الحقول العظيم بدأ مرة أخرى لعام جديد. كانت الخيول البنية والبيضاء على جانبي النهر تجر محراث الأرض ببطء عبر التربة التي تتفتح بكتل ترابية كثيفة، مثل اللحم الذي تستطيع أن تقضمه. يسير الذين ينثرون البذور على طول الحقول كالموك يلقون هباتهم على الأرض. كان يمكن رؤيتهم في جميع الأنحاء، في حجم الإصبع، على طول ضفة النهر، بين الأشجار، أسفل طاحونة الهواء، بجانب غابة الدير، نثر الحبوب الرائعة. في البداية باركتها الشمس والرياح، ثم استقبلتها الأرض المثمرة في جوفها وابتهجت أنها سوف تصبح غنية مرة أخرى وتصبح أمًا لملايين البذور. كان العديد من الفلاحين يزرعون البطاطس، وعربات السماد تتحرك ذهابًا وإيابًا، وتنتشر رائحتها النفاذة في الهواء.

وأثمرت زهرة البريمولا وظهرت أصابعها الذهبية على طول ضفة النهر. قطف باليتير حزمة وغرسها في قبعته. عادت الأبقار ترعى في المراعي وطائر السنونو يطير في الهواء. توالى ظلال الغيوم باستمرار فوق الأرض وتتخللها أشعة الشمس الرطبة الصافية.

وقف باليتير يتأمل كل هذا في إعجاب. غمرته كل هذه الروعة بالسعادة، الشمس والرياح، وعودة الربيع؛ هذه الحياة الغنية

المكتملة. يا له من جمال إلهي! حينها رأى رجلاً يحمل بندقية  
ويزحف خلف طائر التدرج!

"اللعنة!" قالها باليتير وهو كان على وشك أن يصفق بيديه  
لينبه الطائر، حينها سقطت قبعة الرجل. ثم خطرت لباليتير  
فكرة جيدة وتحرك سريعاً إلى القبعة وقذف قطعة من روث البقر  
بداخلها. طار الطائر بعيداً، ولاحظ الرجل أن قبعته قد سقطت،  
نظر حوله وأحضرها وكان على وشك أن يضعها فوق رأسه  
حينما رأى ما بداخلها؛ فألقاها أرضاً وداس عليها وهو منفعل  
مثل الأحمق ولوح بيديه للأبقار بغضب. وقف باليتير يشاهده من  
خلف كومة أخشاب وهو يضحك بشدة.

عندما عاد إلى المنزل بالأزهار الذابلة في قبعته، كان العلم  
الأبيض مرفوعاً إجلالاً للطقس الجيد، وقد قامت ماريكا بتشغيل  
النافورة. كانت النافورة تدفع خيوط الماء الفضية الرقيقة بعد  
التوقف طوال الشتاء.

شارلوت كانت بالحديقة مع ماريكا، تخبئ البرتقال وبيض عيد  
الفصح من أجل أبناء فرانسو، الذين سيأتون للبحث عنهم بمجرد  
أن تبدأ أجراس الكنيسة في الرنين.

لقد قام باليتير بتلوين البيض بالأمس، لونه بجميع الألوان؛  
الأحمر والأصفر والأزرق والأخضر. تنوعت الرسومات بين النقط  
والخطوط والتعرجات والدوائر. بعضهم كان مرسوماً عليه ديك  
أو رجل صغير أو شمس ضاحكة أو زهور أو أشجار. جميعها

ملونة بألوان زاهية مثل الفاكهة الفريدة بين العشب والأشجار.  
تنهدت شارلوت تنهيدة ارتياح عندما انتهت من كل شيء.  
"الصيام قد انتهى الآن وسوف نسمع الأجراس مرة أخرى!".  
ضحك باليتير قائلاً: "هذا لم يجعلك أكثر نحافة".  
قالت شارلوت بفخر: "أنا لا ألوم نفسي على هذا، لقد أكلت ما  
يكفيني لكن مرة واحدة في اليوم".  
"نعم لكن كنت تختنقين بالأكل في كل مرة!".

صاحت شارلوت بغضب: "ماذا! وأنت تحقد على شريحة خبز  
أكثر من المعتاد، إذاً سوف أصبح راهبة، أفضل بكثير من أن  
أذهب معكم إلى أماكن غريبة، حيث لا يوجد شيء سوى أكلة  
لحوم البشر والوحوش! يمكنك أن تثق في هذا، أيها الخنزير  
الطماع!".

قالت ماريكا: "هيا، لا تنزعجي هذا فقط مزاح باليتير".

"أنا لا أمزح" قالتها شارلوت بسرعة وتلقائية. وعادت إلى  
المطبخ. غادرت وهي ترتدي قبعاتها وكتلة شعرها الصغيرة  
أصبحت ظاهرة طوال الصيف. كانت ترتدي حذاء أسود جديداً  
لامعاً منقوشاً عليه طيور صفراء فوق غصين أخضر. بعد وقت  
قليل كانت قد نسيت كل شيء عن المشاجرة الصغيرة وبدأت  
تغني:

"لدي رفيق صغير للعب

قطة ناعمة كالحرير.....!"

تجول باليتير في الحديقة مع ماريكا.

"للأسف، سيمر النهر عبر حديقتنا في خط مستقيم".

"إذا كنت تريد حديقة جميلة لماذا لا تأتي وتعيش في قريتنا؟  
إنها جميلة أيضاً وممتدة إلى الغابة والمراعي".

"كلا". قالها باليتير ثم استطرد بحنان: "أنا كالطير أريد أن  
أعيش في كل مكان! أنت ترغبين في الذهاب معي، أليس كذلك يا  
زوجتي العزيزة؟".

نظرت إليه بعينيها الواسعتين في سعادة، وضعت ذراعيها حول  
عنقه وتمتمت: "أود لو أستطيع أن أكون معك دائماً، تستطيع أن  
تأخذني إلى نهاية العالم إذا أردت".

قبلا بعضهما بعضاً في رقة.

صاحت شارلوت وقالت إن الأطفال قادمون، أسرع ماريكا  
ضاحكة لتقابلهم. تأملها باليتير وهي تتبعد ثم قال لنفسه:  
"إنها روحى!".

هنا بدأ طائر أسود، فوق شجرة الكستناء العجوز، في الصفير،  
ثم طار إلى الشجيرات حيث كانت مليئة بالبراعم البنية وتمتلئ  
بضحج ثرثرة العصافير. كانت أشجار الكمثرى في الحديقة

مكسوة بالبراعم التي توشك أن تتفتح وأشجار البرقوق بدأت تتحول إلى اللون الوردي وأشجار الخوخ كانت في إزهار وردي كامل.

التربة القوية من الحرث الجيد قد أثمرت الخس في وقت مبكر. العديد من الزهور قد بدأت في الإزهار؛ زهور الخزمية فوق التل حيث توجد طاحونة الهواء، ورائحة النرجس تفوح من هنا وهناك حول النافورة. كان السياج المقلم حديثاً أخضر باهتاً للغاية.

تعجب باليتير من سرعة نمو الأشياء. لم يكن هناك سكون؛ كل شيء ينمو ويعمل في كل مكان، يخرج من الأرض، يتفتح فوق الأشجار أو فوق الماء؛ التصقت الطحالب بالصخور والفطر بالأشجار، يمتص أحدهم الحياة من الآخر، الجميع يتوق للحياة، الجميع يلهث ليثمر ويتوافق مع الدافع، الذي لا يقاوم، للحياة الجديدة. طار فوق باليتير سرب من البط البري عائد من الجنوب. وفجأة دقت أجراس عيد الفصح من المدينة والقرية والدير، تدق في بهجة لتعلن قيامة المسيح وتجديد الحياة. كانت الأجراس قد أتت من روما ونشرت أمطاراً من البيض فوق الأرض؛ تحركها روح جديدة. عاد الربيع مرة أخرى للأشجار ببراعم جديدة. انتصرت الحياة مرة أخرى على الموت. إنها القيامة. اتجه باليتير نحو جوهر وجوده وركع؛ وقبّل الأرض.

## الفصل الخامس والعشرون موكب الصليبان وبركة الحقول

تجهم الطقس مرة أخرى وتلاه أيام من الأمطار الخفيفة مع غيوم رمادية قاتمة. على الرغم من ذلك، استمرت الأشجار تؤدي عملها. وضعت واحدة تلو الأخرى كسوتها، تفتحت الزهور وزفرت عطورها الطيبة. ظلت الشمس الضعيفة بعيدة؛ لذا بدلاً من أن تندفع النباتات في النمو والتوق للحصول على الضوء، شقت طريقها ببطء وحذر للخروج من التربة.

قال باليتير: "سوف يتحسن الطقس، عندما يأتي الموكب، إذ إن الصليبان هي التي تفتح أبواب الطقس المستقر واكتمال الصيف، فقد كان الطقس الجيد في جميع الأيام السابقة غير مضمون ولا يعول عليه".

لذا استمر الجميع في عملهم وهم يعلمون أن الأمر سيختلف؛ هم في انتظار الصليبان.

وفي ذات اليوم الذي كان يتجول فيه الموكب، حدث التغيير، هبت رياح معتدلة وأزاحت كل غيوم المطر من السماء.

بدأ الموكب. ذهب باليتير وشارلوت، كان باليتير يمتطي جواده في مؤخرة الموكب ويرى كل شيء. عبروا الحقول المفتوحة.

ررفت الرايات الحمراء مع النسيم واهتزت تنورات السيدات ورداء الكاهن؛ عمت الصلوات اللاتينية الأرجاء.

السماء بأكملها كانت كالفضة، مع مجموعات من السحب البيضاء على شكل هلالى كالسجق، تلقي الضوء فوق جميع الأحياء. الحبوب قد بدأت في النمو بالفعل.

طافت الأنشودة اللاتينية الاحتفالية فوق الحقول البنية، بشكل متقطع، وفوق زهور اللفت الصفراء الزاهية، وامتدت مع البساتين البيضاء والوردية والحدائق العطرة.

"مِنَ الْأَعْمَاقِ صَرَخْتُ إِلَيْكَ يَا رَبَّ.

يَا رَبُّ، أَسْمَعُ صَوْتِي. لِتَكُنْ أذُنَاكَ مُصَغِّبَتَيْنِ إِلَى صَوْتِ تَضَرُّعَاتِي.

إِنْ كُنْتُ تُرَاقِبُ الْآثَامَ يَا رَبُّ، يَا سَيِّدُ، فَمَنْ يَقِفُ؟".

مساعدو الكاهن، في رداثهم الأحمر، دقوا الجرس وأطلقوا البخور الأزرق المعطر. الكاهن، في رداثه الذهبي وتاجه، نثر الماء المقدس ببخات كريمة من يده، ليمنح البركة للبلدة الجميلة الخصبية بأكملها.

حمل الفلاحون والفلاحات كتيبات صلواتهم مفتوحة، يرددون الصلوات من أجل ثمارهم وماشيتهم وحصادهم. كانت كل ممتلكاتهم متروكة لسماء الله العظيمة. كل شيء معتمد على السماوات. السماء التي تمنح الحياة أو الموت، الخير أو الشر، الحرارة أو البرودة، الشمس والأمطار الوفيرة.

لذا صلوا بخشوع. تحدثوا عن البذور والأشجار والثمار البكماء:  
"يَا رَبُّ، اسْمَعْ صَلَاتِي، وَأَصْغِ إِلَيَّ تَضَرُّعَاتِي. بِأَمَانَتِكَ اسْتَجِبْ لِي، بَعْدَكَ.  
وَلَا تَدْخُلْ فِي الْمَحَاكِمَةِ مَعَ عَبْدِكَ، فَإِنَّهُ لَنْ يَتَبَرَّرَ قُدَّامَكَ حَيًّا. لِأَنَّ الْعَدُوَّ  
قَدْ اضْطَهَدَ نَفْسِي. سَحَقَ إِلَيَّ الْأَرْضَ حَيَاتِي. أَجْلَسَنِي فِي الظُّلُمَاتِ مِثْلَ  
الْمَوْتَى مُنْذُ الدَّهْرِ".

كانت صلاة الثمار والبذور والأشجار بعد الشتاء الطويل؛ الذي  
يعد عدوًّا لهم.

"مِنْ أَجْلِ اسْمِكَ يَا رَبُّ تُحْيِينِي. بَعْدَكَ تُخْرِجُ مِنَ الضَّبْقِ نَفْسِي،  
وَبِرَحْمَتِكَ تَسْتَأْصِلُ أَعْدَائِي، وَتُبِيدُ كُلَّ مُضَائِقِي نَفْسِي، لِأَنِّي أَنَا عَبْدُكَ".

الصلاة من أجل ازدهار الحقول. تخطت الرياح الأرض وحملت  
الكلمات. السيدة مريم والصحبة النيرة من القديسين والملائكة  
الذين يسكنون السماء، أولئك الذين لديهم القدرة على كبح  
الرعد وتسكين الماء وتغيير اتجاه الرياح، كل هؤلاء القديسين  
والشهداء، الباباوات، الخطاة، الرسل، والعابدين الورعين، حتى  
إن آلاف الأطفال الأبرياء، تم تنصيبهم كأوصياء على الناس  
والمواشي والثمار والأشجار. ترددت كلمات "ادعوا لنا" و" صلوا  
من أجلنا" في جميع الأثناء بأصوات الرجال العميقة.

شارك باليتير في الصلوات بحماس. شعر بالحيوية والإشراق،  
ارتجف من البهجة الروحية، وكان يود أن يلوح بالأعلام في الرياح  
بسعادة. كانت الصلوات هادئة جدًا بالنسبة له، رفع صوته وبدأ

يغني عاليًا بقدر استطاعته مع القسيسين. عندما شكل الموكب دائرة حول الحقول، انطلق راکضًا عبر المناظر الطبيعية الجميلة. كان منظرًا رائعًا، الازدهار الأبيض لأشجار الفاكهة. تتمم باليتير: "وكان الحليب يتدفق من ثدي الأرض، ستصنع منه الشمس الزبد!". الرياح المرحة النشيطة اندفعت في الهواء وازدادت بين الأشجار. هزت عرف الفرس وذيله وأطاحت بقبعة باليتير، وجعلتها تطير مثل الطير ووقعت فوق نهر "نت" الممتوج. لكن باليتير لم يكثرث؛ استمر في امتطاء الفرس والركض بانطلاق وبلا اهتمام دون أن يمك باللجام، فقط ليشعر بالمتعة العميقة لهذه الرياح المتجددة في جميع أنحاء جسده. كان يستطيع أن يرى الصلبان -البيضاء والحمراء- وهي تتحرك عبر الطرق الرملية. شكلت طواحين الهواء شكل الصلبان، مثل صلبان القسيسين، في جميع الأنحاء، وبعيدًا رفعت الرياح تنورة فلاحه شابة فوق رأسها تقريبًا. فجأة سطعت الشمس من بين الغيوم وأضفت حيوية للألوان في الحقول؛ جعلتهم جميعًا في بهجة!

صاح باليتير: "لقد جلبت الصلبان البركة بالفعل!".

في المساء ذاته، هبت الرياح وهبط دفاء معتدل على الأرض، ونثرت أشجار الكمثرى عطرها الطيب. أصبحت السماء نقية كالألماس، النجوم تتلألأ في زهو باللون الأزرق الصافي، وتدلَى الهلال الرفيع في أسفل السماء.

كان باليتير وماريكا يميلان من نافذة غرفة نومهما، وقد خففا ملابسهما، لكن جمال الليل أبقاهما مستيقظين خارج الفراش. أمالت ماريكا رأسها فوق كتف باليتير ولف باليتير ذراعه حول خصرها. كانا صامتين، يستمعان إلى عندليب مختفي في شجرة كرز مزهرة، يطلق ألحانه الذهبية من أعماق قلبه. ثم سمعا صوت نغمات التشيلو العميقة المؤثرة.

قال باليتير: "إنه القسيس".

قالت ماريكا "من المؤسف أن بوابة الدير مغلقة".

"انتظري لحظة". أجاب بحماسة: "هيا، سوف نذهب إلى هناك في القارب".

ارتديا ملابسهما مرة أخرى سريعاً، نزلا للأسفل، صعدا إلى القارب؛ ثم جدفا عبر الممر المائي الضيق إلى الدير. كان بإمكانهما طوال الوقت سماع صوت التشيلو الناعم الهادئ.

جدفا بهدوء شديد إلى حديقة القسيس، التي كان يمكن رؤيتها من الماء من خلال شجرة متعرشة فوق مرساة صغيرة. توقفا هناك ووقفا في القارب ليستمعا. كان القسيس يجلس بالخارج تحت شجرة كرز مثمرة. تمكنا فقط من رؤية رأسه الكبير ويديه الشاحبتين في الظلام؛ كان يعزف مقطوعة "تروميري" (الحلم) لشومان. كانت كالصلاة، وكأنه يصلي بموسيقاه.

عندما انتهى، عمت فترة صمت طويلة؛ بدا لباليتير أنها قد

ترتقي لمرتبة الخطيئة أن يجعل صوته مسموعاً في ظل هذا الهدوء العطر؛ لكنه تنهد تنهيدة طويلة دون أن يشعر.

نظر القسيس وسأل: "هل يوجد أحد هناك؟".

"إنه أنا!". أجاب باليتير.

"إذاً لتدخل على الفور". وأسرع عبر الحديقة وفتح بوابة المرساة الصغيرة، التي كانت تفتح فقط للخادم ليجلب الماء.

قال القسيس: "كنت أعزف بعض الموسيقى في ظل هذا الطقس الجميل. تفضلاً بالدخول!".

قال باليتير: "ماذا لو أحضرت التشيللو للقارب وسوف نجدف حتى مزرعة فان رينجين؟".

" موافق!". قالها القسيس وأحضر التشيلو إلى القارب.

عادوا إلى نهر "نت" وعندما وصلوا إلى الحقول المفتوحة، بدأ يعزف مرة أخرى، بينما تولى باليتير الدفة وماريكا تجدف.

وكان التشيلو تتحدث. تغني مثل الصوت البشري، وكأنها ارتفعت من أعماق المحيط، تخبر عن أسرار السماء وبهجة الربيع. وكان بيتهوفن وفاغنر وبالليسترينا وجريج قد اجتمعوا معاً. طافت الموسيقى عبر الماء والحقول الهادئة، تمنحهم بركة أفضل موسيقى تحت الشمس. وكان الرب قد وضع قدمه فوق الأرض.

## الفصل السادس والعشرون

### الخصوبة

ظهرت روعة شهر مايو المعتدل الجميل فوق الأشجار، ونشر بركته فوق الأرض. أشجار الكستناء الملكية، التي ازدهرت في بهاء بجوار نهر "نت"، أضيئت فروعها البيضاء كالشمعدان فوق أكوام أوراق الشجر الخضراء. لقد أضيئت العديد من الشموع تكريمًا للسيدة العذراء.

وصلت والدة ماريكا، كانوا يذهبون لإحدى الكنائس الصغيرة، ليصلوا من أجل الولادة الجيدة. فقد أصبح حملها ثقيلًا الآن، والأيام تمر ويتوقع أن تكون الولادة مع القمر الجديد، في نهاية شهر يونيو.

في هذا اليوم كان باليتير عائدًا إلى المنزل من دافل، حيث ذهب إلى صانع العربات لطلب العربة المغطاة، سوف يستقلونها ليخرجوا بها إلى العالم بعد ولادة الطفل.

ألقت شمس يونيو خيوطها الذهبية فوق جميع الأراضي عبر السماء الزرقاء اللامعة.

تجول باليتير بجوار ضفة النهر؛ نهر "نت" الجميل، يتعرج ويتميل حسب الحاجة عبر الحقول التي تم حراثتها جيدًا والمراعي

الغنية بالماشية، لتترعرع أشجار الحور على طول مسار النهر. الآن سوف يتحول نهر "نت" الساحر إلى قناة مستقيمة حادة. تنهد قائلاً: "سوف يسرق التاج من البلدة، وإن قلبي لينفطر من التفكير بهذا".

ثم بدأ يسمع صوت البوق تكررًا.

صاح: "لا بد أنها شارلوت، لتقول إن الطفل قد ولد!". جذب حذاه وانطلق راكضًا بأقصى ما يستطيع. استمر صوت البوق يتجه شرقًا وغربًا بلا توقف.

لا يزال باليتير يركض بسرعة وأخذ يلعن نفسه أنه لا يستطيع أن يركض أسرع. كان هناك حصانان يرعيان بالقرب منه، قفز فوق أحدهما وأمسك بعرفه وحث الجواد المندهبش أن يعدو بأقصى سرعة باتجاه الرينارد.

عندما رأت شارلوت باليتير قادمًا، تركت البوق وأسرعت نحوه وهي شاحبة من الإثارة:

"يا فتاي، إنهم ثلاثة، ثلاثة أطفال؛ صبيان وفتاة! أولاً ال....".

سمعها باليتير بالكاد وهو يركض ويصعد للطابق الأعلى وهي تركض خلفه. فتح الباب بسرعة؛ وها هي ماريكا ترقد هناك فوق الفراش، شاحبة تمامًا والدموع تنهمر فوق وجهها بينما تبتسم له. بجوارها ثلاثة كائنات وردية عارية يبكون ويصرخون، تشرق الشمس فوق جسدهم الناعم عبر النافذة المفتوحة.

وقف باليتير بلا حراك لأول وهلة، فهو لا يستطيع أن يصدق عينيه. كان مشدوهاً. والدة ماريكا وشارلوت كانتا منهنمكتين. إحداهن ترش الماء حولهم والأخرى تقلب سطلاً ووقفت تحك رأسها.

"هل أنت سعيد؟". تمتت ماريكا.

ثم فاضت فرحة باليتير. ذهب لزوجته الشابة العزيزة وقبلها بحماس بينما هو يقول: "أبراهام سوف يحسدني!". ثم نادى شارلوت بسعادة: "أحضري الممرضات والرعاة والمهد والفاكهة المسكرة! لقد ولد الأطفال الرائعون الثلاثة!".

"حسنًا حسنًا!". صاحت شارلوت في ارتباك وهرعت للأسفل، لكنها عادت بعد دقيقة واحدة تصيح بسرعة: "أسرعوا! ضعوا قميصًا فوقهم، القسيس قد حضر، أسرعوا!".

"لا لا!". قالها القسيس وهو يصعد الدرج "أريد أن أراهم كما وهبهم الرب لباليتير". ورفع يديه في دهشة، ثم استدار لباليتير قائلاً: "أنت رجل محظوظ!", ثم وجه حديثه لماريكا: "كان الرب كريمًا معك يا بنيتي!". صافحهم، وعندما انتهى من معمودية الرضع الثلاثة، ترققت الدموع في عينيه وقال: "استمروا في هذا الطريق!".

أجاب باليتير: "أعدك بذلك!".

قالت ماريكا وهي تحمر خجلًا: "أبت، يجب أن ترضع

الأطفال!".

ضحك القسيس قائلاً: "حسنًا حسنًا! أكملوا ما تقومون به! لم يعد مرغوبًا بوجودنا هنا بعد الآن، أليس كذلك باليتير؟ هيا بنا نذهب لنشرب نخب ذريتك".

بينما هما بالأسفل يشربان الشمبانيا، أرضعت ماريكا لبن الأم الثمين للصبيين وتُركت الفتاة تبكي.

جلس القسيس وهو يرتدي قبعته مع باليتير يشربان زجاجة الشمبانيا السادسة تكريمًا للثلاثة الذين أنجبهم.

(المزارعون الأثرياء في فلاندرز كانوا دائماً يشربون الشمبانيا بمناسبة الولادة).

## الفصل السابع والعشرون

### الخروج إلى العالم

أصبحت العربة المغطاة جاهزة. وقف الجميع؛ الراهبات والرجال المكفوفون الثلاثة والعديد من الرهبان المبتدئين والقسيس والتفوا حول العربة لتوديع أصحاب مزرعة رينارد.

بينما تجلس ماريكا في موضعها داخل العربة مع الرضع الثلاثة وشارلوت تستمع بورع إلى نصح القسيس الكريم، ذهب باليتير ليجلب الجواد الذي كان لا يزال يرعى في المرعى. كانت بيارد الطيبة تلعب وتهول باتجاه السد، عندما رأت سيدها قادمًا، لكن باليتير أمسكها وقفز فوق ظهرها. تمتم باليتير: "مملكة الأراضي المنخفضة! أنت تجعلين الفراق صعبًا". وأطال النظر إلى المنظر. كان وقت ما بعد الظهر، وكان المطر يتساقط بشكل متقطع، في قطرات كبيرة، ثم يتوقف بعض الوقت، ويعود يسقط بخفة مرة أخرى؛ لكنه أخرج رائحة عطرة من الأرض، الزهور والقش الذي يتم سحقه في المراعي في كل الأنحاء المجاورة. غردت طيور الشحرور والسمنة وأوريولز وشرشور وقرقف وأبو فصادة تغريدات مرحة من الأشجار؛ وضمن كورس الهواة هذا كان العندليب الملكي يصدح مثل آلة الفلوت الذهبية، كان يقف بين الأشجار ويطلق ألقانه مع كل قطرة مطر تلمسه.

أحاطت بالأرض هالة من الرفاهية وانبعث من جميع الكائنات رقة لطيفة. كانت السماء رمادية زرقاء دافئة، واختفى الأفق هناك خلف الضباب الأزرق مثل البخور.

صاح باليتير: "هناك يكمن العالم!". مجرد أن خطرت له هذه الفكرة أصبح متشوقاً لبدأ رحلته.

"هيا اصعدي!". صاح منادياً شارلوت، التي كانت تخرج من المنزل مع آخر متعلقاتها الثمينة.

توقفت، وقد غمرتها المشاعر فقد حان وقت الوداع الأخير. نظرت لجميع أصدقائها -الراهبات والمترهبين الجدد والقسيس- ثم انفجرت في البكاء بصوت عالٍ، وانهمرت الدموع فوق وجهها.

قالت وهي تختنق بعبراتها: "كنت سأصبح راهبة بكل سعادة، لكن ماذا كانت ستفعل أم شابة مثل ماريكا مع الأطفال الصغار الثلاثة؟ يجب أن يساعدها أحد في رعايتهم. أليس كذلك؟".

"بالطبع" أجابت جميع الراهبات والدموع تترقرق في أعينهن أيضاً.

"لا يزال يمكنك أن تبقي هنا إذا أردت". قالها باليتير وهو يوثق الرباط الأخير في سرج بيارد.

"آه، كيف يمكنني العيش دون رجلك؟". قالها القسيس لماريكا وهو يتنهد ويهز رأسه.

"هيا، لن يكون الأمر حزيناً، فرانسو ما زال هنا".

صاح باليتير: "ها قد حان الوقت". قالها لشارلوت التي لا تزال تنتحب؛ "اصعدي!" ورفع حقيبة القش فوق كتفه.

"انتظر لحظة!". قالها القسيس وهو متأثر بعمق، ثم رسم علامة الصليب لباليتير وماريكا ووقف على أطراف أصابعه ليفعل المثل مع الأطفال الثلاثة الذين حملتهم ماريكا له للخارج؛ وبينما هي تميل برأسها تجاهه قال: "أيتها الأم الشابة، دعينا نأمل أن تتجبي المزيد من الأطفال. الوداع، بارك الله فيك!". وتنحى جانباً وبدأ يبكي في منديه الأحمر.

خيم صمت مؤثر. لم يكن هناك شيء يمكن سماعه سوى شهقات الكاهن والنساء. أغلب الظن أن باليتير كان سيبكي هو الآخر، لكنه فكر في الأمر بشكل أفضل وصاح ضاحكاً:

"من سيذهب معنا؟ من سيأتي الآن؟ يمكننا الحصول على زوج صيني. هل سيأتي أحد؟".

ترددت الضحكات هنا وهناك، وتمتم القسيس: "أنت كما أنت دائماً!".

"حسناً، لا أحد؟". سأل باليتير مرة أخرى. "لقد ضاعت الفرصة! سوف أجعل شارلوت تتزوج من رجل زنجي وأطفالها يمكن أن يكونوا راهبات، الراهبات السود الصغيرات!".

"باليتير، فتاي، أرجو أن تسير الأمور معك بشكل جيد". قالها

القسيس وقبلا بعضهما بعضاً.

صاح باليتير: "اشرب كأساً في نخبنا!".

أجاب القسيس: "سأفعل، سأشرب اثنتين".

نجح ليوباس بفارغ الصبر. كانت الأراضي الزرقاء والعالم  
الواسع هنالك!

كان باليتير يتوق لبدء الرحلة، صاح عاليًا للفرس: "هيا  
انطلق!". على الرغم من أن شارلوت كانت لا تزال تحاول مصافحة  
كل الراهبات والمترهبين.

وتحركت العربة. بدأ أحد الأطفال في البكاء، فحملته ماريكا  
وأرضعته.

"إني قادمة! إني قادمة!". صاحت شارلوت وتركت الراهبات  
وركضت بأقصى ما تستطيع خلف العربة.

دفعها باليتير، الذي كان يسير بجوار العربة، للأعلى، ثم  
أخرجت شارلوت وجهها الأحمر خارج غطاء العربة وبدأت تلوح  
للراهبات، اللاتي وقفن في مجموعة يصحن ويلوحن بمناديلهن.  
رفع الرجال الثلاثة المكفوفون عصيهم في الاتجاه الخاطئ،  
والقسيس يلوح بقبعته وفرقع باليتير عاليًا بالسوط.

ردد باليتير صائحًا: "إلى العالم الخارجي! إلى العالم  
الخارجي!".

وها هو بيتر، طائر اللقلق، أتى محلقةً في السماء يطير خلف

العربة، انفجر باليتير ضاحكاً لرؤيته وأراد أن يربت عليه ويمدحه، لكن بيتر وقف فوق غطاء العربة واضعاً منقاره بين الريش. ركض ليوباس في المقدمة وهو ينيح.

سارت العربة أمام سياج الدير بينما تساقطت الأمطار الخفيفة...

وقف فرانسو وزوجته بانتظارهم أمام الطاحونة. هنا توقف باليتير، وقاموا بشرب زجاجتين من النبيذ القديم بجوار العربة. قال فرانسو: "ستتمتعون بطقس جيد، هذه الأمطار رقيقة على الأرض".

وحذرت شارلوت باليتير: "ارتد معطفك؛ إن قميصك سوف يبتل بشدة".

"إن كل قطرة تسقط فوقه، ممتعة مثل قبة من عذراء". قالها باليتير وترك قميصه يبتل في سعادة. سأله فرانسو: "أين ستذهبون أولاً؟".

"إلى الطريق الذي ترشدني إليه عباتي". أجاب باليتير وألقى بعباءته عاليًا التي سقطت باتجاه الجنوب الشرقي. صاح ببهجة: "باتجاه الشمس".

"ثم بعد ذلك؟".

وأجاب باليتير وكأنه يغني: "هولندا والنرويج وإسبانيا وبلاد الجليد والشمس، إلى أريحا، أو إلى منتصف الطريق للجحيم، أو

إلى أرض افعل ما يحلو لك، إلى أرض القردة. سأتابع حدسي على طول الطريق! الوداع!"

دخل بيتر إلى داخل العربة. قبلوا بعضهم بعضاً قبله الوداع. "تعالى هنا". قالها فرانسو ضاحكا وقبّل شارلوت فوق خدودها الحمراء قبله تلو الأخرى.

تراجعت شارلوت إلى داخل العربة، وقد احمرت غضباً حتى جذور شعرها.

صاح باليتير بحماس: "هيا بنا ننطلق باتجاه الشرق". وبمجرد أن جلست ماريكا بموضعها بداخل العربة، انطلقت العربة مرة أخرى مخترقة الطريق السريع جنوباً عبر الحقول والمراعي.

صاحوا ولوحوا بأيديهم بعضهم لبعض مرة أخرى، وبعد لحظات كان فرانسو وزوجته يلوحان لهم بمناديلهما من أعلى نافذة في الطاحونة.

هنالك تمتد الأراضي الزرقاء والعالم الواسع الضخم. كان باليتير يسير بجوار العربة، يحمل الحقيبة الزرقاء فوق كتفه، سعيداً بالمغامرة. أخيراً العالم كله أمامه؛ ممتداً ومشرقاً وهادئاً؛ مثل الجنة.

المراعي مليئة بالآلات الحصاد، يتردد فيها حفيف المناجل، والماشية بهية في الحقول؛ الطقس المتلألئ يمتطر قطرات الماء

فوقهم ببطء، التي تُخرج روائح الأرض الطيبة، وتصيح الديوك.  
وتمتد خلفه الأراضي المنخفضة، حيث عاش لسنوات، والتي  
سيحمل جمالها في قلبه إلى الأبد.

وقف ساكناً ليتأملها وترك العربة تستمر في السير. تدير  
الطاحونة أشرعتها الحمراء فوق الأشجار. احتفى الدير بسلام  
خلف أشجار السياج الضخمة، وقد امتدت الحقول والمزارع  
خلفه؛ كانت الأغنام ترعى ومجموعات الإوز تتحرك في الجوار؛  
تدفق النهر في مساره عبر الحقول والسدود، وهو يحمل القوارب  
معه، ويطير الحمام في الأنحاء.

"مرحى أيتها الأرض!" قالها باليتير صائحاً وأخذ حفنة من  
تربة الأرض ووضعها في جيبه وتمتم: "إنها أرض مقدسة". ثم  
استدار ونظر إلى غابة الدير الشاسعة، الأراضي الزرقاء البعيدة،  
العالم الواسع. التقط ريشة ديك ووضعها في قبعته. وسار بلا  
مبالاة كالطفل خلف العربة ذات الغطاء الأبيض التي كانت تتبختر  
أمامه على الطريق السريع.

امتد الوادي المنخفض الواسع بعيداً؛ تحت السماء الرمادية  
الباهتة وقت تساقط الأمطار.

في ظل كل هذا الاتساع؛ بدت المنازل كتلال النمل، والغابات  
مستوية، والقرى وطواحين الهواء بدت صغيرة وضئيلة؛ والناس  
أصغر من ذلك، كالنقط في المشهد، العمال منشغلون بأعمال  
الصيف النشطة. العربات المحملة بأكوام القش تسير على الطرق

نهابًا وإيابًا، وسارع الناس حول النهر الذي أحاط الأراضي  
الخصبة في حلقات كبيرة لامعة؛ بدت القوارب ساكنة، بينما  
زحف قطار سكة حديد أسود ببطء، تاركًا خلفه خطًا طويلًا من  
الدخان الأبيض. زفرت المنطقة بأكملها رائحة غنية مثل البخور،  
وفجأة برزت الشمس شاحبة من جهة الغرب، أرسلت أشعة قوية  
أضاءت القرى وانعكس بريقها على طواحين الهواء؛ وظهر قوس  
قزح يتألق ببريق لا مثيل له فوق هذه البلدة الرائعة المزدهرة.

ابتهج العالم!....

وها هي! بقعة بيضاء بعيدًا في الجنوب الصافي؛ العربة  
المغطاة تتمايل تحت قوس قزح العظيم.

وها هو باليتير؛ الباحث عن السعادة بكل أنواعها، يبتعد عن  
أرض "نت" في سعادة؛ ينطلق إلى العالم الواسع الجميل مثل  
الطيور والرياح.